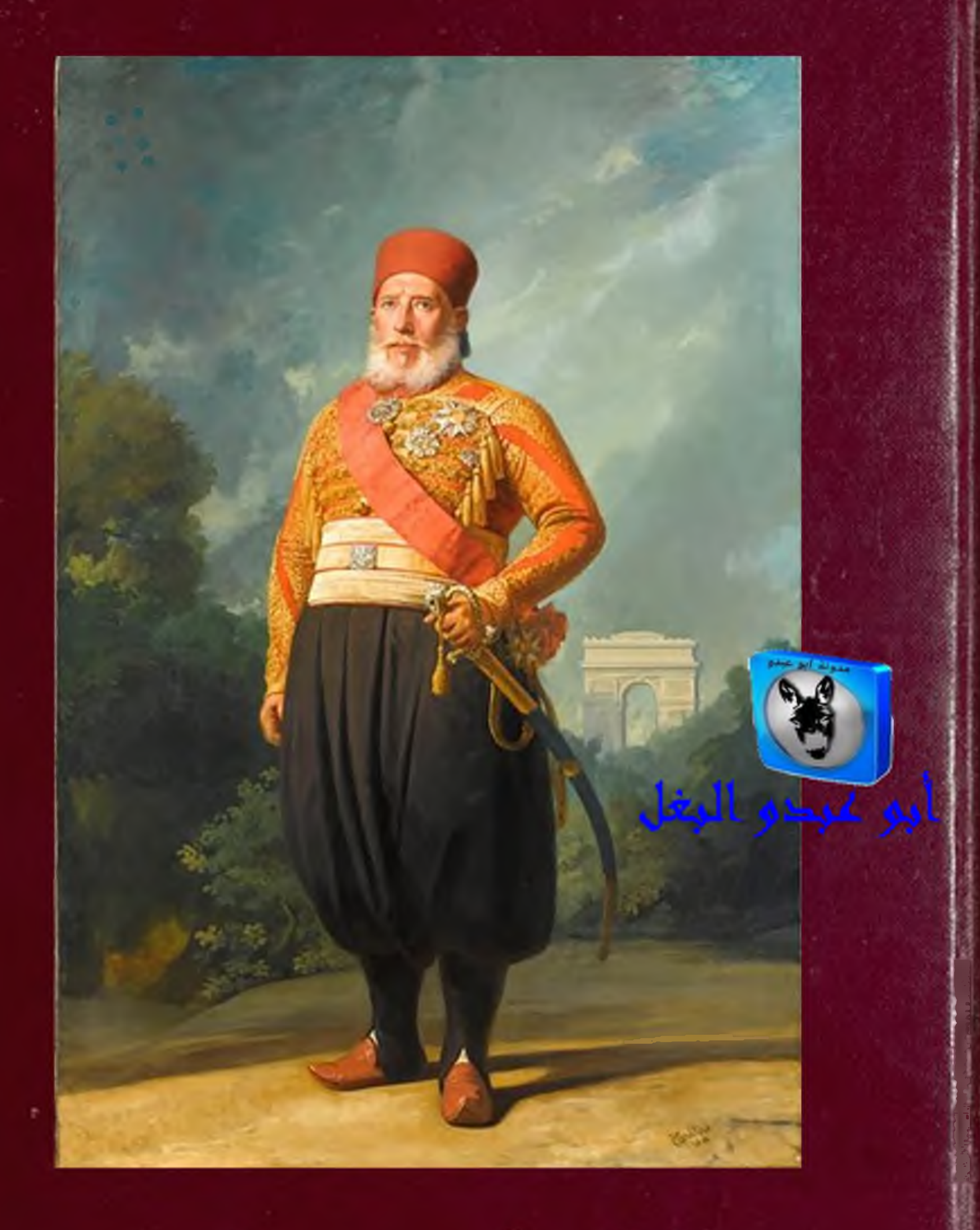


سليمان أبو عز الدين

ابراهيم باشا في سوريا

كتاب

ابراهيم باشا في سوريا

﴿ تقسيم الكتاب ﴾

الموضوع	صفحة
جدول الخرائط والرسوم	ج
المقدمة	د
جدول الكتب التي استمد منها المؤلف معلوماته	ه
محمد علي	٠٠١
طموح محمد علي الى التوسع والاستيلاء على سوريا	٠٣٣
التمهيد لغزوة سوريا	٠٣٩
اسباب الحملة على سوريا	٠٤٨
موازنة بين السلطان محمود ومحمد علي	٠٥٩
لمحة عن حالة تركيا وسوريا عندما غزاها ابرهيم باشا	٠٦٨
الزحف على سوريا والاستيلاء عليها :	٠٧٣
ـ محاصرة عكا	٠٧٥
ـ احتلال القدس	٠٧٦
ـ موقعة الزراعة	٠٨٢
ـ فتح عكا	٠٨٥
ـ فتح دمشق	٠٩١
ـ موقعة حمص	٠٩٥
ـ احتلال حلب	١٠٢

جدول الخرائط والرسوم

المقدمة

ان الحملة التي وجهها محمد علي باشا على سوريا في سنة ١٨٣١ بقيادة كبير ابنائه ابراهيم باشا وما تلا ذلك من تبدل الاحكام ونشوب الثورات وتضارب المصالح والسياسات تؤلف صفحات ذات شأن من تاريخ القطرين المصري والسوري بل ومن تاريخ السلطنة العثمانية والمسألة الشرقية · فوقوع النزاع ما بين السلطان محمود ومحمد علي اظهر للملأ الضعف المتناهي الذي كانت قد بلغته الدولة العثمانية وغزارة موارد البلاد المصرية والقوى الكامنة في سوريا والسوريين كما انه كشف النقاب عن اختلاف منازع دول اوربا وتشعب مطامعها ومراميها في بلاد الشرق الادنى

وقد كانت حكومة محمد علي في سوريا رغمًا عن كثرة شوائبها فاتحة عصر جديد انقلبت فيه طرق الحكم من الفوضى الى النظام ونثرت في اثنائه بذور النهضتين الادبية والسياسية في الديار السورية ·

فالارتباط ما بين عصر محمد علي وحالتنا الحاضرة وثيق العرى وهذا الذي يجعل للحوادث التي تخللت استيلاءه على سوريا وقيام حكومته فيها ثم الانسحاب منها اكبر اهمية في تاريخنا الحديث ·

وقد جُعل عنوان هذا الكتاب « ابراهيم باشا في سوريا » لان ابراهيم باشا تولى فتح البلاد ورئاسة حكومتها فكان اسمه اكثر شيوعاً

بين السوريين من اسم والده العظيم · وأفرد فصل خاص لسيرة محمد علي في الزمن الذي تقدم الحملة على سوريا يوضح لمن يطالعه ما تحلى به صاحب الترجمة من المزايا وما قام به من الاعمال

اما المستندات التي أخذت عنها المعلومات المودعة في هذا المؤلف فمعظمها لمعاصري محمد علي من افرنسيين وانكليز وسوريين وقد دوّن اكثرهم اخبار الحوادث التي شهد وقوعها بنفسه او نقلها عن الذين شهدوها وقد اشار المؤلف في ذيل الصفحات الى المصدر الذي استقى منه معلوماته وقد اثبتت اسماء هؤلاء المؤلفين ومؤلفاتهم في جدول خاص ·

وقد أردف الكتاب بفهرس مطوّل ليتمكن المطالع من الاستدلال على المادة التي يطلبها بسهولة · وقد لقي المؤلف معونة يذكرها بمزيد الشكر والامتنان لجامعة بيروت الاميركية وعلى الاخص للدكتور اسد رستم كبير اساتذة التاريخ الشرقي في تلك الجامعة الزاهرة الذي سهل له الاطلاع على مخطوطات ومطبوعات نادرة الوجود جزيلة الفائدة · ولنابغة الخط العربي الشيخ نسيب مكارم الفضل في كتابة عنوان الكتاب واسماء فصوله بخطه الانيق والعناية بحفرها فاستحق خالص الشكر.

بيروت ١٦ نيسان سنة ١٩٢٩ — سليمان ابو عز الدين

☙ الكتب المطبوعة والمخطوطة التي استمد منها المؤلف معلوماته ❧

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان وتاريخ الطبع او الحفظ
ابكاريوس — اسكندر بك	المناقب الابراهيمية	حمص سنة ١٩١٠
أبودبس جرجس	مخطوطة جرجس ابي دبس	جامعة بيروت الاميركية
الاسكندري ـ السيدان عمر الاسكندري وسليم حسن	تاريخ مصر من الفتح العثماني	مصر — مطبعة المعارف سنة ١٩٢٤
الايوبي — الياس	محمد علي	مصر مطبعة الهلال
جامعة بيروت الاميركية	مجموعة اوراق خطية عن سوريا في عهد محمد علي	جامعة بيروت الاميركية
جامعة بيروت الاميركية	مجلة « الكلية »	بيروت سنة ١٩٢٦
الجبرتي — عبد الرحمن	عجائب الاثار	مصر ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٢ هجرية
الدمشقي — ميخائيل	تاريخ حوادث الشام ولبنان	بيروت سنة ١٩١٢
الشدياق — طنوس	اخبار الاعيان	بيروت سنة ١٨٥٩
صالح — الياس	تاريخ اللاذقية	اللاذقية — مكتبة نجله السيد رفيق (مخطوطة)

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان وتاريخ الطبع او الحفظ
فريد — محمد بك	البهجة التوفيقية	مصر - المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣٠٨
قرآلي — الخوري بولس	المجلة السورية سنة ثالثة	مصر الجديدة
مجهول	حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول	المطبعة السورية — مصر الجديدة سنة ١٩٢٧ ! الناشر الخوري بولس قرآلي
مجهول	قصائد عامية عن حرب ابرهيم باشا في حوران	مخطوطة محفوظة عند المؤلف
مجهول - احد كتبة حكومة محمد علي في دمشق	مذكرات تاريخية	مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) — الناشر الخوري قسطنطين الباشا
مشاقة — الدكتور مخائيل	مشهد العيان (طبع)	مصر ١٩٠٨
مشاقة — الدكتور مخائيل	مشهد العيان	مخطوطة جامعة بيروت الاميركية
معلوف — عيسى اسكندر	تاريخ مدينة زحله	زحلة لبنان ١٩١١
نوفل — نوفل	كشف اللثام	مخطوطة جامعة بيروت الاميركية
المجري — حسين	مخطوط الشيخ حسين المجري	محفوظة عند المؤلف

كتب انكليزية

اسم المؤلف	اسم الكتاب ومكان وتاريخ طبعه
The British Admiralty	A Hand-book of Syria,
Carne, John	Syria, The Holy Land, Asia Minor Etc· London· 1853.
Churchill, Colonel	Mount Lebanon, London, 1853.
St. John, James Augustus	Egypt. and Mohammed Ali, London, 1843.
Meryon, Dr.	Memoirs of Lady Hester Stanhope, London, 1846
	Travels of Lady Hester Stanhope London· 1846.
Napier, Commodore Sir Charles.	The War in Syria, London, 1842.
Paton, A. A.	History of the Egyptian Revolution, London, 1870.
Robinson, G.	Three years in the East (Syria) Paris, 1837.
Rustom, Dr. A. J.	The Struggle of Mehemet Ali Pasha With Sultan Mahmud II. Beirut, 1925
Rustom, Dr. A. J.	Syria under Mehemet Ali (Translation) 1925.
Rustom, Dr. A. J.	Notes on Akka and its Defences, Beirut, 1926.
Smith. Lt. Conel Sir Frederic	The Present State of the Turkish Empire. (Translated from French and annotated) London, 1839.
Thornton, Thomas	The Present State of Turkey London, 1809.
Urquhart, David	The Lebanon, London, 1860.
Wilkinson, Sir Gardner	Modern Egypt and Thebes, London, 1843

كتب افرنسية

اسم المؤلف	اسم الكتاب ومكان وتاريخ الكتاب
Armagnac, M. le Baron Alfred	Nezib et Beyrout Paris, 1844.
Cadalvene et Barrault	Histoire de la guerre de Mehemet-Ali contre la Porte Ottomène, Paris, 1836.
Cadalvene et Barrault	Deux Années de l'Histoire d'Orient, Paris, 1840
Clot-Bey	Apercu Général sur l'Egypte. Paris, 1840
M. Douin, Georges	La Mission du Baron de Bois-le-Compte, Le Caire, 1927.
M. Driault, Ed.	Mohamed Aly et Napoleon, Le Caire, 1925
Gouin, Edouard	l'Egypte au XIX Siècle, Paris, 1847.
Guys, Henri	Beyrout et le Liban, Paris. 1850.
Jouplain.	La Question du Liban, Paris, 1908
Laurent, Achille.	Relation Historique des Affaires de Syrie, Paris, 1846.
Michaud et Poujoulat	Correspondance d'Orient Paris, 1833-1835.
Mouriez, Paul	Histoire de Mehemet-Ali. Paris, 1842.
Noradoungian,	Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottoman. Paris, 1900
Perrier, Ferdinand	La Syrie sous le Gouverment de Mehemet-Ali. Paris, 1840
Poujoulat, Baptistin	Voyage dans l'Asie Mineure Etc. Paris, 1840
Rey, Guillaume	Voyage dans le Houran, Paris, 1861
Vingtrinier, Aimé	Soliman Pacha Paris, 1886.



محمد علي باشا

محمد علي

منذ ولادته الى ان تولى على مصر

أنجب النصف الثاني من القرن الثامن عشر عدداً من اعاظم الرجال نذكر منهم اثنين من موسسي الدول لعلاقتهما بموضوع كتابنا هذا وهما نابوليون بونابرت امبراطور فرنسا ومحمد علي عزيز مصر

ولد هذان العظيمان في سنة واحدة في سنة ١٧٦٩ م ونشأت بينهما علاقة تاريخية خالدة الاثر في تاريخ مصر وسوريا · فقد كانت حملة بونابرت على مصر سبباً لقدوم محمد علي اليها في عداد رجال الحملة العثمانية التي جُردت لمحاربة الفرنسويين وبدأت شهرته ونال ترقياته الاولى في سلك الجندية في اثناء تلك المحاربة كما ان ما قامت به الحملة والبعثة الفرنسويتان من الاعمال العسكرية والادارية والعلمية في القطر المصري مهدت امام محمد علي سُبل التغلب على المماليك وتنفيذ خططه الاصلاحية في البلاد · وقد اشترك كل من بونابرت ومحمد علي في وضع اساس النهضة السياسية والادبية في الشرق الادنى · ومما كان يثير الطموح في نفس محمدعلي ولادته ونابوليون بونابرت في سنةواحدة

ونشوءه في البلاد التي نشأ فيه الاسكندر ذو القرنين فكما ان الاسكندر مكدوني الاصل كذلك محمد علي ولد في بلدة قوله وهي ميناء صغير من موانئ مكدونية !

على ان عظمة محمد علي لم تستمد من زمان ولادته ولا من مكانها ولا من نسب او نشب ورثه عن اسلافه لكن كبار المطامع والنفوس يرون في كل بارقة ما يحملهم على سعة الامل ويشحذ هممهم للمضي في طلاب العلا · اما العوامل الحقيقية التي ذللت امامه الصعاب ودفعته الى قمة المجد فهي ارادته الحديدية وذكاؤه النادر والحزم والدهاء اللذان كانا عدته في كل شدة مع مقدرة قليلة المثال على اغتنام الفرص التي سنحت له

نشأته وفواتح اعماله -- توفي ابراهيم آغا والد محمد علي ثم عمه طوسون آغا وهو لا يزال قاصراً ولم يتركا له مالاً يستحق الذكر فكفله حاكم قوله صديق اسرتهم [1] وربي محمد علي فقيراً يتيماً غير ان مضاء عزيمته وسعة حيلته جعلاه منذ حداثته من المتفوقين على اقرانه كما ان مربيه ازوجه من احدى قريباته وكانت سيدة ذات يسار فمكنته من الاتجار بالدخان ولقي في عمله هذا مساعدة من احد التجار الفرنسويين ربما كان لهاشي لامن التأثير في ميوله نحو ابناء الشعب الفرنسوي · ومما يروى عن فواتح اعماله ان سكان احدى القرى التابعة لحاكم قوله رفضوا دفع

---

(1) Gouin, Ed.; l'Egypte au XIX siècle, P. 151

الاموال الاميرية فتطوع محمد علي لتحصيل تلك الاموال منهم بقوة من الجند لا تزيد على عشرة رجال فقبل الحاكم تطوعه شاكراً واصحبه بالرجال الذين طلبهم فتوجه بهم الى مسجد البلدة العاصية ودعا اليه اربعة من وجهائها فهرولوا الى لقائه وهم لا يعلمون الغرض من هذه الدعوة فقبض عليهم واستاقهم مكتوفي الايدي الى مقر الحاكم وافهم اهل بلدتهم ان اذا بدت منهم حركة عدائية انزل باعيانهم المأسورين الموت العاجل فلزموا السكينة وبادروا الى دفع المال المطلوب [1] واتفق مرة مع جماعة من زملائه على المسابقة بالقوارب من ميناء قوله الى جزيرة طشيوز الواقعة قبالتها ولما آن اوان السباق كان البحر هائجاً هياجاً شديداً فخارت عزائم مناظريه وعادوا ادراجهم قبل انتهاء السباق اما هو فثبت على مغالبة الانواء والامواج وبقي مجداً في التجذيف الى ان بلغ جزيرة طشيوز بعد شديد العناء [2] ومن يتصفح تاريخ هذا الرجل العظيم يرى ان المزايا التي كفلت له النجاح في هذه الامور الصغرى هي هي نفس المزايا التي مكنته من التغلب على ما اعترضه من العقبات في معترك السياسة ودفعته الى القيام بجلائل الاعمال ·

قدومه الى مصر — نزلت الحملة الفرنسوية في مصر بقيادة الجنرال بونابرت في اول تموز (يوليو) سنة ١٧٩٨ م قاصدة حسب الظاهر

(١) Gouin, Ed.; l'Egypte au XIX Siècle, P. 151.

(٢) المؤلف نفسه ص ١٥٠

الاقتصاص من المماليك لاعتدائهم المتكرر على التجار الفرنسويين اما الغرض الحقيقي من ارسال هذه الحملة فهو اتخاذ القطر المصري قاعدة للتوسع ومزاحمة الانكليز في اسيا وافريقيا ومقاومة نفوذهم الاستعماري وجعل البحر المتوسط بحيرة فرنسوية [1]. فاتفقت الحكومتان الانكليزية والعثمانية على وجوب اخراج الفرنسويين من مصر وجهزت كل منهما حملة لهذا الغرض وكان محمد علي احد رجال الحملة العثمانية اذ جاء مع فرقة جندها حاكم قوله وتولى قيادتها ابنه علي اغا وكان محمد علي وكيلاً لذلك [2] القائد فوصلوا الى القطر المصري في تموز (يوليو) سنة ١٧٩٩ وبعدما اشتركت هذه الفرقة في محاربة الفرنسويين اضطر قائدها علي آغا الى مغادرة مصر والعودة الى وطنه فخلفه محمد علي في قيادة الفرقة ورقي الى رتبة بكباشي [3]. واستمر النزاع مع الفرنسويين الى حزيران (يونيو) سنة ١٨٠١ حيث ابرم معهم اتفاق يقضي بجلائهم عن مصر فانسحبوا منها في شهر ايلول (سبتمبر) من تلك السنة وعادت السلطة على مصر الى الدولة العثمانية فعينت خسرو باشا والياً عليها فتقرب محمد علي اليه وتولى قيادة فرقة من الالبانيين عدد رجالها ما بين ثلاثة واربعة الاف وكانت رتبته حينئذٍ تضاهي رتبة امير لواء في ايامنا هذه [4].

(١) Clot-Bey ; Aperçu Général sur l'Egypte, T. I, P. L.

(٢) Gouin, Ed. P. 152

(٣) المؤلف نفسه ص ١٥٣

(٤) « « « ١٥٣

قبيل الحملة

النزاع بين الوالي والمماليك — دخلت مصر في حوزة سلاطين آل عثمان سنة ١٥١٧ م على يد السلطان سليم الاول فرأى ان بعدها عن السلطنة يحول دون حكمها كغيرها من الولايات العثمانية فجعل لها نظاماً خاصاً ظنه يضمن توطيد سلطة الدولة العثمانية فيها ويمنع اتحاد كلمة الحكام المحليين وخروجهم على رجال السلطنة فجعل احد الباشاوات ممثلاً للسلطان في مصر فتبلغ بواسطته اوامر دار السلطنة لديوان الحكومة ويرسل المال السنوي المفروض على مصر الى دار السلطنة ويناط به حماية البلاد من الاعتداء الخارجي وحفظ التوازن بين امراء المماليك في الداخل ووضعت تحت امرته قوة من[1] الجند كانت في بادىء الرأي مؤلفة من ست فرق ثم زيدت الى سبع فرق . وانشأ مجلساً مؤلفاً من ضباط هذه الفرق فوض اليه ادارة اعمال الحكومة وخوله سلطة ايقاف تنفيذ اجراآت الوالي[2] واستئنافها الى الاستانة . وقسم البلاد الى اربعة وعشرين سنجقاً ووضع على رأس كل سنجق واحداً من بكوات المماليك[3] غير ان كرور الايام اثبت ان هذه التدابير كانت قيمتها نظرية اكثر منها عملية فلم تمنع ازدياد سلطة المماليك بل ما لبثوا ان صار لهم القول الفصل في كل امر وتضاءلت سلطة الوالي

---

(١) Clot - Bey ; T. I, PP. XLVI XLVII

(٢) المؤلف نفسه والجزء والصفحة نفسهما

(٣) Clot - Bey . P. XLVI

حتى غدا بازائهم اضعف [١] من الظل وكانت الدولة العثمانية تشعر بضعفها عن كبح جماحهم بالقوة فاقامت تتحين الفرص لالقاء الفتن بينهم وانتزاع السلطة منهم على انها بقيت من الضعف على الحال التي وصفنا الى ان نزلت الحملة الفرنسوية في مصر بقيادة الجنرال بونابرت فبطش هذا بقوات المماليك بطشاً شديداً خصوصاً في وقعة الاهرام الشهيرة فقلّ عددهم وضعفت قوتهم الحربية وانخفضت منزلتهم في عيون خصومهم وعيون اهل البلاد الذين ذاقوا الامرين من جور احكامهم [٢] فلما انجلى الفرنسويون عن مصر اوعزت الحكومة العثمانية الى خسرو باشا ان يعمل على محق ما بقي من سلطة المماليك [٣] اما هؤلاء فاخذوا في لمّ شعثهم والتحفز للقبض على ازمة الاحكام كما كان شأنهم قبل الاحتلال الفرنسوي وكان الانكليز يؤيدونهم في ذلك [٤] غير انه وقع التزاحم بين زعيميهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي على الاستئثار بالحكم لكن رغماً عن سوء عقبى هذا التزاحم بقي المماليك مستولين على اهم موارد البلاد التي لا يستطيع الوالي بدونها اداء مرتبات جنوده الذين عليهم يتوقف توطيد اركان حكمه وتنفيذ اوامره · فهنالك فتح باب النزاع بين الوالي والمماليك لطمع كل منهم بالتسلط وبينه وبين جنوده

---

(١) Clot-Bey, T.I, P.XLVII

(٢) Clot-Bey, T.I. PP. LI, LV-VII

(٣) المؤلف نفسه ص LVIII ج ١ .

(٤) Wilkinson, Vol. 2, P. 515

بسبب تأخر المرتبات ثم بينه ايضاً وبين الطامعين في الولاية من الباشاوات

مواطن القوة والضعف في صفوف المتنازعين — كان النزاع الاكبر بين المماليك والوالي . فالمماليك كانوا يرون ان التسلط على البلاد من حقهم لانهم توارثوه عن اسلافهم . ومع ان المصريين كانوا يعتبرون المماليك غرباء عنها فما لا ينكر ان مصر كانت وطنهم الدائم وقد تسلسل بعضهم من اسلاف قدموا الى مصر منذ اجيال اما الذي ينازعهم السلطة فيها وهو الوالي فهو الذي كان غريباً عنها والوطني احق بالحكم من الغريب فشعورهم بان الحق في جانبهم اكسبهم قوة معنوية جعلهم يتفانون في سبيل الذود عنه . زد على ذلك ان تفوقهم على الاتراك في اساليب القتال وخبرتهم الطويلة بالبلاد واهلها وبقاء معظم مواردها في ايديهم اضاف الى قواهم المعنوية قوى مادية لم يكن لدى منازعيهم ما يوازيها . اما اسباب الضعف في صفوفهم فاهمها التزاحم بين زعمائهم على الاستئثار بالحكم ونفور الشعب المصري منهم لما انزلوا به من الجور والامتهان وتناقص عدد رجالهم لكثرة ما خسروا في وقائعهم مع الفرنسويين . اما الوالي فكان رجاله اكثر عدداً من رجال المماليك وهم معروفون بشدة البأس لكنهم مفتقرون الى الاخلاص افتقار سيدهم الى المال الذي كان لا بد منه لارضاء جنود مأجورين . وكان في صفوف جنوده اختلاف في النزعات لتكونها من عناصر مختلفة كالانكشارية والدالاتية والترك والالبانيين . وكان الجنود كثيري الاعتداء على الناس ولا رادع يردعهم

فكانوا في نظر الاهلين هم والمماليك في مستوى واحد . ومن فظيع الاغلاط التي اشترك فيها الفريقان المتنازعان فقدانهم الشعور باي واجب نحو اهل البلاد التي يحكمونها وعدم مبالاتهم بما تحدثه معاملتهم للاهلين من السخط او الرضا ولم تكن الحكومة في عرفهم سوى اداة لابتزاز الاموال

طموح محمد علي الى منصب الولاية — هكذا كانت الحال في مصر حينما اخذ محمد علي يطمح الى منصب الولاية . ولا يستبعد ان تكون تلك الحال نفسها حملته على الطموح الى هذا المنصب بعد اقتناعه بعدم اقتدار احد من كبار الرجال المشتركين في النزاع على التغلب على منازعيه والاستئثار بالحكم وادارة شؤون البلاد بالحكمة والحزم . اما النزاع بين الوالي والمماليك فكان لا بد من دخوله سريعاً في دور حاد لان الوالي كان مدفوعاً الى الاسراع في منازلة المماليك بالاوامر التي وردت عليه من الاستانة [1] وبشدة حاجته الى المال لدفع مرتبات الجنود على انه ما كاد ينازل المماليك حتى تبين له خصم جديد من قواد جيشه وهو محمد علي الذي كان قبلاً من اصدقائه المقربين لكنه لما اختبر ما عند محمد علي من المقدرة والطموح صار يرى فيه صديقاً مخيفاً ولم يكن مخطئاً في رأيه هذا كما سنرى .

عندما تسلم خسرو باشا منصب الولاية في القاهرة كان المماليك

---

(1) Clot-Bey, T. I. P. LVIII

مستولين على الوجه القبلي من الديار المصرية وعلى معظم الوجه البحري [1] فوجه عليهم فرقتين من الجند احداهما بقيادة يوسف بك والثانية بقيادة محمد علي · فنازل المماليك فرقة يوسف بك وهزموها شر هزيمة قبل ان يصل محمد علي بفرقته الى ساحة القتال فنُسب انكسار فرقة يوسف بك الى تعمُّد محمد علي التأخر عن نجدتها فاستدعاه خسرو باشا ليلاً الى مقره في القلعة زاعماً انه يرغب مفاوضته في امر هام وهو انما كان يقصد الايقاع به فادرك محمد علي قصد خسرو باشا وجاوبه انه سيحضر لمقابلته نهاراً على رأس فرقته [2] وعلى اثر ذلك ثارت الجنود على الوالي طالبة مرتباتها المتأخرة ولم يستطع الوالي دفع المتأخر لهم فرغب طاهر باشا كبير قواد الجيش التوسط ما بينه وبين الجنود الثائرة فرفض خسرو باشا مفاوضته فانحاز طاهر باشا الى الجند وسار بهم الى القلعة فالجاء خسرو باشا الى الفرار وتولى الحكم بعده بالوكالة [3] سنة ١٨٠٣

منذ ابتداء الحوادث صار معلوماً ان هنالك محركاً غير منظور يدير من وراء الستار حركات الجنود والطامعين بالولاية بحذاقة لاعب الشطرنج البارع وكان ذلك المحرك محمد علي [4] لكنه رغماً عن طموحه

---

(١) Paton, A.A.; History of the Egyption Revolution Vol. 2 P. 6

(٢) Clot - Bey ; P. LVIII T. I - Wilknson's Modern Egypt & Thebes, Vol. 2, P 516

(٣) Wilkinson, Vol. 2, P. 516 & Paton, Vol. 2, PP. 6-7

(٤) الجبرتي جزء ٣ ص ٢٠١

الشديد الى منصب الولاية لم يتعجل الامر بل اتبع خطة تضمن له منصب الولاية بعد ان تقضي على سائر المرشحين لها والطامعين فيها وتزيل من طريقه العناصر المعادية [١] وبمقتضى تلك الخطـة اصبح كل من يتولى الحكم عرضة للقتل او العزل العاجل بعد ان ينال محمـد علي بواسطته بعض مآربه · فعليه بعد ان تولى طاهر باشا اعمال الولاية حمله محمد علي على مراسلة البرديسي احد زعيمي المماليك الكبيرين ليتقرب من المماليك [٢] ويأمن شرهم في اثناء العراك القائم بسبب الولاية لكن عهد طاهر باشـا بالولاية لم يطل لان الانكشارية ثاروا عليـه مطالبين برتباتهم فادى ذلك الى خصام بين الباشا والضباط الذين انتدبهم الانكشارية لمفاوضته وانتهى الخصام بقتل طاهر باشا [٣] واغتنم محمد علي هذه الفرصة فاتفق مع المماليك [٤] وكان في مصر حينئذ احد وزراء الدولة العثمانية المدعو احمد باشا قاصداً الى المدينة المنورة التي عين والياً عليها فاراد الانكشارية اجلاسه على كرسي ولاية مصر غير ان محمـد علي لم يوافقهم على ذلك وبالاتفاق مع المماليك طردوا احمد باشا [٥] من القاهرة ثم بطش الالبانيون [٦] بالانكشارية باغراء محمد علي ولم يبق في مصر من الرجال المتسمين الى

---

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٣٣ Gouin, Ed., 153

(٢) Wilkinson, Vol. 2, P. 517

(٣) Paton, Vol. 2, P 7 الجبرتي ج ٣ ص ٢٦٢

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ٤٤ و Clot-Bey, T. I, P. LIX

(٥) الجبرتي ج ٣ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٨ و ٢٧٢

(٦) الجبرتي ج ٣ ص ٢٦٨

حكومة الاستانة الذين يخشى محمد علي شرهم سوى خسرو باشا الوالي السابق الذي كان مقيماً في دمياط فهاجمه محمد علي وعثمان بك البرديسي برجالهما واحضراه الى القاهرة[١] وهكذا لم يبق لمحمد علي خصم ظاهر من رجال الاستانة كما ان عثمان بك البرديسي صارت اليه السلطة العليا بين المماليك لان مناظره محمد بك الالفي كان قد ذهب الى انكلترا طامعاً بالاستقلال بالحكم في مصر بمساعدة انكلترا ·

واتصلت بالدولة العثمانية اخبار الحوادث المصرية فراعها اتحاد المماليك والالبانيين فوجهت علي باشا الجزائري والياً واصحبته بالف جندي وبعد مناورات لامحل لذكرها اعترضت الجنود الالبانية علي باشا في طريقه من الاسكندرية الى القاهره ففتكت بجنوده وقادته اسيراً الى القاهرة ثم وجهوه الى سوريا لكنهم قتلوه في الطريق[٢]

وفي اوائل سنة ١٨٠٤ عاد محمد بك الالفي من انكلترا حاملاً الكثير من التحف والاموال وصعد نحو القاهرة في النيل · ولما كان وجوده في مصر يهدد محمد علي وعثمان بك البرديسي على السواء اتفقا على مقاومته فاعترضه رجالهما في النيل ونهبوا الاموال والتحف التي جاء بها اما هو فبادر الى النزول الى البر ونجا بنفسه واختبأ عند العرب[٣]

يظهر للقارئ مما تقدم ان محمد علي كان له نصيب كبير في تدبير

---

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٤٥ و Clot-Bey, T.I. p LIX

(٢) Paton, Vol 2., P 9 , Wilkinson Vol. 2, p 317

(٣) الالفي نفسه ج ٣ ص ١١ والجبرتي ج ٣ ص ٢٩٨

جميع الحوادث التي سلف ذكرها غير انه مع هذا كان بعيداً عن كل مسئولية تجاه الشعب والجند . فكان اذا تأخر دفع مرتبات الجند وقعت المسئولية على من يتولى ادارة البلاد وثارت الجنود عليه لا على قائد ذلك الجند واذا فرضت الاموال على الاهلين واستثقلوا وطأتها نقموا على الحكام الذين فرضوها اما محمد علي فكان في تلك الاحوال يشارك الجند والشعب في التوجع لما اصابهم ويظهر الاهتمام بتحصيل حقوقهم وتخفيف كروبهم فاصبح صديق الجند والشعب" (١) وهذه اهم النتائج التي كان يبغي الحصول عليها قبلما يرشح لمنصب الولاية لان على الجند والشعب يتوقف تثبيت قدمه في البلاد . واتفق ان مرتبات الجنود كانت متأخرة فثار الالبانيون على عثمان بك البرديسي وطالبوه بدفعها ففرض على اهل القاهرة ضرائب فادحة ليتمكن من دفع مرتبات الجنود فاغضب ذلك الاهالي ونزعوا الى الثورة فتدخل محمد علي في الامر واظهر عطفاً شديداً على الاهلين ووعدهم بالمساعدة لرفع هذه المظلمة عنهم فثابوا الى السكون . وكان المماليك قد اخذوا يشعرون ان محمد علي يبطن لهم العداء والحقيقة انه كان حينئذ في غنى عنهم بل صار إضعافهم خيراً له فبدأت المشادة بين الفريقين وتجددت الثورة في القاهرة على المماليك باتفاق الاهالي والالبانيين وحدث قتال عنيف وبرز محمد علي نفسه الى ميدان القتال فتغلب على المماليك والجأ جميع امرائهم

Clot - Bey. T. I, P.LX. 1 Paton Vol. 2, P 14 (١)

الى الفرار من القاهرة [١] فعندئذٍ اصبح محمد علي صاحب العقد والحل في القاهرة لان زمام الجند والشعب كان في يده غير انه لم يتسرع في طلب الولاية لنفسه ولعله حاول هذه المرة اثبات اخلاصه للدولة العثمانية حتى لا تناوئه متى آن اوان ترشيحه للولاية . وكان لا يزال موجوداً في القطر المصري اثنان من الباشاوات العثمانيين احدهما خسرو باشا والثاني احمد خورشيد باشا حاكم الاسكندرية . فدعا محمد علي علماء البلد واعيانها الى اجتماع اظهر لهم في اثنائه وجوب المبادرة الى تعيين والٍ على البلد واقترح اخراج خسرو باشا من معتقله وتقليده منصب الولاية فوافق العلماء والاعيان على ذلك [٢] غير ان الزعماء الالبانيين اعترضوا على هذا التعيين وطلبوا من محمد علي اخراج خسرو باشا من البلاد فاذعن الى طلبهم واعاد خسرو باشا الى الاستانة [٣] ولا يخفى ان الالبانيين كانوا رجال محمد علي الذين عليهم جل اعتماده ولديهم تودع اسراره فلا يعقل والحالة هذه انه كان يجهل شعور زعمائهم نحو خسرو باشا عندما اقترح رده الى منصب الولاية بل يستشف من عمله التواطوء مع الزعماء الالبانيين على اتخاذ ترشيح خسرو باشا لمنصب الولاية واخراجه من معتقله وسيلة لابعاده عن القطر المصري فيقرب محمد علي خطوة جديدة من الولاية بدون ان يكون في مظهره ما يغضب الباب العالي . والمشهور

---

(١) Paton, Vol 2, PP. 11 - 12 و Clot - Bey, T. I, P. LX.

(٢) Clot - Bey, T. I, P. LX - LXI

(٣) المؤلف نفسه ج ١ ص LXI و Wilkinson. Vol. 2, P 517

ان خسرو باشا كان يعتقد سوء النية في محمد علي فاظهر نحوه اشد العداء بعد عودته الى الاستانة وتوليه المناصب العالية فيها . وكان للعداء بينهما شأن عظيم في النزاع الذي وقع بعد ذلك بين السلطان محمود ومحمد علي

فبعد اخراج خسرو باشا من القطر المصري لم يبق فيه من كبار العثمانيين من يصح ترشيحه للولاية سوى خورشيد باشا فاتفق العلماء والاعيان وزعماء الجند على تعيينه والياً وتعيين[1] محمد علي قائمقاماً له ووافق الباب العالي على ذلك في سنة ١٨٠٤ اما خورشيد باشا فلقي ما لقي اسلافه من الصعوبات في الحصول على الاموال وفي دفع مرتبات الجنود ففرض الاموال الطائلة على اهل القاهرة وابتز كثيراً منها من بعض الافراد وخصوصاً من المنتسبين الى المماليك فشمل[2] الاستياء منه جميع الطبقات وكان في الوقت عينه يشعر بعدم اخلاص محمد علي وبشدة وطأته وظن انه يتخلص منه باشغاله بمحاربة المماليك غير ان انتصارات محمد علي في تلك المحاربة وشدة عطفه على الاهلين والجند زاده رفعة في عيون الجميع ووطد مكانته في البلد خصوصاً لدى العلماء[3] والاعيان فرأى الوالي انه لا بد له من قوة من رجال الدولة العثمانية تقف بجانبه وتعزز مقامه والا اضحى بين يدي محمد علي كريشة في مهب

---

(١) Wilkinson, Vol. 2, PP. 517 - 518
Clot - Bey, T. I, P. LXI

(٢) Clot - Bey T. I, P. LXII

(٣) الموقف نفسه من نفس الجزء والصفحة و Wilkinson, Vol 2, P. 518

الريح ففاوض رجال الدولة في ذلك بينما كان محمد علي بعيداً عن القاهرة مشتغلاً بمحاربة المماليك فوجهوا اليه ثلاثة الاف مقاتل من طائفة الدالاتية [(١)] غير ان وجودهم في القاهرة لم يزد موقفه الا ضعفاً وارتباكاً لانهم عمدوا الى السلب والنهب وارتكاب شتى المنكرات والمحرمات فزاد سخط الاهالي على خورشيد باشا لانه لم يشاء او لم يستطع كف اذى [(٢)] الجند عنهم كما ان محمد علي لما بلغه قدوم الدالاتية الى القاهرة عاد اليها واخذ يدس الدسائس على الوالي ويستميل عنه حتى رجاله الدالاتية [(٣)] . وبما ان تأخر دفع مرتبات الجنود كان من القواعد المطردة في ذلك الزمن ثار الالبانيون عليه مطالبين [(٤)] بمرتباتهم فوقف الدالاتية على الحياد فوجد خورشيد باشا نفسه في موقف لا يقل حرجاً عما كان عليه قبل قدوم الدالاتية [(٥)] وفي اثناء ذلك ورد مرسوم من الاستانة بتولية محمد علي باشا على جدة [(٦)] وانما جرى ذلك بناء على مخابرات سابقة بين الباب العالي وخورشيد باشا درءً للخطر الذي خشيا وقوعه عليها فيما لو بقي في مصر فاظهر محمدعلي استعداده لتنفيذ مرسوم الاستانة واخذ يتأهب للسفر غير ان الجند والشعب الساخط على الوالي

---

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢٤٧

(٢) Clot - Bey, T. I, PI.XIII و الجبرتي ج ٣ ص ٢٦٥

(٣) الجبرتي ج ٣ ص ٢٤٧ و ٣٠٢

(٤) Clot - Bey, T. I, LXII والجبرتي ج ٣ ص ٢٤٧

(٥) الجبرتي ج ٣ ص ٣٠٢ و ٣٦٥

(٦) Wilkinson, Vol 2, P 518 و Clot - Bey. T. I, P LXIII

رجوا منه ان يبقى في مصر لاقتناعهم بانهم لن يجدوا حاكماً ارأف من محمد علي بحالتهم او اقدر منه على انالتهم حقوقهم او اكثر كفاءة لتولي الاحكام فاتفق زعماء الجند والعلماء والاعيان على اسقاط خورشيد باشا من منصب الولاية وانتخاب محمد علي بدلاً منه [1] وكتبوا الى الاستانة في ذلك فاجيب ملتمسهم وتلقى محمد علي مرسوماً بذلك في تموز (يوليو) سنة ١٨٠٥ [2] اما خورشيد باشا فانه قاوم هذا التعيين لكنه اضطر اخيراً للتسليم واعيد الى الاستانة [3]

وما كاد محمد علي يفرغ من مناهضة الباشاوات العثمانيين حتى برز الانكليز لمقاومته طالبين من الباب العالي اسقاطه وتسليم ادارة الاحكام للماليك [4] بزعامة صديقهم محمد بك الالفي الذي ذكرنا قبلاً علاقته بانكلترا فارسل الباب العالي القبطان باشا باسطوله الى مصر لتنحية محمد علي باشا عن كرسي الحكم غير انه وجد الشعب والجند يؤيدانه ورأى الشقاق سائداً على الماليك [5] كما انه اطلع على غرض انكلترا من عزل محمد علي واعادة حكم الماليك وبناء على ذلك وعلى ما عرضه المصريون الى الباب العالي بواسطة ابراهيم بك ابن محمد علي الذي

---

(١) Wilkinson, 2, P. P. 518 - 519 و Clot - Bey, T. I, P. LXIII

(٢) Clot - Bey, T. I, P LXIII

(٣) Gouin. Ed. p. 161

(٤) Clot - Bey, T. I, P LXIV

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ١٧

اوفدوه الى الاستانة صدر مرسوم جديد بتثبيت محمد علي في منصبه [1] فوصل هذا المرسوم الى مصر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٦ وقد كان لمساعي قنصل فرنسا في الاسكندرية لدى القبطان باشا ولسفير فرنسا [2] في الاستانة وللمال [3] والهدايا التي بعث بها محمد على الى الاستانة تأثير عظيم في هذا التثبيت ·

وهكذا بلغ محمدعلي اخيراً بفرط دهائه المقرون بالشجاعة وضبط النفس المنصب الذي كان يتوق اليه فكان ذلك مصداقاً لبيتي ابي الطيب المتنبي المشهورين :

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ هو اولٌ وهي المحل الثاني
واذا هما اجتمعا لنفس حرةٍ بلغت من العلياء كل مكانِ

---

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٧ — ١٩
(٢) Clot-Bey, T. I, PP. LXIV - LXV
(٣) Wilkinson, Vol 2, P. 520

محمد علي

« منذ توليته على مصر الى وقت الزحف على سوريا »

يمكننا ان ندعو الدور الذي روينا حوادثه الدور الاول من حياة محمد علي السياسية وهو دور الطموح الى الولاية ونيلها والتأمل في الخطة التي اتبعها لاجل بلوغ تلك الغاية يرى فيها تمهيداً لما هو ابعد مرمى من مجرد الحصول على الولاية ويظهر ذلك جلياً متى قابلنا حالته عند ارتقائه الى منصب الولاية بحالة غيره من الولاة السابقين . فقد كان كل من تقدمه من الولاة اذا ما وطيء ارض مصر يشعر كأنه يقيم على ارض بركانية تهدده في كل لحظة بالانفجار اذ يرى الاعداء تحيط به من كل صوب ورابطة الاتصال بينه وبين الاستانة اوهى من خيط العنكبوت فالمماليك كانوا اصحاب الحول والطول في جميع انحاء البلاد وكان الشعب ناقماً على المماليك والولاة على السواء . والجنود التي عليها اعتماد الولاة كان دأبها المشاغبة واقلاق الراحة العامة بدلاً من اقرارها وحكومة الاستانة يمنعها بعد الشقة والضعف المتناهي عن تأييدهم بالقوة .

هذه كانت حالة الولاة الذين تقدموا محمد علي اما هو فقد خاط ثوب الولاية لنفسه بنفسه ومهد طريقها بيده ولم يرقَ اليها الا بعد ان

سلط بعض العناصر المقلقة على البعض الاخر فتطاحنت حتى انتهكت قواها[1] وامتلك في اثناء ذلك قلوب الاهلين ونال ثقة الجنود واخلاصهم وبقي الالبانيون وهم اشد الجنود بأساً واكثرهم تعلقاً به اصحاب التفوق على غيرهم فخضع جميع الطبقات من شعب وحكام وجنود لسلطته[2] اما طوعاً او كرهاً واجتمعت في قبضة يده القوية ازمة الاحكام والقيادة العسكرية التي كان يتجاذبها في العهد السابق الوالي والمماليك وقواد الجنود ·

نعم ان البلاد لم تخلُ تماماً من امور مزعجة كتذمر الجنود وتمردهم احياناً واعتدائهم على الاهلين والصعوبة في الحصول على الاموال غير ان شدة حزمه وسعة حيلته ورحابة صدره وتعلق العلماء والاعيان وزعماء الجند به مكنه من الحصول على ما يسد الحاجة من المال[3] ومن القضاء على كل اضطراب

ان بعد ارتقاء محمد علي الى منصب الولاية انقضى دور العمل من وراء الستار حيث كان هو الدافع وغيره العامل وهو صاحب التدبير وعلى غيره تحمل المسئولية · انقضى ذلك الدور وانحصر فيه تصريف الامور وحل المشاكل ومقاومة الخصوم في الخارج والداخل · فالمماليك

---

(١) Gouin P. 153 الجبرتي جزء ٣ ص ٢٠١

(٢) Wilkin sonVol 2, P 519

(٣) ص ٦٣ من المقدمة Clot-Bey, و Wilkinson Voe 2· P. 519

ضعفت قوتهم ولانت ملامسهم نوعاً ما لكن نفوسهم ما برحت تحدثهم باسترجاع سلطتهم وسابق مجدهم متى سنحت الفرصة

ومصالح الانكليز في الهند كانت آخذة في النمو وبنموها ازدادت مصر اهمية في نظرهم لتسهيل وسائل النقل بين انكلترا والهند بطريق البحر المتوسط ومصر والبحر الاحمر بدلاً من الطريق البحرية الطويلة حول رأس الرجاء الصالح [1] وهذا الذي كان قد دفعهم قبلاً الى مقاومة حملة بونابرت على مصر وسوريا واجتذاب محمد بك الالفي احد زعماء المماليك الى جانبهم وبذل جهد عظيم لتسليمه مقاليد الحكم في البلاد المصرية لقاء امتيازات ينالونها [2] منه غير ان تفرق كلمة المماليك وحزم محمد علي احبط مساعيهم كما روينا قبلاً ونظراً لاشتباك انكلترا في حرب مع الدولة العثمانية وشدة شكيمة محمد علي وحرصه على ابعاد كل تدخل اجنبي عنه لم يأمل الانكليز الاتفاق معه لا سيما انه كان شديد الميل الى الفرنسو بين الذين اخذوا بناصره حينما كان الانكليز يدفعون الدولة العثمانية الى عزله [3] فلذلك عزم هؤلاء على استخدام قوتهم وقوة المماليك لنزع البلاد من يد الدولة العثمانية وتنحية محمد علي عن الولاية وتسليم زمام الامور للمماليك . لكن جرت المقادير ضد التدابير فان عثمان بك البرديسي توفي في اواخر سنة ١٨٠٦ وزميله محمد بك

---

(١) A. A. Paton ; Vol. 2, P 80

(٢) كلوت بك ج ١ ص ٦٤ من المقدمة

(٣) Clot-Bey, T. I, p.p. LXIV - LXV

الالفي توفي في اوائل [1] سنة ١٨٠٧ فسادت الفوضى شؤون المماليك لفقد زعيميهم الكبيرين ولم يدرك الانكليز مبلغ الضعف الذي اصاب حلفاءهم وظنوا انهم ما برحوا يستطيعون الاعتماد على معاونتهم فوجهوا الى القطر المصري حملة مؤلفة من نحو خمسة الاف جندي يقودها الجنرال فرايزر فوصل الى الاسكندرية واحتلها في شهر اذار (مارس) سنة ١٨٠٧ ثم حاول احتلال رشيد اولاً وثانياً ليفتح طريق المواصلة بينه وبين المماليك وفي كلتا المرتين اخفق اخفاقاً تاماً [2] اذ امعنت الجنود العثمانية في الحملتين قتلاً وتشريداً واخذت عدداً كبيراً من الاسرى نقلوا الى القاهرة . اما المماليك فلزموا السكينة ولم يمدوا لمساعدة الانكليز يداً واخيراً دارت المفاوضة بين محمد علي والانكليز وانتهت بالاتفاق على ان يخلي محمد علي سبيل الاسرى وان تجلي الجنود الانكليزية عن الاسكندرية فبارحوها في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٧ [3]

فكان للانتصار الذي احرزه محمد علي صدى عظيم في مختلف انحاء البلاد ونال ارتياح الباب العالي وتأييده [4] واغتنم المماليك هذه الفرصة للتقرب منه فتوطدت سيادته في القطر المصري وعظمت هيبته في النفوس واتخذ محمد علي الخطر الذي كان يهدد البلاد من الخارج

---

(١) Clot-Bey, T. I, p. LXV

(٢) المؤلف نفسه ص LXVI و Wilkinson, Vol. 2, pp. 523 - 524

(٣) « « ونفس الصفحة Wilkinson, Vol. 2, pp. 524 - 525

(٤) « « « « P. 525

جمة لتحصين الثغور وشحن الاسكندرية بالمقاتلة وتولي الدفاع عن الثغور المصرية بنفسه وقد كان قبل ذلك يقوم بالدفاع عنها قائد البحرية العثمانية (القبطان باشا) وهكذا استقل بادارة الاحكام في القطر المصري و بالدفاع عنه في الداخل والخارج[1]

نكبة المماليك وحرب الوهابيين — اما رجال الدولة العثمانيه فرغماً عن ارتياحهم لانتصار محمد علي باشا على الانكليز الذين حاولوا الاعتداء على بلاد عثمانية كانوا ينظرون بعين الحذر والخوف الى نمو قوته وانتشار صيته وسطوته · وكانت في اثناء ذلك قد انتشرت الدعوة الوهابية في البلاد العربية ثم تحول اصحابها الى جيش فاتح فغزا الحجاز واستولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة فارتاع لذلك العالم الاسلامي ولم تستطع الجنود العثمانية صدهم بل امتدت غزواتهم الى العراق وسوريا · فانتدبت الحكومة العثمانية محمد علي لمقاتلتهم وهي تقصد بذلك تشريفه ظاهراً بالدفاع عن الكعبة والمدينة اما حقيقة الحال فهي انها كانت في حاجة الى من يرد عن ولاياتها غارات الوهابيين كما انها كانت تأمل ان المصادمة بين محمد علي والوهابيين تلقيه في ورطة عظيمة ربما قضت عليه وعلى الوهابيين معاً · على ان انتدابه لهذه المهمة الشريفة زاد مكانته رفعة في عيون المسلمين في جميع الاقطار[2] · فأخذ في تجهيز الجنود واعداد وسائل النقل الى الحجاز بحراً · فكانت هذه اول حركة صناعية كبرى

---

(١) Wilkinson, Vol. 2, P. 525

(٢) كلوت بك ج ١ ص ٦٨ من المقدمة و Wilkinson Vol. 2, PP. 526 - 527

قام بها اذ جمع لها المواد والصناع من جميع انحاء القطر المصري وانشأ المصانع في بولاق[1] حيث جهزت السفن اجزاء ونقلت كذلك الى السويس حيث ركبت فكان ما انشاه بضع عشرة سفينة ·

ولما اقترب اوان تسيير الحملة الحجازية رأى من الحكمة ان يطهر البلاد من المماليك الذين كان قد قاتلهم قتالاً شديداً في الاعوام الماضية حتى خضد شوكتهم وظن ان لا تقوم لهم قائمة بعدها ثم قرّب كبارهم منه واقطعهم الاقطاعات لكن لما شرع في اعداد الحملة على الوهابيين اخذوا يكيدون له ويتآمرون عليه فعلم بمؤآمرتهم لكن تجاهلها[2] وعول على نكبتهم واختار لذلك اول اذار (مارس) ١٨١١ وهو اليوم الذي عينه لعقد لواء الحملة الحجازية في قلعة الجبل لولده طوسون باشا · فدعا الى الحفلة كبار رجال حكومته وامراء المماليك وبعد انتهاء الحفلة ركب المماليك خيولهم وهموا بالخروج فوجدوا باب القلعة موصداً في وجوههم وكان الجنود قد احدقوا بهم وامطروهم وابلاً من الرصاص واجهزوا على من بقي حيّاً بالسيوف[3] فلم ينج منهم احد من الذين شهدوا حفلة القلعة فكان في ذلك اليوم القضاء الاخير على قوة المماليك في مصر ولم يبق في البلاد من العناصر التي اعتادت الكيد للولاة واقلاق راحة العباد سوى طوائف الجند ·

---

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٠٩ و Gouin P. 225

(٢) Wilkinson. Vol. 2, P. 529

(٣) « « « 530

حرب الوهابيين — بدأت هذه الحرب في سنة ١٨١١ وانتهت في سنة ١٨١٨ . قاد حملتها الاولى طوسون باشا من سنة ١٨١١ الى ١٨١٥ واصيبت جنوده في بادىء الرأي بانكسار شنيع لكن عاد فاستولى على مكة والمدينة وجدة والطائف بعد متاعب واخطار جمة ثم ذهب محمد علي بنفسه الى الحجاز في اب سنة ١٨١٣ ليشرف على الاعمال الحربية فمكث هناك الى شهر حزيران سنة ١٨١٥ [1] .

ثم تولى قيادة الحملة الوهابية ابراهيم باشا من اواخر سنة ١٨١٦ الى ان انتهت في اواخر سنة ١٨١٨ فقهر الوهابيين واستولى على مدنهم واكره زعيمهم عبد الله ابن السعود على التسليم والذهاب الى مصر ومنها أرسل الى الاستانة فقتلته الحكومة العثمانية على اثر وصوله . فكان للقضاء على الوهابيين فرح عظيم في العالم الاسلامي اقترن به ذكر محمد علي بالاعجاب والتكريم . وظهرت في اثناء هذه الحرب كفاءة ابراهيم باشا وصفاته العسكرية الممتازة وبها ابتدأت شهرته التي طبقت الآفاق في ما تلاها من الحروب ومكافاة له على انتصاراته الباهرة انعم عليه السلطان بولاية جدة [2] وعدا الشهرة الواسعة التي نالها محمد علي في البلدان الاجنبية لتغلبه على الوهابيين ازدادت سلطته رسوخاً في القطر المصري وخصوصاً على رجال الجيش لان محاربة عدو باسل مدة سبع

---

(١) Paton. Vol. 2 PP. 47 - 49

(٢) Douin, Georges La Mission du Baron de Bois Lecomte· l'Egypte & la Syrie en 1833, P. 173

سنين في بلاد مقفرة اهلكت عدداً كبيراً من الضباط والجنود المشاغبين اما قتلاً في المحاربة او موتاً بالامراض كما ان الانكسارات الاولى التي اصابت الجيش قضت على "خيلاء" بعض كبار ضباطه بل اذلتهم ونزعت من الجنود الثقة بهم فاغتنم محمد علي هذه الفرصة لتمكين قبضته على ازمة الجنود وجعلهم متعلقين به رأساً بعد ان كانوا قبل ذلك تابعين لضباطهم فكان اذا انتقل الضابط من جهة الى اخرى انتقلت جنوده معه كانما هم مماليكه ولا علاقة لهم مباشرة بالقيادة العامة . [1]

حادثة لطيف باشا — كان لطيف باشا من مماليك محمد علي المقربين اليه فلما فتحت المدينة المنورة على يد طوسون باشا انتدبه مولاه لحمل مفاتيحها الى الاستانة وبعد رجوعه الى مصر ظهر تغير في سلوكه فنسب اليه التآمر على محمد علي ليحل محله بينما هو غائب في الحجاز . وقد اختلفت الروايات عن هذه الحادثة . فالرواية الكثيرة الشيوع هي ان رجال الاستانة رأوا من لطيف باشا في اثناء اقامته في عاصمة السلطنة اغتراراً بنفسه وحباً بالسيادة فانعم عليه السلطان برتبة الباشوية وأُغري على اغتصاب منصب مولاه [2] فانقاد الى هذه الوساوس وبعد رجوعه الى القاهرة اخذ ينفق المال عن سعة لاجتذاب المريدين الذين يعضدونه في تنفيذ مآربه وشعر محمد علي بتغير سلوك لطيف باشا فلما عزم على السفر الى الحجاز اوعز الى كاخيته وصهره لاظ محمد بك ليراقبه مراقبة

---

(١) Mohamed Aly & Napoleon PP. 176 - 177

(٢) Wilkinson, Vol. 2, P. 534

دقيقة فصدع بالامر واكتشف مؤامرة دُبرت لقتله هو نفسه ولاعلان وفاة محمد علي باشا في الحجاز وتولية لطيف باشا على مصر . فبادر الكاخية الى محل اجتماع المتآمرين وبعد ان فرّ لطيف باشا من منزله عاد فوقع في قبضتهم فحوكم واعدم في القاهرة في ١٥ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨١٣ [1] على ان بعض المعاصرين رووا ان قتل لطيف باشا كان مبنياً على تعليمات تركها محمد علي لكاخيته لاظ محمد بك لانه نقم على لطيف باشا لاسباب عديدة وهي: ان لطيفاً كان يجتمع كثيراً في اثناء وجوده في الاستانة باشخاص معروفين بعدائهم لمحمد علي وهذه الاجتماعات اثارت الشبهة في نفس محمد علي ثم ان لطيفاً طلب التزوج بابنة محمد علي ولما رُفض طلبه تفوه بكلام يزري بقدر مولاه واتى اموراً اخرى تدل على عدم الامانة لولي نعمته . وقيل ايضاً ان محمد علي اخذته الغيرة لان السلطان منح مملوكه نفس الرتبة التي منحت لاولاده ويؤيد اصحاب هذه الرواية كلامهم بكثرة القوات العسكرية في مصر التي كانت تؤيد محمد علي وكلها تحت قيادة اقاربه او مريديه الامناء بينما الذين كانوا يؤيدون لطيف باشا لم يتجاوز عددهم مائتي رجل فلم يكن من المعقول ان يحاول لطيف باشا قلب الحكومة والحال كما ذكر [2]

تنظيم الجنود وتمردهم — ان محمد علي كان شديد الرغبة في تنظيم جيشه على الطراز الاوربي لاختباره تفوق الجنود المنظمة على سواها

(١) Mohamed Aly & Napoleon. P. 537

(٢) Mohamed Aly & Napoleon PP. 237 - 238

في اثناء محاربة الحملة الفرنسوية ففي سنة ١٨١٥ لما عاد محمد علي من الحجاز اغتنم فرصة غياب اكثر الضباط والجنود الشاغبين في البلاد العربية وعمد الى تدريب فرقة من الجنود المقيمين في مصر مهدداً كل من يقاومه بالطرد من الجندية ومن القطر المصري فتمرد الضباط والجنود وتآمروا على قتله غير انه أنذر بمكيدتهم فنجا منها لكنه اضطر الى ارجاء امر التدريب العسكري الى حين وهدأ خواطر الجنود وضباطهم وطمأن الاهلين الذين كانوا يخشون شر الجنود المتمردين"[1]

—— وفاة طوسون باشا — وفي ٦ تموز (يوليو) سنة ١٨١٦ اصيب محمد علي بوفاة ولده طوسون فجزع عليه جزعاً شديداً وكان الحزن عليه عاماً بين اهل القاهرة لانه كان محبباً الى جميع طبقات الشعب لما اوتيه من دماثة الخلق وحب الخير وامتاز على صغر سنه بالحزم وسداد الرأي وشدة البأس وقد تولى قيادة الحملة على الوهابيين قبل ان يبلغ العشرين من عمره وكان لوالده وشعبه فيه امال كبار ·

الشروع في التوسع والاصلاح — ان اظهر صفات محمد علي بعد النظر والحزم والمرونة السياسية · ادرك برأيه الصائب ان اقتباس الانظمة الاوربية ومجاراة الاوربيين في الاساليب العمرانية امور لا بد منها لرقي بلاده وتثبيت دعائم حكومته التي كانت حكومة الاستانة تعمل على تقويضها فلما اخفق في محاولته تنظيم الجيش للمرة الاولى ستر اخفاقه

---

(١) Wilkinson, Vol. 2, P. 535

بلباقته السياسية لكنه بقي مصراً على العودة الى التنظيم عند سنوح اول فرصة وتمهيداً لذلك استمال اليه بوسائل مختلفة بعض كبار الضباط المعارضين [١] وجهز حملة لفتح السودان بقيادة ابنه اسماعيل باشا اقصت الباقين من هولاء الضباط ومن تابعهم من الجنود

جعل محمد علي للحملة على السودان ثلاث غايات [٢] وهي التخلص من الضباط والجنود الذين كانوا يقاومون التنظيم العسكري والقضاء على المماليك الذين فروا من القطر المصري الى دنقلة بعد مذبحة القلعة المشهورة والحصول على مصادر جديدة للثروة والتجنيد · والسودانيون قوم بواسل ظن محمد علي انه يستطيع ان يؤلف منهم جيشاً يحل محل الالبانيين وغيرهم · فبلغت الحملة غرضيها الاولين لكنها لم تأت بالفائدة المادية المرجوة ولا حققت الامال في التجنيد نظراً لعدم مناسبة جو مصر للسودانيين · فعمد الى تجنيد الفلاحين المصريين وانتدب لتنظيم الجيش ضابطاً افرنسوياً قديراً وهو الكولونل ساف (Seve) المعروف باسم « سليمان باشا الفرنساوى » وانشأ المدارس الحربية وبنى الاسطول ومع اصلاحاته هذه نمت الصناعة في البلاد واستعان على القيام بكل ذلك برجال الفنون والصنائع الاوربيين وكان اكثرهم من الفرنسويين لحسن علائقه السياسية بهم واقبالهم على بلاده · واهتم ايضاً بنشر المعارف في البلاد وتحسين الاحوال الصحية فانشأ المدارس والمستشفيات وارسل

(١) كلوت بك ج ١ ص ٦٩ من المقدمة
(٢) Wilkinson, Vol. I, P. 537

البعثات العلمية الى اوروبا واستقدم منها ارباب الاختصاص ·

ومن اصلاحات محمد علي المشهورة انشاء قوة منظمة من البوليس واقرار الامن في جميع انحاء البلاد حتى ضاهت مصر في ذلك البلدان الاوربية الراقية [1] ·

ووجه اهتماماً عظيماً الى الاصلاح الاقتصادي لان جميع مشاريعه لاقوام لها الا بالمال فنشط الزراعة والتجارة فدرت عليه الخيرات وبذل الجهد المستطاع في سبيل ترقية الصناعة لكنها لم تكن رابحة [2] · اما اعماله الزراعية فأهمها زراعة القطن الاميركي والنيلة واستيلاؤه على اكثر املاك القطر المصري بطرق جائرة وتسخيره العمال لاجل القيام بمشاريعه الزراعية التي وضعها تحت مراقبة رجال الحكومة في المديريات فنجحت اعماله وكثرت ارباحه لكنه انزل الضنك بعدد عديد من الملاكين والعمال باغتصابه الاملاك وتسخير الرجال · وزاد على هذه المظالم استعمال منتهى الشدة في تحصيل الاموال الاميرية وفرض ضريبة جديدة وهي « الفردة » او ضريبة الرؤوس [3] وكانت تجبى من رجال البلاد على اختلاف مذاهبهم ·

لكن رغما عن هذه المظالم فان اصلاحاته الجمة وتسامحه الديني جعله محترماً في عيون الاوربيين فازدادت العلائق بين البلدان الاوربية والمصرية

---

(١) Paton, Vol. II, PP. 79-80

(٢) « « « P. 77

(٣) « « « P. 79

وكثر عدد مريديه والمعجبين به من الاوربيين نظراً لما كان يبديه من البشاشة في استقبالهم والحذق في احاديثه الممزوجة بالظرف والفكاهة[١]

اشتراكه في اخماد ثورة اليونان — ان الاصلاحات والتنظيمات التي قام بها محمد علي كانت خطوات في سبيل الاستقلال ولم يفت الدولة العثمانية ادراك ذلك لكنها كانت في شغل شاغل عنه باضطراباتها الداخلية فلم تكن من مصلحتها مشاكسته او التعرض لاي عمل من اعماله بل لم تلبث ان وجدت نفسها في حاجة الى الاستعانة على محاربة ثوار اليونان . ويقال ان هو نفسه تطوّع لتقديم هذه المعونة ملتمساً اعطاءه الولاية على سوريا واعفاءه من دفع الجزية السنوية في اثناء المحاربة حتى ينفقها على الجيش المحارب[٢] .

اشترك محمد علي بجيشه واسطوله في اخماد ثورة اليونان في سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٢٧ وانتصرت جنوده على الثوار انتصارات باهرة غير ان انحياز انكلترا وفرنسا والروسية الى اليونان حال دون الحصول على ما كان يرجوه من وراء هذه الانتصارات بل ان الاسطولين الانكليزي والفرنسوي دمرا الاسطولين العثماني والمصري في موقعة نافارين الشهيرة في ٢٠ تشرين اول (اكتوبر) ١٨٢٧ . واضطر الى سحب جنوده من المورة بناءً على اتفاق خاص عقده مع دول الحلفاء

(١) Paton, Vol. 3, P. 82
(٢) Wilkinson, Vol. 2, PP. 543 - 544 و Clot-Bey, Vol, P. LXXIII

المتحيزين لليونان [١] .

فحرب المورة كلفت محمد علي خسارة معظم اسطوله غير انها اكسبته ولاية كريت التي كان قد اخضع ثورتها ورفعت مكانة الجيش المصري في عيون الاوربيين وزادت شهرة قائده ابراهيم باشا ومكنته من درس حالة الجيش العثماني عن كثب والوقوف على اسباب الضعف في القواد وجنودهم كما ان اتصاله بقواد الجنود الاوربيين الذين قدموا الى بلاد اليونان زاده خبرة بنظام الجندية الاوربية . واظهرت هذه الحرب بكل جلاء تفوق الجنود المنظمة على غيرها فضاعف اهتمامه بتنظيم الجيش وخصوصاً الخيالة لانهم كانوا لا يزالون غير نظاميين [٢] ثم ان انفراده عن السلطان بالاتفاق مع الحلفاء كان بمثابة اعتراف دول الحلفاء ضمناً بمقامه الممتاز . وكأن تأثيرات حرب المورة بعثت فيه نشاطاً جديداً وعلمته ان الحق في افواه المدافع وشفار السيوف فجد في تنظيم جيشه وفي بناء اسطول جديد تأهباً لفتح سوريا التي كان يطمع في ضمها الى مصر من زمن بعيد .

---

(١) Gouin, P. 408

(٢) Gouin, P. 416

طموح محمد علي الى التوسع
والاستيلاء على سوريا

بعد ما استقر محمد علي في ولاية مصر واوقع بالمماليك فأمن شر المزاحمين ووطد اركان الأمن في البلاد وعمل على انماء ثروتها الزراعية والتجارية واحدث نهضة صناعية وصار ذا جيش محكم التدريب يتولى ادارته امهر القواد المعاصرين اخذ يتأهب لغزو سوريا والاستيلاء عليها ٠

وسوريا ومصر شقيقتان طالما جمعتهما دائرة حكم واحد هذا فضلاً عما بينهما من روابط المصلحة والجنس واللغة ٠ فلم يكن مستغرباً طموح محمد علي الى الاستيلاء عليها لاسيما وهو الرجل الذي لا يفوته ادراك اهمية موقعها الجغرافي وما لها من المزايا الحربية والاقتصادية ٠ وقد شبه احد الكتاب مصر وسوريا بالنسبة الى ما وراءهما من البلدان الشرقية بشقتي باب واحد ٠ فكل واحد من هذين القطرين متمم للاخر والجمع بينهما فيه الخير كل الخير لهما ٠

ان الحملة التي وجهت الى سوريا بقيادة ابرهيم باشا بدأت الزحف في خريف سنة ١٨٣١ م اما طموح محمد علي الى الاستيلاء على سوريا فظهرت بوادره قبل ذلك باكثر من عشرين سنة اي في سنة ١٨١٠ عندما

لجأ اليه يوسف باشا الكنج والي الشام فاراً من وجه سليمان باشا والي صيدا . فسعى محمد علي لدى رجال الحكومة العثمانية لاعادة يوسف باشا الى ايالة الشام مشترطاً عليه ان يكون معيناً له على مد رواق سيطرته على سوريا غير ان رجال الاستانة لم يتلقوا طلبه بالارتياح ومع هذا فأنه لم يقطع الرجاء من تنفيذ مآربه وقد تبين مراراً من احاديثه انـه يبغي اعادة يوسف باشا الى منصبه في دمشق وتولية ولده طوسون باشا على عكا[1] وصرح باكثر جلاء بطامعه في سوريا وامله بالحصول عليها في حديث له في سنة ١٨١١ . فقد قال المسيو دروفاتي(Drovetti) قنصل فرنسا في مصر حينئذ في رسالة الى حكومته « ان محمد علي طامع في باشاوية سوريا وقد قال لي في احد الايام انه غير مستبعد حصوله عليها بتضحية مبلغ من المال يتراوح ما بين سبعة وثمانية ملايين من القروش يدفعها الى الخزينة السلطانية وقد اخذت فكرة الاستقلال تزداد قوة منذ تغلبه على اعدائه وعلى مشاغبات الجنود والارتباكات التي كانت تسود مالية البلاد[2] » وقد ذاعت في سوريا اخبار مطامعه حتى ان سليمان باشا والي الشام وصيدا بعد ان كان قد اخذ في اعداد حملة لمقاتلة الوهابيين عدل عن ذلك واقام متوقعاً هجوم عدوه الجديد من جهة الحدود الجنوبية[3] كما ان في مصر نفسها رغماً عما كان معروفاً عن تجهيز

---

(١) Driault, Ed. PP. 91-92
(٢) المؤلف نفسه ص ١١٩ و ١٢٠
(٣) « « « ١٢٤

حملة طوسون باشا لاجل محاربة الوهابيين اخذت الشكوك في غرضها تخامر افكار الاجانب والوطنيين على السواء وقد قال الموسيو دروفاتي عن هذه الحملة في رسالة ثانية الى الحكومة: «ان جميع التأهبات التي يقوم بها تدل على انها ستخترق الصحراء وتتجاوزها الى سوريا وغرضها الحقيقي لايزال سراً مكنوناً في ضمير الباشا وهو لم يحد في هذه المرة عن خطته المعهودة وهي التأني ثم التصرف بحسب مقتضيات الاحوال»[١]

فيتضح مما تقدم ان الاستيلاء على سوريا مشروع قديم لم يتمكن محمد علي قبلاً من اتخاذ خطة حازمة لتنفيذه لانه من سنة ١٨١١ الى سنة ١٨٢٨ ظل منشغلاً بمحاربة الوهابيين ففتح السودان فالاشتراك في محاربة ثوار اليونان وبعد ذلك شرع في بناء اسطول جديد كان لا بد منه لمعاونة الجيش البري على فتح سوريا. اما الاستيلاء على سوريا فكانت تعترضه ثلاث عقبات: اولها مقاومة الدولة العثمانية لان احتفاظها بسوريا على اعظم جانب من الاهمية نظراً لموقعها بالنسبة الى غيرها من الولايات العثمانية. فسوريا تعترض ما بين مصر والبلدان العثمانية في اسيا وهي ايضاً مفتاح البلاد العربية التي كان لمحمد علي نفوذ عظيم فيها بعد تغلبه على الوهابيين بل كانت له عليها سيطرة فعلية لان رجاله كانوا يديرون[٢] شؤونها وجنوده كانت لا تزال مرابطة فيها فلو ضمت سوريا الى مصر لاصبح في حيز الامكان انفراط عقد جزيرة العرب من جيد

(١) Driault, P. 126

(٢) Douin, P. 173

آل عثمان وزوال سلطتهم عن مصر وقيام دولة اسلامية جديدة الى جانب الدولة العثمانية تمتاز عليها بتجانس عناصرها وانتظام ادارتها ونظام جنودها وربما نازعتها الملك والخلافة اما اعتماداً على حق اكتسبته بما لديها من قوة ومنعة يجعلانها اكثر من آل عثمان اقتداراً على القيام بحماية الحرمين الشريفين والدفاع عن حوزة الاسلام او اندفاعاً بعوامل الطموح الى الملك وحب الانتقام من السلطان محمود ووزيره خسرو باشا لانهما كانا يضمران اشد العداء لمحمد علي وطالما نصبا الاشراك لاصطياده والايقاع به فنجا من كيدهما بشدة حزمه ودهائه ·

والعقبة الثانية احوال سوريا نفسها التي تجعل مهمة الفاتح والحاكم محفوفة بالمشقات لاختلاف نزعات السكان وصعوبة مراسهم ووعورة المسالك وانتشار النظام الاقطاعي وكثرة المتغلبين واصحاب الامتيازات المحلية · والامتيازات المحلية لم تأتِ اصحابها عفواً بل نشأت في اكثر الاحوال عن اسباب وضرورات كانت مبررة لوجودها عند نشوئها كقيام اصحابها بنصرة حزب او مبدأ او عجز الدولة عن حماية ارواحهم واموالهم واضطرارهم للذود عن حياضهم بسلاحهم · وعلى كل حال فان من تمتع بحق ما ردحاً من الدهر لا يهون عليه التنازل عنه بدون عوض مهما كان منشاؤه ولا يصبر على سلبه منه فوراً بدون مقاومة · كما ان الحاكم القادر لا يسمح بقيام مملكة في وسط مملكة · وثبات الملك وانصاف المحكومين يستوجبان نفوذ سلطة الحاكم ومساواة الرعايا في

الغنم لحماية الارواح والحقوق وفي الغرم كالتجند ودفع الضرائب ولا سبيل الى بلوغ هذه الغايات الا اذا كان شعار الحكومة الحكمة والعدل واهتمامها موجه الى اسعاد الرعية وتوطيد دعائم العمران والامن وكانت لديها قوة يرهبها و يحترمها المحكومون ·

اما وقد كانت احوال سوريا واهلها كما وصفنا وكان محمد علي شديد الاصرار على نزع الامتيازات المحلية وفرض التكاليف المالية الثقيلة على شعب فقير وسوق شبانه الى ساحات القتال لمدد غير محدودة ومشاركة الافراد في ثمرات اتعابهم ومزاحمتهم على استثمار الموارد الزراعية والتجارية في بلادهم — لما كانت هذه خطة محمد علي كان لا بد من بعد حلول جيشه في سوريا واقامة حكومته فيها من اصطدام مصلحته وسلطته بالمصالح والتقاليد المحلية وما يرافق ذلك ويعقبه من الاضطرابات وشبوب نار الثورات

اما العقبة الثالثة فهي تصادم مصلحة محمد علي والمصالح الاوربية وعلى الاخص الانكليزية الشرقية · وهذه العقبة كانت عقدة العقد التي تعذر حلها على محمد علي كما تعذر على نابوليون من قبله

ان اهمية هذه العقبات لم تكن خافية على محمد علي غير انه لما عول على مهاجمة سوريا في سنة ١٨٣١ كانت الاحوال السياسية في اوربا والبلاد العثمانية مبشرة بنجاح مهمته فلم يخش مقاومة العثمانيين لعلمه ان

حكومتهم كانت منشغلة باخماد ثورة البوسنه (١) وتسكين الاضطرابات في البانيا كما ان سوريا كانت خالية من قوات تدافع عنها فحامية حلب كانت قد وجهت الى بغداد لمحاربة واليها المتمرد داود باشا وكانت الفوضى ضاربة اطنابها في دمشق لانتقاض اهلها على الوالي سليم باشا وقتلهم اياه (٢) وكانت احوال ولاية صيدا مضطربة بسبب حوادث نابلس ومحاصرة قلعة سانور قبل (٣) ذلك. هذا فضلاً عما اصاب الدولة العثمانية من الضعف لتواصل الثورات الداخلية واشتباكها في حرب مع الروسية

اما الدول الاوربية فكانت منهمكة في تسكين الاضطرابات واخماد الثورات التي نشأت عن تأثيرات مبادىء الثورة الفرنسوية في نفوس شعوبها وسوف نرى انها لم تندفع لمقاومته الا بعد ما فتح جميع البلاد السورية واوغل في بلاد الاناضول حتى هدد الاستانة نفسها وكاد يثير حرباً اوربية بسبب المشاكل الدولية التي كان يخشى حدوثها فيما لو بلغت جنوده عاصمة السلطنة العثمانية .

اما اهل سوريا فيظهر انه لم يحسب لمقاومتهم حساباً لانه كان قد استوثق من ميل حاكم جبل لبنان واكثرية اللبنانيين الى جانبه ولم تفته معرفة استياء السوريين كافةً من الحكم العثماني لتوالي انتقاضهم على

---

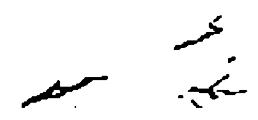
(١) St. John, Vol. 2, P. 484

(٢) مذكرات تاريخية ص ٣٠ و Paton, Vol. 2, P. III

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٦٢ — ٥٦٦

حكامهم وسيادة الفوضى والظلم في بلادهم .

ونظراً لتأثير جبل لبنان في اعمال حملة ابراهيم باشا ولعلاقة عبدالله باشا والي صيدا بحوادث الهجوم على سوريا سنذكر في الفصل التالي بعض التفاصيل عن الاعمال التمهيدية في عكا ولبنان التي سبقت توجيه تلك الحملة .



التمهيد لغزوة سوريا

في اواخر تموز سنة ١٨٢٢ فرّ الى مصر الامير بشير شهاب [1] حاكم جبل لبنان ملتجئاً الى واليها محمد علي باشا . وكان سبب فرار الامير انحيازه الى عبدالله باشا وزير ولاية صيدا الذي كان قد اغضب الدولة العثمانية بنزاعه مع درويش باشا وزير الشام فصدرت الاوامر بعزل عبد الله باشا عن ولاية صيدا وعزل الامير بشير عن امارة جبل لبنان [2] . اما عبد الله باشا فلم يرضخ للأمر القاضي بعزله فصدر امر السلطان محمود الى درويش باشا والى زميله مصطفى باشا وزير ولاية حلب [3] بالزحف على عكا لاخضاع عبد الله باشا والاقتصاص منه . فجاء هذا الحادث فرصة ثمينة لتدخل محمد علي في سوريا وتوثيق عرى المودة مع بعض حكامها واتخاذهم عدة لوقت الحاجة . واستمالة وزير ولاية صيدا وامير عظيم في لبنان تعتبر خطوة واسعة في سبيل تحقيق امنيته وهي الاستيلاء على سوريا لان عكا التي كان يقيم فيها وزير ولاية صيدا تعتبر من الوجهة الحربية مفتاح البلاد السورية كما ان الجبل لبنان

---

(١) المجلة السورية جزء ١ سنة ثالثة ص ٢٩ و ٣٠

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٣٣

(٣) « « ص ٥٣١

اهمية حربية عظيمة لمناعة موقعه وشدة بأس اهله واشرافه على الطرق المؤدية الى امهات مدن سوريا كبيروت وصيدا وعكا وطرابلس الشام ودمشق. سنحت هذه الفرصة لمحمد علي فاغتنمها وتوسط لدى الحكومة العثمانية في العفو عن الباشا والامير فتكلل سعيه بالنجاح. وما روي عن احاديث محمد علي مع الامير بشير وحفاوته به وعن شدة اهتمامه بابقاء عبد الله باشا وزيراً على ولاية صيدا وما جاورها من البلاد الفلسطينية الممتدة جنوباً الى حدود القطر المصري يدل دلالة واضحة على مطامع محمد علي في سوريا. وفي ما يلي بعض التفصيل عن اجتماعه بالامير بشير وعن الجهود التي بذلها لاجل استصدار العفو عن عبد الله باشا منقولاً عن كتاب « اخبار الاعيان » الذي كان مؤلفه معاصراً لمحمد علي والامير بشير. قال : [1]

« وسار (الامير بشير) الى القلعة فتلقاه المدير بالاكرام وبعد ايام حضر العزيز من شبرا الى القلعة واستدعى اليه جميع العلماء وبعض رؤساء العساكر وامر باحضار الامير فحضر فاستقبله العزيز بالترحاب وامر له بالجلوس وشرب القهوة واخذ يحادثه بالطف حديث ثم اصرفهم العزيز وامر بابقاء الامير وحده واسرّ اليه جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة لانه كان مزمعاً ان يتملك بلاد الشام بالسيف. ثم استأذنه الامير وذهب الى منزل الخزنه دار ثم عاد الى حيث كان

(١) اخبار الاعيان ص ٥٣٩ و ٥٤٠ و ٥٤١

نازلاً فارسل له العزيز اربع حلل من ملابسه واربعة آلاف ربع ذهب فندقلي · وفي ذات يوم حضر العزيز الى القلعة واستدعى الامير اليه فحضر فاخبره انه كتب يسترحم الدولة برجوع عبد الله باشا والياً كما كان وطمأنه على اجابة ما طلب · ثم رجع الامير الى منزله ونظر العزيز ان الخيل المقدمة لركوب الامير ليست جياداً فامر ان تبدل بخيل جياد وكان الامير يحضر كل يوم لمقابلة العزيز حسبما امره · وفي اثناء ذلك امره العزيز ان يرسل احد خدمه الى عكاء يخبر عبد الله باشا اني ارسلت الى الدولة اسأل رجوعه كما كان ويشدده بالثبات على الحصار فارسل الامير احد خواصه يبشر عبد الله باشا بذلك ·»

وبعد ايام حضر فرمان من الدولة بالعفو عن عبد الله باشا وانه يخرج من عكاء بماله ورجاله ويذهب الى مصر آمناً فشق ذلك على العزيز وانفذ رسولاً الى الدولة يقول للصدر الاعظم انه اذا لم يرجع عبد الله باشا كما كان يضطره الامر الى الخروج عن الطاعة فاتاه الجواب ان عبد الله باشا يبقى في عكا من دون ولاية فراجع العزيز طالباً رجوع الولاية لعبد الله باشا وورد تخبير من الاسكندرية ان رسول العزيز خرج من اسلامبول ومعه فرمان العفو لعبد الله باشا »

وبعد ايام وصل رسول العزيز من اسلامبول مصحوباً بذلك الفرمان ثم استحضر العزيز جميع العلماء ورؤساء العساكر فتلى عليهم ثلثة فرمانات الاول بالعفو عن عبد الله باشا وخروجه الى مصر بماله ورجاله آمناً والثاني

بالبقاء في عكاء والثالث برجوع المنصب له · ثم انعم العزيز على الامير وولديه بثلث فروات وثلثة من الخيل الجياد المزينة واكرمه بماية وخمسين الف غرش واذنه بالسفر[1] مع السلاحدار ٠٠٠ »

وفي سنة ١٨٢٣ بينما كانت الحكومة العثمانية غاضبة على عبد الله باشا حاول محمد علي ان يتخذ لنفسه حزباً في عكا نفسها فارسل اليها وفداً برئاسة احد كبار رجاله مزوداً بمبالغ كبيرة من المال آملاً ان في اثناء اقامة الوفد في تلك المدينة يتمكن من استمالة بعض اهلها الى جانبه وكانت مهمة هذا الوفد في ظاهر الامر العمل على ازالة اسباب الجفاء ما بين الباب العالي وعبد الله باشا غير ان عبد الله باشا ارتاب في امرهم وبدلاً من ان يستقبلهم في المدينة نصب المضارب لهم في خارجها وهناك تلقاهم بالترحاب واكرم وفادتهم الاكرام اللائق بمقام مرسلهم وفي الوقت عينه حال دون نجاحهم في المهمة السرية التي حضروا من اجلها[2] · على ان نجاح محمد علي في استصدار العفو عن عبد الله باشا والامير بشير اولاهما فضلاً جزيلاً كما انه اظهر للملاً ما عنده من قوة وما عليه رجال الاستانة من الضعف بازائه · ثم ما فتيء ان تدخل في شؤون سوريا تدخل ذي سلطان اذ امر الامير بشير عندما تقرر رجوعه الى لبنان « ان يهيء اربعة الاف مقاتل من بلاده ليرسلها الى

---

(١) عاد الامير بشير من مصر في شهر تشرين الثاني سنة ١٨٢٢ (F. Perrier, P. 335)

(٢) Wilkinson. Vol. 2, P. 345

الموره لمعونة ولده ابراهيم ان مست الحاجة الى ذلك [1] ثم اردف هذا الطلب بآخر مثله الى عبد الله باشا مكلفاً اياه تهيئة عشرة الاف مقاتل لبنانيين مشهورين بالشجاعة [2]

وفي سنة ١٨٢٥ ادى التحاسد والغيرة على السلطة والمصلحة الى استفحال امر الفتنة في جبل لبنان ما بين الامير بشير حاكم الجبل حينئذٍ وبين صديقه وعضده القديم الشيخ بشير جنبلاط كبير مشايخ الدروز لذلك العهد فنشبت الحرب بينهما وترامى خبر هذه الفتنة الى محمد علي فكتب الى عبد الله باشا يستحثه على المبادرة الى انجاد الامير بشير [3] بعسكره ففعل وكان النصر حليف الامير . وقبل ان يصل خبر هذا الانتصار الى مسامع محمد علي عاد فارسل « باش جوخداره » يصحبه اربعون هجاناً الى لبنان ليقفوا على جلية الامر وبعث معهم بكتاب الى الامير بشير يخبره انه جهز لنجدته حملة مؤلفة من الفي فارس واربعة آلاف راجل من الجنود النظامية وانه ارسل الجوخدار وصحبته « تتر » لكي يطلع على الحالة ويعيد التتر اليه سريعاً بالخبر اليقين حتى اذا كان هنالك ما يستوجب ارسال النجدة [4] اتته على جناح السرعة . وانما بادر محمد علي الى ارسال هذه البعثة وتأهب لارسال نجدة الى الامير بشير ليتخذ

---

(١) اخبار الاعيان ص ٥٤١
(٢) « « « ٥٤٥
(٣) « « « ٥٥١
(٤) « « « ٥٥٤

شبوب نار الفتنة في لبنان ذريعة للتدخل في شؤون سوريا [١] واحتلال امنع موقع من مواقعها الحربية وظن ان انشغال الدولة حينئذٍ في ثورة اليونان مما يحول دون تعرضها لمقاومته كما ان اشتراك اسطوله وجيشه في مساعدتها على اخماد تلك الثورة يبرر المطالبة بوضع سوريا تحت حكمه مكافأة له على تلك المساعدة [٢]. غير ان الفتنة اللبنانية كانت قد انتهت بفوز الامير بشير قبل وصول البعثة الكشافة من مصر ولم تبق له حجة للتدخل العسكري لكن ما لبث ان وجد مساغاً للتدخل السياسي تدخلاً جعل لحليفه الامير بشير السيادة المطلقة في لبنان . وبيان ذلك هو ان بعد فوز الامير بشير على خصمه الشيخ بشير جنبلاط لجأ الشيخ وكثيرون من اصحابه الى ولاية الشام فطلب عبد الله باشا من وزير الشام ان يقبض عليهم و يرسلهم الى عكا فانفذ الوزير من احتال للقبض على الشيخ بشير والشيخين علي العماد وامين العماد وغيرهم. وكان الثلاثة المذكورون اكثر الزعماء تأثيراً في مقاومة الامير بشير فقتل الشيخ علي العماد على اثر وصوله الى دمشق [٣] اما الشيخ بشير جنبلاط والشيخ امين العماد فارسلا الى عكا حسب طلب عبد الله باشا وحبسا هناك [٤]

---

(١) Guys, H : Beyrout. & le Liban, Vol. 2, P. 126
Urquhart, S., The Lebanon, Vol. I, P. 146

(٢) Clot-Bey T. I, P. LXXII

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٥٦

(٤) « « ص ٥٥٨

اما الامير بشير فلم يطمئن باله لوجود الشيخ بشير في عكا بقرب عبد الله باشا نظراً لما كان عليه الشيخ من الثروة والاقتدار ولتلون سياسة الولاة في ذلك الزمان واتخاذهم المنازعات المحلية وسيلة لتقوية نفوذهم في جبل لبنان وملء جيوبهم من اموال المتنازعين · عرف الامير ذلك بالاختبار فبادر الى تبليغ عبد الله باشا ان لا سبيل الى استتباب الراحة في جبل لبنان ما دام الشيخ بشير حياً وطلب منه ان يقتله فتظاهر الباشا بالاستعداد لتنفيذ طلب الامير غير انه لم يتعرض للشيخ بسوء بل احسن معاملته ولعله ابقى على الشيخ حفظاً للتوازن بين احزاب الجبل [1] لاسيما بعد ان شعر بمطامع محمد علي في سوريا وبميل الامير بشير اليه · فلما علم الامير بشير بما لقيه الشيخ بشير من حسن المعاملة في عكا اوجس خيفة من مراوغة عبد الله باشا وابقائه على الشيخ بشير فبادر الى انفاذ احد خواصه الى مصر مصحوباً بكتاب الى ولده الامير امين [2] يوعز فيه اليه ان يرجو من العزيز ان يؤيد طلبه من عبد الله باشا وهو الايقاع بالشيخ بشير فلبى محمد علي رجاء الامير كما ان عبد الله باشا عمل بحسب مشيئة محمد علي فقتل الشيخ بشير وقتل معه الشيخ امين العماد بناء على طلب الامير بشير [3] فكان لهذه النكبة اسوأ وقع في نفوس احزاب الشيخ بشير وبنوع خاص في نفوس اكثر الدروز الذين كان له عندهم اسمى

(١) Guys. H.; T. 2, P. 128

(٢) كان الامير بشير قد اوفد ولده الاميرامين الى مصر بهدية من الخيل النجدية الى محمد علي (اخبار الاعيان ص ٥٤٦)

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٥٨

مقام . فقد كان الشيخ بشير لا يقل نفوذاً عن امير الجبل نفسه لانه كان زعيم اكبر حزب في البلاد واعرض ارباب المقاطعات جاهاً واكثرهم ثروة ورجالاً فكان يحكم مباشرة مقاطعات الشوف واقليم الخروب واقليم التفاح واقليم جزين وجبل الريحان وكان يملك اكثر قرى هذه المقاطعات ومعظم قرى البقاع . فبما كان لديه من المال والرجال كان عاملاً فعالاً في تكييف سياسة الجبل وفي تولية الحكام وعزلهم . وكان فوق ذلك من نوابغ اللبنانيين في الذكاء وعلو الهمة والاقدام . فبقتله وقتل زعيمين من حلفائه آل عماد تخلص الامير بشير من اشد اعدائه نفوذاً وبأساً وطاب له الحكم في لبنان بدون منازع وبما انه كان مديناً بذلك لتدخل محمد علي ازداد الارتباط بينهما متانة وكان ذلك من الاسباب التمهيدية لغزو سوريا وفتحها .

بقي امر الاستيلاء على سوريا نصب عيني محمد علي فكلما سنحت فرصة اغتنمها لاجل تنفيذ مآربه فيها . فبعد انتهاء حرب المورة طلب من الدولة العثمانية ان تجعل ولاية صيدا تحت حكمه مكافأة له على اشتراكه في محاربة ثوار اليونان فلم تجب طلبه بل ولته بدلاً منها حكم جزيرة كريت [1] التي كان قد اخضع ثورة اهلها . على ان نظره لم يتحول عن سوريا ولما عجز عن الحصول عليها برضا الدولة العثمانية صمم على الاستيلاء عليها قسراً [2] . ومن ذلك الوقت اخذ في مجافاة الدولة

(١) Wilkinson, Vol. 2, P. 544 ; Gouin P. 417

(٢) الصفحة نفسها من ولكنسن وجون واخبار الاعيان ص ٥٣٩

العثمانية وعدم الانصياع لأوامرها فلما نشبت الحرب بينها وبين الروسية رفض الاشتراك فيها ضد الروسية[1] وواصل الجد في تنظيم جيشه البري وتجديد اسطوله[2] الذي كان قد أتلف معظمه في موقعة نافارين كما ذكرنا في فصل سابق ٠

---

(١) St. John : Egypt & Mohammed Aly, Vol. 2, P. 483

(٢) Wilkinson, Vol. 2, P. 546

أسباب الحملة على سوريا

كانت قاعدة ولاية صيدا في اوائل القرن التاسع عشر عكا ذات الشهرة حينئذ بمتانة اسوارها ومناعة موقعها الحربي وكانت سلطة واليها تمتد جنوباً الى الحدود المصرية [1]. فعبد الله باشا الخزندار الذي جرت غزوة سوريا في عهده كان يتولى الحكم على ولاية صيدا وحمله الطمع والغرور على الطموح الى ضم ولاية الشام ايضاً فكان ذلك سبباً للنزاع بينه وبين واليها درويش باشا واثار على نفسه غضب الدولة العثمانية التي أيدت درويش باشا. وقد اوضحنا قبلاً ان محمد علي والي مصر كان طامعاً في سوريا ولا يجد فرصة الا اغتنمها لتمهيد السبيل للحصول عليها فتدخل لدى الباب العالي لاجل حسم النزاع والعفو عن عبد الله باشا وهو يظن ان بتدخله في الامر والحصول على رضا الدولة العثمانية عن عبد الله باشا وحملها على استبقائه في ولاية صيدا يصبح عبد الله باشا صنيعته ويكون معيناً له على تحقيق امانيه في سوريا. الا ان ظنه هذا لم يصب اذ تبين له عندما ان اوان تنفيذ مطامعه ان عبد الله باشا كان اشد المقاومين لها ولذلك قد نسب الى عبد الله باشا عدم الوفاء ونكران

(١) كان عبد الله باشا يمضي رسائله هكذا: « السيد عبد الله والي صيدا وطرابلس ومتصرف لوا غزة والرملة والقدس والخليل ونابلس وجنين » [مجموعة جامعة بيروت الاميركية سنة ١٢٤٧ هـ]

الجبل على انه ليس من الانصاف الصاق هذه التهمة به بدون بحث ولا تحقيق ·

فقد ذكرنا في فصل سابق ان محمد علي ارسل الى عكا في سنة ١٨٢٣ وفداً غرضه في الظاهر ازالة الخلاف بين الدولة العثمانية وعبد الله باشا لكن كان وراء ذلك الغرض مهمة سرية ترمي الى استمالة اهالي عكا الى جانب محمد علي واتخاذ حزب له فيها يعتمد عليه عند الحاجة [1] وكأن امر هذه المهمة اتصل بعبد الله باشا فلم يترك للوفد فرصة للاختلاط باهل عكا بل استقبله خارج المدينة حيث نصب المضارب لنزوله بحجة تفشي الوباء داخلها · فترى من هذا ان عبد الله باشا ادرك منذ سنة ١٨٢٣ ان توسط محمد علي لدى الدولة العثمانية لم يكن منزهاً عن غاية شخصية بل كان يرمي الى استصناعه وتسخيره لمطامع يؤدي تحقيقها الى زوال نعمته وزحزحته عن كرسي ولاية صيدا التي كان يحكمها حكماً يكاد يكون مطلقاً · ومع هذا فان خطة التسامح التي جرى عليها مع محمد علي بعد استصدار العفو عنه تدل على شعوره بالجميل · ففي اثناء حرب المورة طلب محمد علي منه تهيئة عشرة الاف مقاتل من لبنان لانجاد ولده ابراهيم [2] فتلقى الطلب بالقبول على انه لم يطالب منه تنفيذه · ثم لما وقع النزاع بين الامير بشير صديق محمد علي وبين الشيخ بشير جنبلاط كتب الى عبد الله باشا يستحثه على انجاد الامير بشير فلبى عبد الله باشا

(1) Wilkinson, Vol. 2, P. 545

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٤٠

هذا الطلب [١] . ثم عاد محمد علي فارسل الى لبنان شرذمة كشافة وأعدّ حملة [٢] لتأييد حزب الامير بشير ولم نسمع ان عبد الله باشا احتج على ارسال هذه الشرذمة مع ان في ارسالها استخفافاً به وتدخلاً صريحاً في شؤون ولايته . ولما حقت الغلبة للامير بشير واصبح الشيخ بشير سجيناً في عكا طلب محمد علي اعدام الشيخ ارضاء للامير بشير فاجاب عبد الله باشا طلبه [٣] . رضي عبد الله باشا بهذه الامور وامثالها مع انها تحط من هيبته وتجعله بالنسبة الى محمد علي بمنزلة التابع من المتبوع ولا نخال انه كان يرضى بذلك لولا رغبته باظهار شعوره بحسن الصنيع

على ان كثرة تدخل محمد علي في شؤون ولاية صيدا واطلاع عبد الله باشا على ما يرمي اليه ادى الى وقوع الجفاء بينهما . ولا يبرأ عبد الله باشا من التأثر بعوامل الحسد من نمو قوة محمد علي وبزوغ شمس سعده لا سيما وانه كان شديد الاعتداد بنفسه ويغلب عليه نزق الشباب فيزعم انه شجاع كمحمد علي ووزير مثله وان له من مقامه في عكا ذلك الحصن الحصين عزة قعساء ليست لأحد غيره من الوزراء وكان يفخر بان حصون عكا منيعة لا تنال . حاصرها بونابرت في عهد الجزار وارتد عنها خائباً كما انه هو نفسه شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية مرتين

---

(١) اخبار الاعيان ص ٥٥١

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٥٤

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٥٨

فحاصرته فيها ولم تقوَ على فتحها [١] .

فاستمرار المجافاة بين الوزيرين وتحريض حكومة الاستانة لعبد الله باشا [٢] وأمد الحوادث التي تعد اسباباً مباشرة لتوجيه الحملة على سوريا على انه لا بد لنا من التمييز بين الاسباب التي جعلت محمد علي يطمح الى الاستيلاء على سوريا وبين الاسباب التي اتخذها ذريعة لغزوها .

فالعوامل الحقيقية التي دفعت محمد علي الى الاستيلاء على سوريا هي : طموحه الى توسيع دائرة حكمه وتوطيد اركانه باستخدام ما في سوريا من خيرات ورجال وبابعاد عاصمة بلاده عن الحدود العثمانية واقامة حاجز حصين بينهما وقد ظهر هذا الغرض في ما كتبه كلوت بك حيث قال : « ان ضم سوريا الى مصر كان ضرورياً لصيانة ممتلكات العزيز . فمنذ تقرر في الاذهان ان انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بانه لا يمكن ادراك هذه الغاية الا بضم سوريا الى مصر . وقد رأينا فعلاً ان شكل البلاد الحربي لا يجعلها بمأمن من الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق بوغاز السويس . فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسويين بقيادة بونابرت نجد ان سائر الغزوات جاءت عن طريق سوريا كغزوة

---

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٢٤ و Wilkinson, Vol. 2, P. 347
Rustom's Akka & its Defences PP. 52-53

(٢) Douin, Georges. P. 65

قمبيز والاسكندر والفتح الاسلامي وغزوتي الايوبيين والاتراك -
وعليه لا يمكن الاطمئنان الى بقاء مصر مستقلة الا باعطائها الحدود
السورية لان حدودها ليست في السويس بل في طوروس »[1]

هذا ما قاله كلوت بك في كتابه المطبوع سنة ١٨٤٠ وهو من
كبار رجال حكومة محمد علي وقد كتب ما كتب في اثناء حياة سيده
فسوريا الكثيرة الجبال والوديان يسهل على جيش منظم ان يجعلها سداً
منيعاً في وجه الغزاة من الشمال كما ان سكانها معروفون بشدة البأس
وكان عددهم حينئذٍ نحو المليونين · فبهم يزداد جيش محمد علي قوة
وتخف وطأة التجنيد على الفلاح المصري · وفي سوريا الاخشاب والفحم
الحجري والنحاس وغيرها مما لا وجود له في القطر المصري مع حاجته
لتوسيع نطاق المشاريع الصناعية · كما ان تربة البلاد السورية اكثر من
القطر المصري ملائمة للاعمال الصناعية · ناهيك عما لها من الاهمية
الاقتصادية والسياسية لاتصالها بالاناضول ولملائقها التجارية باواسط
آسيا · وفيها تمر القوافل ما بين خليج العجم وموانىء البحر المتوسط
حاملة حاصلات الشرق الى الغرب ومصنوعات الغرب الى الشرق
كما انها طريق الحجاج الى بيت الله الحرام · ولدمشق وهي باب الكعبة
اهمية دينية كما انها كانت ذات صناعات انيقة ومركز تجارة واسعة ·
فكل هذه الاعتبارات جعلت محمد علي شديد التشبث بوجوب ضمها

---

(١) Clot-Bey, T. I, P. LXXV

الى مصر ·

ومطامع محمدعلي لم تنحصر في الاستيلاء على سوريا بل كان يتوق الى تثبيت قدمه في شبه جزيرة العرب · فبعد شروعه في محاربة الوهابيين ظهرت رغبته في احتلال جزر البحر الاحمر وشواطئه الشرقية [1] فدخول سوريا في حوزته يقطع خط المواصلة بين شبه جزيرة العرب وعاصمة السلطنة العثمانية فيخلو له الجو للتبسط في البلاد العربية ·

ومن رأي بعضهم ان عداء السلطان محمود ورجاله لمحمد علي ومحاولتهم اسقاطه من منصة الحكم دفعاه الى محاربة الدولة العثمانية ومهاجمتها في سوريا عملاً بالمثل القائل « تغدَّ الذئب قبل ان يتعشى بك [2] » · ومما قيل تأييداً لهذا الرأي هو ان السلطان محمود ورجاله هم الذين دفعوا لطيف باشا الى التآمر على خلع محمد علي وسعوا لالقاء بذور التحاسد والشقاق بين ابراهيم باشا ووالده محمد علي اذ انعم السلطان على ابراهيم باشا بولاية جدة ولقب شيخ الحرم المكي وهذا يجعله مقدماً على والده في المقامات الرسمية · كما انهم يروون ان السلطان اخلف وعده لمحمد علي بمنحه باشاوية سوريا بعد حرب الوهابيين ثم بعد حرب المورة لكن في المرة الاخيرة ابدله منها جزيرة كريت التي كان خرجها يزيد على دخلها نحو ضعفين [3] ·

(١) Mohamed Aly & Napoleon, P. P. 228-229

(٢) Clot-Bey, T, I. P. LXXI; Wilkinson, Vol. 2, P. 544; St. John, Vol. 2, P. 483

(٣) Gouin P. 417

وينسب عداء السلطان محمود لمحمد علي الى اسباب عديدة اهمها:

١ – نزعة محمد علي الاستقلالية والعداء القديم بينه وبين خسرو باشا والحسد الذي كان يجيش في صدر السلطان لنجاح محمد علي في جميع مشاريعه [١].

٢ – انسحاب جنود محمد علي من المورة بناءً على اتفاق عقد بينه وبين دول الحلفاء مباشرة بدون إذن الباب العالي [٢].

٣ – محاولة محمد علي اقناع الحكومة العثمانية بعدم محاربة الروسية ثم احجامه عن الاشتراك معها في تلك المحاربة [٣].

٤ – تحريضه اهالي الروملّي والالبانيا على الانتقاض على الدولة العثمانية ووعده مصطفى باشا والي اشقودره بامداده بالمال والرجال كما ثبت من رسائل وقعت في قبضة الحكومة العثمانية ومن اقرار مصطفى باشا نفسه [٤].

فلجميع ما تقدم من الاسباب كانت مراجل الحقد تغلي في صدور المتخاصمين ولم يبق امام الفريق الراغب في فتح باب النزاع الا ان يجد علة لمهاجمة الآخر وسرعان ما وجد محمد علي هذه العلة في المشادة التي وقعت بينه وبين جاره عبد الله باشا والي صيدا في زمن سادت فيه

(١) Wilkinson, Vol. 2, P. 547

(٢) St. John, Vol. 2, P. 483

(٣) St. John Vol. 2, P. 483

(٤) St. John, Vol. 2, P. 484
Guerre de Mehemeet Ali contre la Porte Ottomane 115

فوضى الاحكام في الولايات العثمانية ·

بدأ النزاع بين محمد علي وعبد الله باشا بتصادم مطامعهما فمحمد علي كان راغباً في التوسع وعبد الله باشا كان يطمع في ضم ولاية الشام كما كانت في عهد سلفه سليمان باشا · فلو وافق محمد علي على تنفيذ مقاصده في سوريا لضحى بامانيه القديمة واصبح اما تابعاً له او مقصياً عن منصة الاحكام ولا يخضع لذلك بدون مقاومة سوى الضعفاء او الزهاد وعبد الله باشا لم يكن من اولئك ولا من هؤلاء

وحقد عبد الله باشا على محمد علي لمخاطبته اياه بلفظة « ولدنا » بينما كان يخاطب الامير بشير حاكم جبل لبنان وهو تابع لعبد الله باشا بلفظه «اخينا» فتوهم عبد الله باشا ان استعمال لفظة « ولدنا » مما يزري بقدره[1] وحمله الغضب وشدة النزق على التفوه بكلام جارح في حق محمد علي على ان لفظتي « ولدنا » و« اخينا » استعملهما محمد علي لعبد الله باشا والامير بشير مراعياً سن كل منهما · لان عبد الله باشا كان في نحو الثلاثين من عمره والامير بشير في النحو الثالثة والستين اما محمد علي فكان في نحو الستين من العمر

وعلى كل فان اختلاف المصلحة كان السبب الاكبر في وقوع النزاع فاصبح الوزيران المتجاوران عدوين فتكررت مشاكات عبد الله باشا وشكايات محمد علي منه وهي الاسباب المباشرة للزحف على عكا

---

(١) مشاقة

وتلخص في ما يلي :

اولاً — ان طمع محمد علي في الاستقلال والتوسع وحروبه في الحجاز والمورة واهتمامه الشديد في انجاز مشاريعه الزراعية والصناعية جعلته شديد الوطأة على المصريين لكثرة ما ابتزه من الاموال واظهاره منتهى الشدة في تحصيلها وانتزاعه شبان البلاد من احضان عائلاتهم لاجل الخدمة في الجيش لمدة غير محدودة وتكليفه الالوف من الرجال القيام باعمال السخرة . فهذه المظالم حملت نحو ستة الاف منهم على الارتحال الى البلاد السورية المتاخمة للبلاد المصرية وكان بين هؤلاء بعض الشذاذ والمجرمين الذين غادروا البلاد لينجوا من القصاص [1] . فالاغضاء عن المهاجرة الى بلاد مجاورة يؤدي الى اضرار جسيمة في جندية البلاد وشؤونها الاقتصادية كما انه مخل بالامن العام لانه متى علم الاشرار ان اجتيازهم الحدود المصرية ينجيهم من العقاب ازدادوا جرأة على ارتكاب الجرائم والعبث بالامن . فتلافياً لاضرار المهاجرة ووقفاً لتيارها طلب محمد علي من عبدالله باشا ان يعيد المهاجرين المصريين الى بلادهم فابى عبد الله باشا اجابة هذا الطلب محتجاً بان المصريين من الرعايا العثمانيين كالسوريين ولهم حق الاقامة حيث شاؤا من الولايات العثمانية فحنق محمد علي لهذا الجواب وكتب اليه متوعداً انه سيذهب بنفسه لارجاعهم جميعاً وزيادة عليهم واحد [2]

---

(١) Wilkinson, Vol. 2, P. 345

(٢) Clot-Bey, T. I, P. LXXIII

ثانياً – انه عندما تدخل محمد علي لدى الباب العالي لاستصدار العفو عن عبد الله باشا وابقائه في ولاية صيدا اشترط الباب العالي على عبد الله باشا دفع ستين الف كيس الى الخزينة السلطانية وحيث لم يكن لديه كل هذا المبلغ استلف بعضه من محمد علي لكن ابى بعدئذٍ رد هذه السلفة [1]

ثالثاً – كان محمد علي قد اخذ في تنشيط زراعة التوت وتربية دود الحرير في القطر المصري وكان يأخذ بزره من جبل لبنان عندما يورق التوت لانه لو ابقي البزر في طقس مصر الحار لتفقس قبل ايراق التوت . ففي سنة ١٨٣١ منع عبد الله باشا اخراج البزر من لبنان لاستحكام الجفاء بينه وبين محمد علي [2]

رابعاً – أتهم محمد علي عبد الله باشا بانه كان يشجع تحويل تجارة الحاصلات المصرية الى طريق صحراء سينا [3] بدلاً من تصديرها عن طريق الموانى المصرية . وفي هذا التحويل ضرر عظيم بمصلحة محمد علي

وعدا الاسباب المتقدم ذكرها اذاع محمد علي بين السوريين انه انما ينوي الهجوم على عكا لاجل الانتقام للسلطان من عبد الله باشا لمروقه مراراً من طاعة مولاه حيث تظاهر بالاستقلال ودك قلعة سانور الى الحضيض بدون اذن السلطان واستعمل آلات الموسيقى التي كان

---

(١) Gouin, P. 418

(٢) مشاقة ص ٢٢٤

(٣) Paton, Vol. 2, P. 94

يستعملها الانكشارية مع ان السلطان محمود كان قد ابطلها بعد ان بطش باصحابها [1]

هذه خلاصة الاسباب التي اتخذت حجة لغزو سوريا · على ان السلطان لم يكن راضياً عن توجيه هذه الحملة لان الغرض منها كان منافياً لمصلحة الدولة العثمانية [2] فعزم على محاربة محمد علي واستصدر فتوى بتكفيره فكان جواب محمد علي على ذلك ان اعلن خروجه على السلطان واستمال الى جانبه شريف مكة فاذاع في الاقطار العربية وخصوصاً في مكة والمدينة منشوراً طعن فيه على السلطان محمود ناسباً اليه المروق من الدين والاسترسال في تقليد الكافرين معلناً ان من كان مثله لا يليق لتبوء منصب الخلافة والجلوس على عرش آل عثمان وأتبع ذلك بنداء الى المؤمنين كافة يستنهضهم الى نجدة الدين الذي يهدده من يجب عليه ان يكون اشد المدافعين عنه · وهكذا عاد محمد علي فانتحل للحملة على سوريا غرضاً جديداً وهو القيام بواجب مقدس يحتمه عليه الدين والمحافظة على كيان المسلمين من خطر اوقعهم فيه سلطان كثير المساوىء انتهك حرمة المساجد وخالف شرائع نبيه الكريم واوقع بالعلماء الذين اعلنوا كفره وقاوموا ما حاول ادخاله الى ديار المسلمين من الازياء والعادات المخالفة لنص الفتاوى واحكام القرآن الشريف الذي جاء به الرسول العربي الامين [3]

(١) Correspondance d'Orient, T. 7, P. 525 & Poujoulat, B., T. 2, P. 332

(٢) Wilkinson, Vol. 2, P. 549

(٣) Poujoulat, B., T. 2, P. 333



٥٩

محمد علي باشا



٥٩

السلطان محمود

موازنة بين السلطان محمود ومحمد علي

ذكرنا في ما تقدم مجمل الاسباب التي ادت الى نشوب الحرب بين محمد علي والسلطان محمود · ولاول وهلة ربما عرت القارىء الدهشة لاقدام تابع يحكم ولاية واحدة على مناجزة متبوع عظيم يتولى امر سلطنة مترامية الاطراف تمتد من خليج العجم شرقاً الى البحر الادرياتيك غرباً وله فوق شرف الانتساب الى سلالة قامت باعباء الملك اجيالاً طوالاً عظمة الخلافة التي تنحني امامها رؤوس المسلمين في الخافقين اكباراً واجلالاً · على ان كثيرين من الاحياء يذكرون ان مثل هذه الدهشة عرت فريقاً كبيراً من الناس في اواخر القرن الماضي عندما اقدمت اليابان على محاربة الصين وعدد اليابانيين حينئذٍ لم يتجاوز عشر عدد الصينيين · وجرى ما يقرب من ذلك في اوائل جيلنا الحاضر عند وقوع الحرب بين روسيا واليابان وقد كانت روسيا الى ذلك العهد غول اوروبا لها الموقع المنيع والجيش الذي لا يقهر ومع هذا فان اليابان الصغيرة فازت على جارتيها العظيمتين وكان لمزايا القواد وميزات الانظمة القول الفصل في تقرير مصير المتحاربين · فهذه العوامل نفسها رجحت كفة الميزان الى جانب محمد علي في نزاعه مع السلطان محمود

ان كلاً من التابع والمتبوع المتنافسين بذل ما في وسعه في سبيل الاصلاح واراد لبلاده مجاراة البلدان الغربية في نظاماتها ومباراتها في مضمار الرقي والعمران غير ان محمد علي كان امضى عزيمة من مولاه واوسع منه حيلة واكثر خبرة واقتداراً على تصريف الامور كما ان المصاعب التي قامت في وجه السلطان محمود لم يقم مثلها في وجه محمد علي فالماليك وهم اعظم خصوم محمد علي في مصر كان قد هلك اكثرهم[1] وانتهكت قواهم في وقائعهم مع جيش بونابرت وبعد ذلك دبَّ دبيب الشقاق بين زعمائهم وانحاز فريق منهم الى جانب محمد علي ثم مات زعيما الحزبين وانتشرت الفوضى في صفوفهما فهان امرهم على محمد علي وحيث رأى ان لا امان عليه من مكايدهم كاد هو لهم وبطش بهم بطشته المشهورة فلم تبق بازائه في مصر قوة يخشى معارضتها لان الشعب المصري لين العريكة مطواع لحكامه كما انه قد استعد بعض الاستعداد لتبدل الاحكام في اثناء اقامة الحملة الفرنسوية في مصر[2] ووجد في حكومة محمد علي من الانتظام ما لم يجد مثله في عهد الماليك

ثم ان البلاد المصرية ضيقة النطاق منبسطة الارض سهلة المسالك ولها من النيل خير وسيلة لتقريب المواصلات بين عاصمة البلاد وقواعد اقاليمها كما ان الارتباط بين ولي الامر وحكام الاقاليم كان وثيقاً واوامره نافذة وفي كل ذلك ما يحول دون نشوب الثورات ويسهل قمع اي

(١) Clot-Bey, T. I, PP. LI,-LV
(٢) Clot-Bey, T. I, PP. LV,-LVI

انتقاض على سلطة الحكومة قبل استفحال امره ·

تولى محمد علي الحكم في مصر سنة ١٨٠٥ ولما عوّل على غزوة سوريا في سنة ١٨٣١ كان قد وطد اركان الامن والاصلاح في بلاده فنظم الادارات الملكية والعسكرية وانشأ المدارس والمصانع وكانت جيوشه قد خاضت حروب الفتح والتأديب في السودان وبلاد العرب وابلت احسن بلاء في مقاتلة ثوار اليونان في المورة وكريت ونالت في جميع هذه الحروب انتصارات باهرة فبعدَ صيت محمد علي وزادت شهرة قواد جيشه وثبت ما للجنود المنظمة من المزايا على الجنود غير المنظمة ·

اما السلطان محمود فارتقى الى عرش السلطنة في سنة ١٨٠٨ وادارة البلاد وجنديتها فوضى وسلطته اسمية في الاقاليم البعيدة لانتشار النظام الاقطاعي وتغلب حكام الولايات القاصية كمصر وسوريا وبغداد والبانيا وغيرها ونمو الروح القومية ما بين رعاياه المسيحيين في اليونان وولايات البلقان الذين كانوا يلاقون معاونة وتشجيعاً من الدول والشعوب الاوربية فهذه الاحوال القلقة في مختلف انحاء السلطنة مع الاخطار الدائمة التي كانت تهدده من جهة الروسية جعلت مهمته الاولى تقوية السلطة المركزية باخضاع العناصر المشاغبة · فنجح في قهر كثيرين من الولاة العصاة وارباب الاقطاعات واستعصى عليه اخضاع الباقين كثوار اليونان ومحمد علي فكان له في كل ذلك وفي حروبه مع الروسية

ما يحول دون الاصلاح الذي كان ينشده ويستنزف اموال الدولة ويضعف جنديتها على ان ذلك لم يزده الا اقتناعاً بوجوب الاسراع في اصلاح طرق الحكم وادخال الانظمة الاوربية في الادارات الملكية والعسكرية لكن كان له من وجاق الانكشارية خصم عنيد · وخصومة الانكشارية حينئذٍ كانت شديدة الخطر لانهم بعد ان كانوا في ما مضى جيش الدولة الدائم ومصدر قوتها وحاملي رايات النصر من قطر الى قطر كثر عدد الرعاع في صفوفهم وضعفت فيهم الروح العسكرية وارتخت روابط النظام فصاروا بؤرة فساد ومصدر اضطراب وخطر دائم على السلطان ووزرائه ورعاياه يتدخلون في مختلف شؤون المملكة ويقاومون كل اصلاح بقوة السلاح · وكانوا يسومون الاهلين صنوف العذاب وليس في الدولة قوة تردعهم فاصبحوا ولهم الامر المطاع حتى اذا ماقاموا بمظاهرة ضد الحكومة نفسها شاركهم الاهلون في ذلك مكرهين بدون ان يعرفوا سبب التظاهر ومن غرائب اعمالهم انهم حاولوا مرة ان يرفعوا الى كرسي الحكم على احدى الولايات حلاقاً من عامة الناس لمجرد كونه صديقاً لهم · فجندية هذا شأنها لم تبق ذات قيمة حربية بازاء الجندية الاوربية التي كانت تتقدم في التنظيم العسكري تقدماً سريعاً · وكان السلطان سليم الثالث قد شرع في تنظيم جيش جديد على النمط الاوربي فاسخط الانكشارية فثاروا عليه وخلعوه ثم قتلوه وبقيت هذه حالتهم من التمرد والاستبداد الى عهد ابن عمه السلطان محمود فصمم على

التخلص منهم لكنه تريث الى ان ضج العلماء والوزراء وعامة الشعب من طغيانهم والتفوا حوله للانتقام منهم وكان قد اتم تدريب وتسليح فرق من رجال المدفعية على الطراز الجديد فتألب جميع الطبقات على الانكشارية وبطشوا بهم في سنة ١٨٢٦ وكانت ثورة اليونان حينئذ حامية الوطيس وتخللها تدخل الدول الاوربية تدخلاً عسكرياً وتلتها الحرب مع الروسية فاودت بالبقية الباقية لدى السلطان من المال والرجال فحق له ان يقول عندئذ :

ولو كان همٌّ واحد لاحتملته ولكنه همٌّ وثانٍ وثالثُ

بل واكثر من ذلك لان العقبات السابق ذكرها على خطورتها لم تقم وحدها في سبيل الاصلاح بل ان العلماء وهم حفظة الدين والمتسلطون على عقول جموع العامة الساذجين كانوا يقاومون الاصلاح لاعتقادهم ان كل جديد بدعة وجاراهم في ذلك جيش الموظفين الجرار وبينهم اكثر الوزراء وحكام الاقاليم وكبار القواد

فهؤلاء كانوا يحسبون ان في ادخال الانظمة الاوربية ضرراً بمصالحهم الشخصية وانقادت عامة الشعب اليهم والى العلماء فاعتبرت التجدد كفراً وقاومته اشد المقاومة . نعم ان السلطان قام ببعض الاصلاحات لكن لم يظهر منها للعيان الا ما كان سطحياً كتغيير ازياء الموظفين ورجال الجيش اما ما سوى ذلك فنظراً لاتساع نطاق السلطنة وصعوبة مواصلاتها فذهب كقطر في بحر كما ان القيادة العليا في

الجيش والمناصب الرفيعة في الولايات بقيت في ايدي رجال العهد القديم الذين لو شاؤا تنفيذ الاصلاح لما استطاعوا ذلك لجهلهم طرقه وعدم وجود مأمورين في دوائر حكمهم عارفين بالنظام الجديد . وكانت الحكومة المركزية ضعيفة بازاء الشعب ورجال الدين . ومن الامثلة على ذلك ان حكومة الاستانة شاءت تسمية شوارع العاصمة ووضع الارقام على منازلها لكنها احجمت عن ذلك خوفاً من ثورة الاهالي عليها [1] وشاء السلطان محمود ان يستخدم لتعليم ولي العهد استاذاً فرنسوياً واسع الاطلاع على اللغات الشرقية غير ان المفتي لم يجز ذلك فاضطر السلطان الى الرجوع عن عزمه [2] ولزيادة ايضاح رأي عامة العثمانيين في السلطان محمود واصلاحاته نورد خلاصة حديث لرحالة اوروبي مع احد اغاوات الاناضول . قال صاحب الحديث ما خلاصته:

ساقني الحديث مع اغا «دركلاداغ» الى الكلام عن ملابس السلطان محمود فسألني عما اذا كنت متأكداً من ان السلطان يرتدي ملابس الكفار فاجبته بالايجاب وقلت له ان ذلك غير محصور في السلطان وحده بل ان رجال جيشه وجميع المسلمين الداخلين في خدمة حكومته يرتدون الملابس الافرنجية . فقال الآغا ان محمود الثاني مجنون لا يفكر في مستقبل امته . ان رجوع مياه نهر «القزل يرمق» صعوداً الى منبعها لأيسر من حمل العثمانيين على احتذاء مثال الغربيين . انه يريد تجديد

---

(١) Correspondance d'Orient T. 7 P. 424

(٢) Poujoulat, T. I, P. 224

السلطنة العثمانية لكن الم ترَ ان منذ شروعه في التجديد المزعوم لم يكن نصيب السلطنة سوى الضعف والفشل؟ ان تركيا الجديدة تركيا ذات الاصلاح قد غلبها على امرها ثائر من رعاياها ! في اي زمان من تاريخنا بلغ السلطان من الضعف مبلغاً اعجزه عن تأديب تابع ثائر ؟ ان محموداً سليل عثمان ووارث الخلفاء . سلطان السلاطين وخاقان الخواقين مانح التيجان المسيطر على البحرين الابيض والاسود ومالك برّ آسيا والبلاد العربية وافريقيا واوروبا اخا الشمس وابا النجوم وابن عم القمر وظل الله الظليل على الارض - ان محموداً هذا خاف ان يسحقه ذلك الباشا المقدام الجالس على ضفاف النيل فاستغاث بالروسية لتحميه من محمد علي . وما ادراك ماذا ستجر هذه الحماية من الويل على البلاد ؟ فمن ذا الذي يجهل مطامع المسكوب في سلطنة آل عثمان ؟ فوا أسفي على هذه السلطنة التاعسة الجد . ان المصائب تهددها بينما حكامها لا يدركون الخطر المحدق بها[1] » . وقد روى صاحب هذا الحديث انه سمع مراراً عديدة في اثناء تجواله في الاناضول مثل الآراء التي ابداها آغا « دركلاداغ » .

ولا بد من ذكر عامل اخر كان من اشد العوامل في نجاح محمد علي واخفاق السلطان محمود وهو اعوان كل منهما . فقد كان اكبر اعوان محمد علي اولاده واحفاده وانسباؤه وابناء جلدته او غيرهم من الذين نشأوا تحت حكمه او ممن احسن اختيارهم من الافرنج والارمن

(١) بوجولا ج ١ ص ٢٢٣ و ٢٢٤

والسوريين . فكل واحد من هؤلاء عرف ما فطر عليه محمد علي من حب التدقيق في العمل والسهر على تنفيذ الاوامر والاحكام وتحقق ايضاً ان في البلاد ارادة واحدة طاعتها غنم ومخالفتها غرم وهذه الارادة هي ارادة محمد علي . فعمل كل في دائرته على تنفيذ مشيئة مولاه بدون تردد ولا ابطاء . ووجدوا بالاختبار ان في انجاح مشاريع مولاهم سعادة لهم لانه كان يغمر رجاله المفلحين بانعامه فكثيرون منهم صاروا من اصحاب المقامات الرفيعة والثروات الطائلة بما نالوه من المكافآت على اخلاصهم في الخدمة والنجاح في الاعمال التي قاموا بها . ففي هذا التضافر على تنفيذ مشيئة محمد علي في الاصلاح السر الاعظم في تكلل مساعيه بالنجاح . اما السلطان محمود فلم يسعده الحظ باعوان كاعوان محمد علي مع انه لم يكن اقل منه حباً بالاصلاح واهتماماً به . ورغبة في رفع مقام شعبه الى مستوى الشعوب الراقية . لكن حب الاصلاح شيء وتنفيذه شيء اخر وأنّى للسلطان محمود ان ينفذ مشيئته وهو عاجز عن اختيار استاذ قدير لتعليم ولي عهده في وسط قصره . او كيف يستطيع القيام بتجديد واسع النطاق في سلطته ما دامت حكومته في حالة من الضعف تمنعها من تسمية شوارع العاصمة وتسمير منازلها خوفاً من ثورة الاهالي عليها .

وقد قال اللورد بونسونبي (Ponsonby) سفير انكلترا في الاستانة في ذلك العهد ان السلطان محمود كان حسن القصد شديد الرغبة في

اصلاح بلاده لكنه لم يجد حوله من يستعين به على انجاز الاعمال الاصلاحية التي كان يرغب القيام بها ·

ان هذه الحالة كانت معروفة عند محمد علي تمام المعرفة لانه كان واقفاً على مجاري الامور في السلطنة العثمانية مطلقاً على ما اصابها من التضعضع والاختلال · ولهذا اقدم على محاربتها غير هيّاب ولا وجل ·

لمحة عن حالة تركيا وسوريا
عندما غزاها ابراهيم باشا

اختار محمد علي لمنازلة السلطان محمود الوقت الذي كانت فيه الدول العظمى منهمكة بالشؤون الاوربية ومقاومة مبادىء الثورة الفرنسوية كما ان الدولة العثمانية كانت خائرة العزم منهوكة القوى بسبب النكبات والخسائر التي نزلت بها كثورة تلي باشا حاكم يانينا وثورة اليونان الكبرى التي انتهت بنيلهم الاستقلال . وفي اثناء تلك الثورة بطش السلطان بالانكشارية (في حزيران سنة ١٨٢٦) الذين كانوا اشد اعداء النظام والاصلاح غير ان القضاء عليهم افقد الجيش العثماني قوة كان يرهب جانبها . وقبل ان تتمكن الحكومة العثمانية من تدريب جيش جديد وقعت الحرب مع روسيا فكبدت العثمانيين خسائر جسيمة في الرجال والاموال وقضت نهائياً باستقلال اليونان . فلما جاءت على اثر ذلك الحملة المصرية على سوريا اضطرت الدولة الى جمع الجنود من هنا وهناك فتألف منها جيش عديم التجانس تعوزه الدربة وكان ضباطه قليلي الخبرة بالفنون العسكرية وكثيرون منهم لم يرقوا الى رتبهم عن استحقاق بل رفعتهم اليها عوامل المحسوبية والمحاباة . اما حالة الجيش

للمصري فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . كان قائده ابرهيم باشا كبير ابناء محمد علي وهو قاهر الوهابيين ومدوّخ المورة . وكان يعاونه سليمان باشا الفرنساوي منظم جيش محمد علي وابرهيم باشا وسليمان باشا من اشهر قواد عصرهما عزماً وحزماً ودربة ولجنودهما بهما ثقة تامة لانهما قاداها الى مواطن النصر مراراً . ولم يكن عبدالله باشا الذي كان محمد علي ينوي تأديبه انعم بالاً من مولاه السلطان ولا كانت ولايته خالية من المغارم والفوضى السائدة في سائر الولايات العثمانية . فقبل ذلك بقليل حدثت ثورة في نابلس لم يستطع قمعها الا بعد محاربة بضعة اشهر والاستعانة بالامير بشير الشهابي ورجاله اللبنانيين الاشداء . وكان القلق لا يزال مستولياً على الافكار كما ان حبل الامن كان مضطرباً والحكام كبارهم وصغارهم لاهون عن اقرار السكينة وتأمين الحقوق بتكديس الاموال ومباراة غزاة البادية في السلب والتخريب . وقد وصف قاضي غزة لذلك العهد حالة البلاد وصفاً جلياً في حديث له مع احد الافرنج هذه خلاصته قال : ان مسعود الماضي كالمطرقة الثقيلة على رؤوس الغزّيين لا يهمه من امر هذا الشعب سوى سلب امواله . ان حاكمنا كرمال الصحراء دائم الظمأ . تتسرب ثروة البلاد الى خزائنه كما تتسرب مياه الانهار الى البحر بينما السكان يتململون ويئنون وكأن لم يكفهم ثقل وطأة الضرائب الفادحة حتى تذهب ثمار اشجارهم وغلال حقولهم طعاماً لعربان البادية الشرهين . ان هؤلاء العرب

السلابين ينهبون في كل عام من منطقة غزة ما تقدر قيمته باكثر من عشرة آلاف كيس . ﻫﻢ يفعلون ذلك ومنا احد لا يأتي باي عمل لايقاف تعدياتهم . حينما كان ابو نبوت حاكماً على هذه البلاد كان البدو قليلي الجسارة وكانت الحاصلات في حرز حريز . وبفضل سهره على اقرار الامن وفرض العقوبات على المجرمين الجأهم الى الخلود الى السكينة ...... اما اليوم فالبدو يسرحون ويمرحون حيث شاؤوا واكثر من ستة آلاف منهم منتشرون في البادية المجاورة فعلى هؤلاء كان يجب ان يجرد عبدالله باشا جنوده لا على الفلاحين النابلسيين . لقد طفح كيل الاستياء من هذه الحالة وكل واحد هنا يطلب التغيير . انهم يتهامسون ان محمد علي سيمد حكمه قريباً الى بلادنا . ويقولون ايضاً ان امتكم التي استولت على الجزائر تفكر في الاستيلاء على سوريا؛ فيا ايها البيك الفرنساوي ان الفاتح يلاقي عندنا احسن استقبال ويجد اعظم حفاوة من اية جهة جاء . ان الحالة التي نحن فيها لا يمكن احتمالها طويلا واذا تأخر قدوم الغازين فان شعبنا رغماً عن ضعفه سيثور .... أما ترى ان الضغط واليأس قد يدفعان المرء الى اقتلاع عيني النمر»[1]

هذا ما قاله قاضي غزة مع علمه ان المصريين كانوا يشكون مر الشكوى من صرامة حكم محمد علي وثقل وطأة التكاليف التي فرضها عليهم حتى لجأ الالوف منهم الى غزة نفسها والى غيرها من بلاد فلسطين

---

(١) Correspondance d'Orient, T. 5, PP. 404-405

لكن كان يعرف ايضاً ان في دائرة حكم محمد علي قد شمل الامن طول البلاد وعرضها كما ان دعاته في سوريا كانوا يذيعون بين اهلها انه اذا استولى على بلادهم لا يكلفهم سوى دفع الاموال الاميرية[1] . واقرار الامن ورفع التكاليف غير المشروعة غاية ما تتوق اليه نفوس السوريين . فشعب بلغ منه الاستياء الدرجة التي وصفها قاضي غزة لم يكن عبد الله باشا ليرجو منه نصراً كما ان الامير بشير حاكم جبل لبنان الذي كانَ في ما مضى عدته في وقت الشدة غدا شديد الارتباط بمحمد علي فلم يبق له ما يعتمد عليه في مقاومة حملة ابرهيم باشا سوى حصون عكا وشجاعة حاميتها . على انه لم يداخله الخوف من هجوم هذه الحملة لان افكاره كانت مشبعة بمناعة اسوار مدينته حيث عجز بونابرت عن فتحها في عهد الجزار ولانها زادت مناعة على ما كانت عليه في ذلك العهد اذ اضاف الجزار الى تحصيناتها القديمة بعد انسحاب الفرنسويين سلسلة ثانية من التحصينات وحفر امامها خندقاً عميقاً[2] . ولم تقتصر تحصينات عكا على اسوارها بل كانت تحميها ابراج عديدة من جهتي الشرق والشمال وكانت مباني الحكومة محاطة باسوار عالية . اما من جهة البحر فكانت اسوارها اقل متانة من الاسوار القائمة الى جهة البر لان المياه في مينائها قليلة العمق ولا تستطيع السفن الكبيرة الرسو فيها وكانت جميع

---

(١) Mouriez, T. III, PP. 276-277

(٢) La Guerre de Mehemet Ali Contre la Porte Ottomane PP. 68-71

التحصينات في حالة جيدة لان عبدالله باشا كان دائم العناية بترميمها وتسليحها . اما حامية المدينة فكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل [١] اشداء من الدالاتية والالبانيين والعرب ومن هؤلاء كان حرس عبدالله باشا الخاص . وكان لدى الحامية مدفعية قوية ومياه وافرة وكميات كبيرة من المؤن والذخائر بها الكفاية لاحتمال حصار طويل [٢] .

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٢٠ و La Guerre de Mehemet Ali p. 72

(٢) « « «

الزحف على سوريا والاستيلاء عليها

ان الحملة التي وجهها محمد علي باشا الى عكا بقيادة ولده الاكبر ابراهيم باشا كان عدد رجالها نحو ثلاثين الف رجل معها اربعون مدفعاً من مدافع الميدان وعدد اكبر من ذلك من مدافع الحصار [١] واشتركت معها قوة بحرية مؤلفة من ثلاثة وعشرين سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل بقيادة امير البحر عثمان نور الدين بك [٢] . كان رؤساء هذه الحملة من القواد المحنكين وسبق ان ثبتت كفاءتهم في حروبهم السابقة كما ان جنودهم كانوا مدربين تدريباً حسناً لكنها كانت مفتقرة الى مهندسين ماهرين [٣] وبدأت اعمالها الحربية في اول فصل الشتاء وهو اقل الفصول مناسبة لجيش تعود التعرض لحرارة الشمس وطول فصل الصحو .

شاع عزم محمد علي باشا على غزو سوريا في اوائل سنة ١٨٣١ وكان ينوي تسيير الحملة عليها في صيف تلك السنة غير ان تفشي الهواء الاصفر (الكوليرا) اوجب التاجيل الى فصل الخريف اي الى ما بعد زوال الوباء [٤] . فبدأ الزحف في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٣١

---

(١) Gouin, P. 418

(٢) La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 63

(٣) La Guerre de Mehemet Ali P. 79

(٤) Gouin. Ed. P. 418

فسار بعضها براً بطريق العريش فغزة فيافا فحيفا بقيادة ابرهيم باشا الصغير[1] اما القائد العام ابرهيم باشا الكبير فذهب بحراً من الاسكندرية الى يافا ثم الى حيفا ومعه اركان حربه وقسم من جيشه والمدافع الضخمة والذخيرة[2] . فاستولت القوة التي اتخذت طريق البر على المدن والبلاد التي مرت فيها بدون ان تلقى مقاومة واجتمعت القوتان في حيفا التي اتخذها ابرهيم باشا قاعدة لاعماله الحربية[3] ومستودعاً للمؤن والذخائر وبعد وصوله الى حيفا وفد عليه شيوخ القدس ونابلس وطبريا وقدموا خضوعهم له لانهم كانوا شديدي الاستياء من عبد الله باشا فكان لخضوعهم اهمية عظيمة لانه مكن ابرهيم باشا من بسط حكم والده على بلادهم بدون قتال واصبح خط مواصلاته البرية بأمن من الاعتداء . وتفرغ لتوجيه جميع جهوده الى محاصرة عكا[4] . وبما ان موقف اللبنانيين كانت له اهمية كبرى كتب ابرهيم باشا الى الامير بشير يستقدمه اليه فلم يلبِّ الامير الدعوة وحاول التزام خطة الحياد كما فعل في عهد بونابرت والجزار الى ان يتبين له رجحان كفة احد الفريقين[5] فبلغ ابرهيم باشا والده خبر تردد الامير بشير فغضب العزيز وكتب الى الامير كتاباً انذره فيه انه اذا تأخر عن الانضمام الى ابرهيم باشا « يخرب مساكنه ويغرس

---

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 62-63 و Gouin P, 418

(٢) « « « P. 63

(٣) « « « P. 67

(٤) P. 67

(٥) المؤلف نفسه ص ٨٤ واخبار الاعيان ص ٦٧ ، Beyrout et Liban, T. 2, P. 128



٧٥

ابراهيم باشا

موضعها تيناً »[١] . ثم حضر الامير بشير ببعض رجاله وابدى المعاذير التي اوجبت تأخيره فأحسن ابرهيم باشا استقباله وبالغ في اكرامه وأبقاه رهينة عنده[٢] .

الشروع في محاصرة عكا : شرع ابرهيم باشا في محاصرة عكا في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٨٣١[٣] فاستبسلت حاميتها في الدفاع عنها وخرج الدالاتية في الايام الاولى فهاجموا احدى استحكامات ابرهيم باشا في الجهة الشرقية وغنموا مدفعين واسروا نحو عشرين رجلا . فقابل ابرهيم باشا هذا الهجوم باطلاق المدافع على المدينة في ٨ كانون اول (ديسمبر) من الجهة البرية اطلاقاً متواصلاً ثم استأنف اطلاقها في ٩ منه واشتركت السفن الحربية في ذلك فجاوبتها مدفعية عبد الله باشا بشدة فكان ذلك اليوم من الايام الرهيبة على انه لم يأت بتأثير يذكر على حالة عكا[٤] لكن مدفعية عكا احدثت اضراراً في السفن المصرية التي حاولت الاقتراب من الاسوار البحرية[٥] . واستمر ابرهيم باشا على مواصلة الحصار وتشديده كما انه اخذ في احتلال المواقع المهمة في ولاية صيدا فوجه في ١٤ كانون اول سنة ١٨٣١ قوة مؤلفة من اربعة آلاف مقاتل. فاحتلت صور وصيدا وطرابلس وطلب من الامير بشير ان يرسل.

(١) اخبار الاعيان ص ٥٦٧
(٢) La Guerre de Mehemet Ali Etc, P. 84
(٣) المؤلف نفسه ص ٧٠
(٤) المؤلف نفسه ص ٧٤ — ٧٥
(٥) مخطوطة مشاقة نسخة جامعة بيروت الاميركية ص ٢٣٤
Soliman-Pacha P.206

اللبنانيين لعضد الحملة [١] فأنفذ الى طرابلس في ٢٠ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٣٢ ولده الامير خليل ومعه الف مقاتل من الدروز [٢] .

احتلال القدس : وارسل ابرهيم باشا في كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨٣١ حامية من جيشه الى القدس وشفعها برسوم الى شيخ الحرم القدسي والمفتي والنائب وغيرهم من الحكام في ولاية صيدا ومنطقتي القدس ونابلس يأمرهم بالتسامح في معاملة المسيحيين واليهود ودفع جميع التكاليف التي كانت تؤخذ منهم جوراً وظلماً سواء أكان هؤلاء المسيحيون واليهود من الوطنيين او الافرنج الذين يزورون بيت المقدس ويقتضى هذا المرسوم ألغيت رسوم [٣] الخفر التي كانت تجبى من المسيحيين عند زيارة كنيسة القيامة وعند نهر الشريعة وكل رسم غير قانوني ومنعت كل معاملة يقصد بها تحقير النصارى واليهود [٤] .

وبعد توزيع الحاميات على المدن التي احتلتها جنود ابرهيم باشا بقي لديه حول اسوار عكا نحو عشرين الف رجل وستة وثمانين مدفعاً من مدافع الحصار وغيرها ولم يكن لدى عبد الله باشا على اسوار عكا

---

(١) حروب ابرهيم باشا في سوريا الخ ج ١ ص ١٤ و
La Guerre de Mehemet Ali PP. 75,76

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٦٩ وحروب ابرهيم باشا الخ ١ ج ص ١٤ و
La Guerre Etc. PP. 84,85

(٣) مجموعة جامعة بحروب الامبركية لسنة ١٢٤٧ هـ ومذكرات تاريخية ص ٩٥ و٩٦ و
La Guerre de Mehemet Ali Etc. 76-78

(٤) Paton, A., Vol. 2, P. 113 « « «

الامامية سوى ستة وثلاثين مدفعاً [1] وبالغ ابرهيم باشا في تشديد الحصار فاستمر اطلاق النار بشدة تسعة ايام وحاول رمي البلد بالسواريخ غير انه جهل المهندس الذي كان يدير حركات الرماية جعلها ترتد على الجنود المصرية فترديها [2] . وبعد هذا الحصار الشديد ظن ابرهيم باشا ان عبد الله باشا قد صار ميالاً الى التسليم فعرضه عليه واباح له الخروج من عكا آمناً فلم تأت المفاوضة بنتيجة سلبية [3] فاستأنف التشديد في المحاصرة واطلاق النار الحامية فاحدثت مدفعيته اول ثغرة في السور الشرقي بقرب البوابة وكان ذلك في ٢٣ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨٣١ .

موقف الدولة العثمانية : اما الدولة العثمانية فاضطربت لغزوة سوريا لكنها لم تكن حينئذ قادرة على دفع محمد علي عنها بالقوة فاوفدت مصطفى ناصف افندي الى مصر ليفاوض محمد علي ويدعوه الى وقف القتال وسحب جنوده من سوريا وحتى يبين له ان الحرب ستعطل الحج الى بيت الله الحرام ويبلغه ان عبد الله باشا سيدعى الى الكف عن اتيان اي عمل فيه ما يسيء مصر [4] ولما كان محمد علي مصراً على المضي في اعماله العدائية الى ان يتم له الاستيلاء على سوريا ابقى مندوب الاستانة في المحجر الصحي ثلاثين يوماً معتذراً بالاشاعات التي بلغته عن تفشي الوباء وكان

(1) La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 87
(2) « « « P. 79
(3) « « « P. 80
(4) مجموعة جامعة بيروت الاميركية الاوراق السياسية نمرة ٢٥

في الوقت نفسه يرسل النجدات تباعاً الى سوريا ويلح على ابراهيم باشا بتشديد الحصار على عكا . ولجأ الى المماطلة في المفاوضة والى تعداد خدماته الجلى في مصر وفي محاربة الوهابيين وثوار اليونان مكرراً المطالبة بوضع ايالتي صيدا ودمشق تحت حكمه [1] واخيراً صرح بعزمه على فتح سوريا والبقاء فيها [2] ولم يبق امام الدولة العثمانية الا ان تدفع القوة بالقوة وكانت قد شرعت بالتأهب لذلك فطلبت من ولاة وحكام المعدن وقيصارية وقونية وسيواس ومرعش وادنة وبيّاس ان يجمعوا الجنود ويحشدوها في حلب وعينت محمد باشا حاكم الرقة والياً على حلب وجعلته سر عسكر سوريا وبلاد العرب ليقود الجيوش التي تحتشد في حلب لصد هجوم [3] ابراهيم باشا

وفي اثناء ذلك عينت عثمان باشا اللبيب نائب والي الشام سابقاً حاكماً على طرابلس الشام التي كانت تحت حكم [4] والي صيدا وكانت جنود ابراهيم باشا قد احتلتها وعين حاكماً عليها من قبله مصطفى آغا بربر [5]

وكانت عادة الحكومة العثمانية في تلك الايام ان تعلن بمناسبة

---

(١) La Guerre de Mehemet Ali contre la Porte Ottomane, PP. 80-83
(٢) St John, Vol. 2, P. 486
(٣) La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 83
(٤) « « « P. 85
(٥) مخطوطه نوفل ص ٤٦٩
و La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 105

حلول عيد الفطر « التوجيهات » وهي التعيينات الجديدة والترقيات والتثبيت في المناصب القديمة لجميع كبار رجال الدولة · فصدرت التوجيهات في اول شوال سنة ١٢٤٧ هـ (٣ اذار سنة ١٨٣٢ م) مندرجاً فيها عن محمد علي وابراهيم باشا ما يلي : «اصدرنا امرنا بتأجيل التعيين لمناصب حكومة مصر وحكومة جدة وكريت الى ان يجيب محمد علي وابراهيم باشا على الخطاب السلطاني الاخير الخاص برجوعهما عن العصيان[1] » وحول هذا الوقت الذي اعلنت فيه الدولة العثمانية سخطها على محمد علي وابراهيم باشا كان هذا الاخير مشدداً الحصار على عكا فاصلاها ناراً حامية استمرت ستة ايام بلياليها كان ابتداوُها في ٤ اذار (مارس) سنة ١٨٣٢ وكان يتفقد بنفسه خطوط النار ويشجع رجال المدفعية فتمكن من تعطيل احد الابراج بواسطة لغم واحدث ثغرة في السور فعول على اقتحام تلك الثغرة بجنوده ودخول المدينة منها ففي صباح ١٠ آذار بكرت جنوده في الهجوم وسلطت المدافع قنابلها على المدينة عند مطلع الفجر ودقت الطبول لاثارة حماسة الجنود فاقتحموا الثغرة واجتازوا الخندق الواقع بينها وبين السور واشتبكوا في قتال عنيف مع الحامية وكان النصر حليفهم حتى انتشروا في المدينة فانصبت عليهم نيران البنادق من المنازل وانفجرت الالغام تحت اقدامهم فاوقعت الذعر والاضطراب في صفوفهم وقتلت نحو مائتي رجل منهم فتقهقروا من

La Guerre de Mehemet Etc. P. 92 (1)

المدينة بدون انتظام غير انهم ما لبثوا ان استرجعوا قوتهم المعنوية · اما حامية عكا فرغماً عن دفاعها المجيد وفوزها في رد هـذا الهجوم العنيف اخذت تفقد الثقة باقتدارها على الدفاع طويلاً وفي اخر شهر اذار غادر المدينة اربعماية الباقي من رجال الحامية باسلحتهم وامتعتهم بناء على وعد ابرهيم باشا بالعفو عنهم ثم انضم بعضهم الى جيشه[1] ·

ولما رأت الحكومة العثمانية ان ما ذكر في التوجيهات السنوية عن محمد علي وابرهيم باشا لم يبلغها الغرض المقصود عزمت على ارسال قوة جديدة من جيشها لمحاربتهم واستصدرت فتوى بان محمد علي وابرهيم باشا قد خانا الدولة ومرقا من دين الملة وعزلت محمد علي عن منصبه · وفي اواسط اذار سنة ١٨٣٢ عينت حسين باشا قائداً[2] عاماً للجيش الموجه لمحاربته وولته حكومة مصر وكريت والحبشة وتوابعها فقابل محمد علي ما اجرته الحكومة العثمانية باستصدار فتوى من الشريف محمد بن عون امير مكة بتكفير السلطان محمود كما انه زاد اهتماماً بمواصلة اعماله الحربية في سوريا بمنتهى الشدة[3] ومن ذلك الحين شرع رجال الدولة العثمانية في سوريا في اعمالهم العدوانية فنهض عثمان باشا اللبيب الذي عُين حاكماً على طرابلس من حلب الى اللاذقية يقود بضعة آلاف من الخيالة غير النظامية يصحبها اربعة مدافع ميدان واخذ يستنفر الاهلين الى مقاومة

---

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 93-95

(٢) المؤلف نفسه ص ٩٩

(٣) المؤلف نفسه ص ١٠٠ — ١١٤

محمد علي وابرهيم باشا لمروقهم من طاعة السلطان · ومن اللاذقية توجه في اواخر اذار سنة ١٨٣٢ الى قرية المنية ومنها تقدم نحو طرابلس ونصب مدافعه امامها وكانت حامية طرابلس مؤلفة من الف وخمساية جندي مصري والف درزي لبناني يقودهم الامير خليل ابن الامير بشير شهاب حاكم جبل لبنان وخمساية من النابلسيين فأغارت خيالة عثمان باشا على المدينة ودخلتها لانها لم تكن ذات اسوار فتلقتها الحامية بنار آكلة وألجأتها الى الفرار فاغتر الميرالاي ادريس بك قائد الجنود المصرية بانهزام العدو وتعقبه بنحو ستماية مقاتل فطمع بهم عثمان باشا لقلة عددهم وكرَّ عليهم بجميع قواته وهزمهم شرَّ هزيمة وحمله الغرور على مهاجمة طرابلس ثانية فخرجت حاميتها الباسلة لالقائه ففتكت بكثيرين من رجاله وبينهم اكثر زعمائهم واكرهته على الارتداد الى معسكره"[1]

اتصل بابرهيم باشا خبر هذه الحركات وهو قائم على محاصرة عكا فرأى من الواجب وقف تيار الهجوم من الشمال قبل اشتداده فنهض من عكا الى طرابلس في ٢ نيسان (ابريل)[2] يقود فرقة الحرس وفرقة من الخيالة النظامية وفرقة من خيالة البدو وستة مدافع فلما علم عثمان باشا باقترابه من طرابلس انهزم ليلاً نحو حماة تاركاً وراءه خيامه ومدافعه ومؤونة جيشه والجرحى من جنوده فوقعوا جميعاً في ايدي عدوه · اما

---

(١) اخبار الاعيان ص ٦٩ و Gouin P. 430 و La Guerre de Etc· PP. 105 & 106

(٢) La Guerre de Mehemed Ali Etc. P. 106

جنوده فانفرط عقدهم وذهب كل فريق منهم في طريق[1] فتعقبهم ابرهيم باشا الى حمص وكان عازماً على التقدم الى حماه غير ان الذخائر لم تكن متوفرة لديه فعاد من حمص متجهاً نحو بعلبك ليتناول منها الذخائر اللازمة و يستأنف مطاردة العدو[2] فغادر حمص الى خان القصير ومنه انتقل الى سهل الزراعة فتوهم العدو ان ابرهيم باشا انقلب راجعاً لخوفه منه فعاد عثمان باشا يصحبه واليا قيسارية والمعدن بجنودهم الى اقتفاء آثار[3] ابرهيم باشا فلما علم بتقدمهم نحوه صمد لهم في سهل الزراعة وهيأ جيشه للقتال ·

موقعة الزراعة: ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ — ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٣٢ كانت قوة الجيش المصري في موقعة الزراعة مؤلفة من الايين من المشاة والاي من الخيالة النظامية وبعض خيالة البدو[4] وكانت مدفعيته قوية وجملتها نحو ستة الاف مقاتل فصفها سليمان باشا الذي تولى ترتيب هذه الموقعة صفاً بديعاً وستر مدافعه عن ابصار الاعداء الذين كانوا يفوقونه عدداً وانضم اليهم كثيرون من فرسان العرب والاكراد فأحاطوا بجيش ابرهيم باشا الذي كان منظره ضئيلاً في عيونهم نظراً لقلة عدد رجاله وتراص صفوفهم واختفاء مدافعه عن الانظار

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 106-107 و Gouin, P. 430-31

(٢) الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — الاوراق السياسة المجلد الاول نمره ١٠٧ مجموعة جامعة بيروت الاميركية

(٣) St. John, Vol. 2, P. 49 Gouin, 431

(٤) Gouin, P 432

ولم يداخل الاتراك شك في انه اصبح في قبضة ايديهم لكن لما بدأوا في مهاجمته نشر ابرهيم باشا صفوفه بغتة فانكشفت مدافعه المحكمة الوضع وصبت عليهم قنابلها المهلكة فأوقعت الرعب والاضطراب في صفوفهم وردتهم على اعقابهم . وحالما ظهر التضعضع في صفوف العثمانيين امر ابرهيم باشا جنوده بالهجوم فجدّوا في اثر عدوهم الذي لجأ الى الفرار ولم يقف حتى بلغ نهر العاصي ومكث في حماه ينتظر الامداد . اما الجيش المصري فنظراً لحسن ترتيبه للقتال لم يصب في هذه المعركة بخسارة تستحق الذكر بينما كانت خسائر الجيش العثماني ثلاثماية قتيل وغنم المصريون منهم ثلاثماية حصان[1] .

ان موقعة الزرّاعة تعتبر موقعة صغرى غير ان انتصار ابرهيم باشا فيها شدّد عزائم جنوده ومحالفيه ونزع الشكوك من نفوس المتريثين الذين كانوا يرتقبون رجحان احدى كفتي الميزان لينحازوا اليها فأقبل كثيرون من السوريين على اعلان ولائهم لحكومة محمد علي واخذوا يمدون جيشه بما يحتاج[2] . اما الاخبار التي اذيعت في الاستانة وبين الاتراك والمتتركين في مصر فكانت تخالف الحقيقة اذ نسبت الانتصار الى العثمانيين فظهرت بوادر الثورة في القاهرة لكن محمد علي قضى عليها بشدته المعهودة وهي في المهد[3] . ثم عمد الى تشديد الحصار على عكا لانه

---

(١) Gouin, P. 432

(٢) St. John, Vol. 2, P. 492, Vimgtrinier, Aimé P. 208

(٣) St. John, Vol. 2, P. 492

رأى ان فتحها امضى سلاح من اسلحة الدعاية[١]

اما ابرهيم باشا فتوجه بعد موقعة الزرّاعة الى بعلبك وكان قد قدم اليها عباس باشا بن طوسون باشا قادماً من عكا عن طريق صفد فرجعيونه فالبقاع يقود فرقة من مشاة الجيش وفرقة من الخيالة مستصحباً ثمانية عشر مدفعاً برجالها فجعل ابرهيم باشا بعلبك مركزاً للمرابطة قوة من جيشه مؤلفة من الاي من الحرس وثلاث الايات من المشاة والايين اثنين من الخيالة المنظمة وبعض جماعات غير منظمة وانما اختار بعلبك مركزاً لهذه القوة لانها تشرف على الطرق المؤدية الى دمشق وحلب وطرابلس وعكا كما ان قربها من لبنان زاد موقعها اهمية فالعدو الذي يزحف نحو طرابلس او دمشق او عكا يعرض احد جناحيه او كليهما للاخطار[٢] . وبينما كان ابراهيم باشا في بعلبك بلغه نزوع اللبنانيين الى الفتنة فتوجه الى بيت الدين في ٢٨ نيسان[٣] سنة ١٨٣٢ بصحبه اربعة آلاف جندي فسكن الاحوال بالوعد والوعيد وحبس بعض مثيري الفتنة وأخذ رهائن من بعض الاسر الكبرى اما الناقمون عليه من آل جنبلاط وآل نكد وغيرهم فكانوا قد غادروا الجبل وانحازوا الى جانب الحكومة العثمانية فضبطت املاكهم وحُرقت منازلهم[٤] .

في اثناء هذه الحوادث كانت القوة المرابطة امام عكا قد انخفض

---

(١) St. John, Vol. 2, P. 492

(٢) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 108-110

(٣) حروب ابرهيم باشا المصرى الجزء ١ ص ١٥

(٤) La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 126

عدد رجالها الى نحو عشرة آلاف[١] . فاغتنم عبدالله باشا هذه الفرصة فقام بهجوم عنيف على محاصريه فـأتلف بعض استحكاماتهم الامامية ورد جنودهم الى الوراء واستولى على بعض مدافعهم وأدخلها الى عـكا ليحاربهم بها . واتصل خبر هذه الوقعة بابرهيم باشا فلم يحدث اي تغيير في خطته[٢] لكن لما فرغ من وقعة الزرّاعة وما عقبها من التدابير عاد الى تشديد الحصار على عكا . وكان في هذا الاثناء قد انفـذ محمد علي الى عكا مهندساً قديراً فأخذ يدير الاعمال الفنية المتعلقة بالحصار بغاية الدقة والاعتناء ورغماً عن شدة مقاومة الحامية الباسلة تمكن المحاصرون من فتح ثغرتـين في الجهة الشرقية من الـسور ووسعوا احداها باطـلاق المدافع وبث الالغام كما انهم امطروا المدينة وابلاً من الرصاص والقنابل والـصواريخ براً وبحراً فاحدثوا في المدينة تخريباً عظيماً واضطر عبـدالله باشا الى الانتقال من قصره الى برج الخزنة وكانت حامية المدينة حينئذ قـد انخفضت الى نحو الفين ومع ذلك لم تفتر عزائمها عن الدفاع بمنتهى البسالة[٣]

فتح عكا: وفي اواخر شهر ايار كانت مدينة عكا قد اصبحت ركاماً نظراً لما اصابها من قذائف المدافع وفتحت في اسوارها ثـلاث ثغرات يتسنى للجنود الهاجمة الدخول منها الى المدينة احداها عند «قبو برج»

La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 127 (١).

Soliman Bacha P. 207 (٢)

St. John Vol. 2, P, 424 (٣).

La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 128

والثانية تجاه النبي صالح والثالثة عند الزاوية[1] . فعزم ابرهيم باشا على القيام بهجوم عام لكن قبل الشروع في ذلك دعا عبد الله باشا الى التسليم فأبى . حينئذ عين السابع والعشرين من شهر ايار (مايو) سنة ١٨٣٢ للقيام بهجوم عام . وفي ٢٦ منه دعا اليه قواد الفرق والكتائب المختلفة فشرح لهم خطة الهجوم ثم اعطى كلاً منهم التعليمات اللازمة وسلط قنابل المدافع على المدينة واسوارها طول ذلك الليل وفي صباح ٢٧ ايار عند طلوع الشمس صدر امر القائد العام بالهجوم فاقتحم المهاجمون ثغرتين وثبتوا اقدامهم في داخلها اما القوة التي قصدت الاستيلاء على الثغرة الثالثة الواقعة عند «قبو برج» فلاقت مقاومة عنيفة منعتها من التقدم بل الجأتها الى التقهقر فأبصرها ابرهيم باشا وبادر الى سوق الجنود الاحتياطية لنجدتها واندفع امامهم وهو شاهر سيفه وبعد جهد جهيد اقتحموا هذه الثغرة ايضاً غير ان الحامية دافعت في ذلك اليوم دفاعاً مجيداً فأعادت على مهاجميها الكرّة بعد الكرة واوقعت بهم خسائر جسيمة ولم تلق سلاحها وتكف عن القتال الا بعد ما اعتراها الكلل وخاب كل امل بصد تيار الاعداء[2] . وفي عصر ذلك اليوم تقدم الى ابرهيم باشا وفد من اعيان المدينة يعلن تسليمها وتلاه وفد آخر مؤلف من رؤساء المدفعية والمفتي وإمام عبد الله باشا يطلبون العفو عن رجال الحامية فعفا عن ارواحهم واموالهم وابقى لهم سلاحهم اما عبد الله باشا فضمن له حياته

---

(١) St. John, Vol. 2, P. 493

(٢) المؤلف نفسه ص ١٩٣ و ١٩٥

فقط وعند نصف الليل حضر عبدالله باشا ومعه كاخيته يحرسه امير اللواء سليم بك لاجل التسليم فاستقبله ابرهيم باشا بالاكرام اللائق بمقام وزير. ثم ركب ابرهيم باشا وعبدالله باشا وكاخيته وتوجهوا الى قصر البهجة وقضوا بقية ليلتهم هناك[1].

سفر عبد الله باشا الى مصر : وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (٢٩ ايار سنة ١٨٣٢) سافر عبدالله باشا ومعه كاخيته وبعض الاتباع الى الاسكندرية فوصلها في ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ (٢ حزيران) فأرسل محمد علي زورقه الخاص وبعض ضباطه ليحسنوا استقباله ويقلوه الى الشاطىء ورغماً عن اقامة حجر صحي لم يكلفه الانتظار مدة الحجر . وعند نزوله الى البر أُطلقت المدافع تحية له واستقبله كبار رجال الحكومة ثم توجه تواً الى قصر العزيز وحالما دخل القاعة نهض العزيز واقفاً واستقبله باسماً فدنا عبدالله باشا منه فلثم ثوبه والتمس عفوه فمد له محمد علي يده واجلسه بجانبه وتلطف كثيراً في مخاطبته حتى انه قال له انه نسي الماضي وانه سيعامله كأحد اولاده واهدى اليه علبة سعوط وسيفاً مذهباً . ثم اجتمعا اجتماعاً سرياً ذهب بعده عبدالله باشا الى قصر خصص له بجوار قصر محمد علي ممتطياً جواد العزيز وسار في ركابه عدد من الضباط مشاة ووراكبه حرس شرف وبعد حين انتقل من الاسكندرية الى مصر وسكن منزلاً اعد له في جزيرة الروضة وابقيت في حوزته مجوهراته فقط

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 134-136 & Gouin PP 432-434

وأذن لعائلته بالالتحاق به والسكن معه [١]

الخسائر والغنائم – اما المدينة واهلها الابرياء البائسون فلم يلاقوا من الرفق وحسن المعاملة ما لاقاه عبد الله باشا والحامية الباسلة . فرغماً عن الاوامر المشددة بالامتناع عن النهب ووعد ابراهيم باشا ان المدينة لا تصاب بسوء لم يمكن كف شر الجنود واقرار النظام الا بعد ما امعنوا في الاذى والسلب والنهب غير ان ابراهيم باشا رد الى الاهلين بعدئذٍ ما امكن استرجاعه من المنهوبات [٢] اما الغنائم التي وقعت في ايدي الجيش الفاتح فنها مقادير كبيرة من البارود والرصاص والقنابل وعدد عديد من المدافع ووجدوا في المخازن من المؤن كالقمح والشعير والرز والعدس وغيرها ما كانت به الكفاية للحامية مدة طويلة ولم يكن ينقصها من الاغذية عند التسليم سوى اللحم [٣] اما الحامية فمعظمها اما هلك في اثناء الحصار او انسحب من المدينة وانضم الى جانب المحاصرين على ان خسارة الجيش الفاتح كانت اعظم من خسارة حامية المدينة فبلغت نحو اربعة الاف وخمسماية قتيل [٤] ما عدا الجرحى .

تطاول مدة الحصار – من رأي بعض الخبراء العسكريين ان المدة التي قضاها جيش ابراهيم باشا في محاصرة عكا طالت اكثر مما ينبغي [٥]

---

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 137-143

(٢) La Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 136

(٣) المؤلف نفسه ص ١٢٧

(٤) Wilkinson, Vol. 2, P. 548

(٥) The Present State of the Turkish Empire P. 271

The ~~Present State~~

وانه لا يمكن تبرير ذلك بمقابلتها بالمحاصرات[١] السابقة التي قام بها بونابرت في زمن احمد باشا الجزار وولاة الشام وحلب ضد عبد الله باشا لان بونابرت لم تكن لديه مدافع حصار وكانت حامية عكا حينئذٍ تكاد تضاهي الجيش الذي يحاصرها في عددها وابراج المدينة واسوارها مجهزة بعدد كبير من المدافع زد على كل ذلك ان الاسطول الانكليزي كان يحميها من جهة البحر[٢] بل هو الذي اكره بونابرت على رفع الحصار عنها ، اما الولاة الذين حاصروا عبد الله باشا فكانت تنقصهم المعرفة الفنية والدربة العسكرية ومدافع الحصار بينما نرى ابراهيم يحاصر عكا براً وبحراً ومعه اكثر من عشرة اضعاف حامية عكا وكانت مجهزة بما يلزم من مدافع الحصار[٣] ومن رأي بعضهم ان من الاسباب التي قضت بتطاول مدة الحصار عدم وجود مهندسين اكفاء منذ ابتداء المحاصرة وتفشي الحمى بين الجنود المصريين وعدم اعتيادهم التعرض للبرد والامطار كما ان الحامية دافعت عن المدينة مدافعة الابطال . وقيل ان محمد علي تراخى في امر الحصار حرصاً على سلامة جنوده لانه كان يأمل ان المحصورين لا يلبثون طويلاً حتى يطلبوا التسليم[٤] على ان هذا العذر لا يؤيده الواقع .

وعلى كل حال ان بوقوع عكا اخيراً في قبضة ابراهيم باشا زالت

---

(١) و (٢) Soliman Pacha. P. 209

(٣) St. John, Vol. 2, P. 484 Soliman Pacha P. 209

(٤) St. John, Vol. 2, P. 487

من طريقه اكبر العقبات العسكرية وبما انه كان قد ثبت اقدامه في طرابلس وبعلبك وكان لبنان موالياً له فلم تبق امامه عقبة ذات شأن الا عند حدود سوريا الشمالية فالاستيلاء على عكا مهد امامه طرق الزحف شمالاً وهو مطمئن على خط مواصلاته

وبعد فتح عكا عمد ابراهيم باشا الى اعادة تحصينها تحت مراقبة مهندس ماهر ووزع المدافع في حيفا وغيرها من المدن الساحلية ووضع في عكا حامية كافية واناب عنه في ادارة شؤونها رئيس ديوانه [1] منيب افندي وفوض الى الخواجه حنا بحري القيام بالاعمال المدنية والتجارية

(١) La Guerre de Mehemet Ali Etc. PP. 146-147

فتح دمشق

١٦ تموز سنة ١٨٣٢

بعد ان رتب شؤون عكا عزم ابراهيم باشا على التقدم الى دمشق. فارسل كتاباً الى واليها علو باشا يدعوه الى تسليم المدينة وكتب الى احمد بك اليوسف ربيب يوسف باشا الكنج الذي كان قد فر الى مصر ولجأ الى محمد علي في سنة ١٨١٠ يخبره عن عزمه على التقدم بعساكره الى دمشق وكتب مثل ذلك الى اعيان المدينة [1] وفي ٩ حزيران (يونيو) نهض من عكا قاصداً الى دمشق بجيش مؤلف من ثمانية عشر الف مقاتل منهم تسعة الاف من الجنود المنظمة وتسعة الاف من الدروز والبدو المصريين والعربان السوريين يتبعها اربعة وعشرون مدفعاً [2] اما اهالي دمشق فاظهروا عزمهم على المقاومة ودعا اغاوات البلد اهلها الى حمل السلاح والاستعداد لمقاتلة جيش ابراهيم باشا فابوا الدعوه وترتبوا جماعات جماعات وقاموا بتظاهرات عظيمة واخذت كل حارة تقوم بالاستعراض على حدتها فتدخل دار الحكومة « حتى ينظر الوزير ويطمئن » واستمرت هذه التظاهرات ثلاثة ايام [3] هذا ما قام به

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٥٢ و La Guerre de Mehémet Ali Etc. P. 147

(٢) P. 147 Gouin P. 438 « « «

(٣) مذكرات تاريخية ص ٥٣ و ٥٤

الدمشقيون بعد ما عرفوا بعزم ابراهيم باشا على الاستيلاء على مدينتهم مع انهم لم يكونوا راضين عن حكم الولاة العثمانيين وسياسة الدولة العثمانية نحوهم ولعلهم فعلوا ما فعلوا خوفاً من الجنود العثمانية التي بلغهم قرب وصولها مع مبالغات عظيمة بكثرة عددها · وفي ١٥ حزيران وصل ابراهيم باشا الى ضواحي دمشق فخرج علو باشا وجمهور من الدمشقيين لمقاتلته لكن راعهم ما شاهدوه من نظام جنوده وحسن استعدادها ولم تبد منهم سوى مقاومة ضعيفة ثم انهزموا ولم يقتل منهم الا عدد يسير · ثم خرج وفد من اعيان المدينة وقدموا خضوعهم له اما علو باشا فانسحب من دمشق قاصداً الى حمص بحرسه الف وخمساية خيال وخمساية راجل[1] فدخل ابراهيم باشا مدينة دمشق في ١٦ حزيران سنة ١٨٣٢ وفي اليوم التالي اخرج جيشه ونصب مضاربه في سهل القابون اما اللبنانيون الذين كان يقودهم الامير بشير حاكم جبل لبنان فبقوا في المرجه · واستعرض الجيش في القابون فدهش المتفرجون لحسن نظامه كما انهم اعجبوا بحسن سلوك الجنود في اثناء اقامتهم في المدينة وبجوارها اذ لم يحدث منهم اي اعتداء فكانوا يحضرون الى المدينة ويعودون منها وفي طريقهم البساتين الحافلة بالاشجار المثمرة فلا يمسون شيئاً منها وكل ما احتاجوا اليه اشتروه ودفعوا ثمنه وهذا غير ما عرفه الدمشقيون في الجنود العثمانية وما سمعوه عن الجيش العثماني النازل في حمص من كثرة الاعتداء على الاموال

La Guerre de Mehemet Ali Etc. p. 147 Gouin p. 439 (١)

والاعراض واتلاف المزروعات[١] اقام ابراهيم باشا في دمشق ثمانية عشر يوماً وحضر صلاة الجمعة في الجامع الاموي وفي اثناء الخطبة حار الخطيب بين ان يخطب باسم السلطان او باسم محمد علي ورُفع الامر الى ابراهيم باشا فاجاب انه عبد السلطان وان الخطبة يجب ان تكون باسم السلطان والدعاء لمحمد علي[٢] وبعد وصوله الى دمشق جعلها قاعدة الحكم ونظم الادارة فيها على النمط المتبع في مصر واقام احمد بك اليوسف متسلماً عليها ورتب ديوان حكم مؤلف من عشرين عيناً من اعيان دمشق سماه ديوان المشورة وجعل فيه اعضاء تنوب عن النصارى واليهود وكان هذا المجلس ينظر في دعاوى الرعية والحكومة وبطل حكم رجال السراي[٣] ومما فعله في دمشق تعيين النصارى في وظائف الحكومة والسماح لهم بركوب الخيل[٤] وكان ذلك محظوراً عليهم سابقاً · ومن التدابير التي قام بها في دمشق ضبط الامن ضبطاً تاماً واقامة المخافر العديدة لرجال الحفظ ووضع حامية مؤلفة من ثلاثة الاف ومائتي رجل من الجند النظامي وولى عليها موقتاً ابرهيم باشا الصغير[٥] ·

ان استيلاء ابرهيم باشا على دمشق ذات الاهمية الدينية والسياسية بعد استيلائه على البلاد الساحلية والجبلية جعل في قبضة يده اكثر البلدان السورية اهمية من مختلف الوجوه · وبعد ان قام في دمشق

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٥٧ — ٦٠

(٢) و (٣) مذكرات تاريخية ص ٥٦ و ٥٧

(٤) La Guerre de Mehemet Ali Etc. p. 156

(٥) مذكرات تاريخية ص ٦١ و p. 157 «

بالتدابير التي ذكرناها واعطى جيشه نصيباً من الراحة عوّل على الزحف على حمص لملاقاة الجيش العثماني المحتشد فيها وقبـل سفره جمع خمسة وسبعين من اغاوات الشام ومعهم نحو الف من رجالهم وامرهم بالذهاب معه الى الحرب ومساء السبت ٢ صفر سنة ١٢٤٨هـ (١ تموز ١٨٣٢) نهض بعسكره من دمشق وتبعه الاغاوات برجالهم في اليوم التالي[1] وقام من دمشق مع ابراهيم باشا الامير بشير شهاب وولده الامير خليل وامراء وادي التيم الشهابيون ومشايخ جبل نابلس[2] . فكأنه كان يستصحب اعيان البلاد التي دخلت في حوزته والمتنفذين فيها كرهائن ليأمن شرّ الفتن كما ان وجودهم معه يفيده من وجوه اخرى .

(١) مذكرات تاريخية ص ٦٠ و ٦١

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٧٤ و مخطوطة نوفل ص ٤٧٢

موقعة حمص

٨ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٢

لما وصل ابراهيم باشا الى النبك في طريقه الى حمص امر الامير بشير ومن معه ان ينزلوا في قرية دير عطية اما هو فتقدم الى القُصير ومن القصير توجه نحو حمص [١] ونزل على ضفة نهر العاصي عند تل النبي مندو ومنه تقدم الى قرية قطينة ولم يبق بينه وبين مدينة حمص سوى ثلاثة اميال واصبح بينه وبين الجيش العثماني نحو ميلين فاشتبك القتال في ٨ تموز سنة ١٨٣٢ وكانت قوة العثمانيين نحو خمسة وعشرين الف مقاتل بقيادة محمد باشا والي حلب منها ١٠٤٧١ من الجنود النظاميه [٢] اما رجال ابراهيم باشا فكانوا نحو ثلاثين الفاً [٣] غير ان الجيش العثماني كان سيء النظام خالياً من القواد الاكفاء كما ظهر ذلك منذ بدء التأهب للقتال فان القائد العثماني رتب جيشه كله في صفين اثنين جاعلا جناحه الايمن في مكان منفصل عن سائر الجيش في جزيرة واقعة ما بين مجرى نهر العاصي وقناة ماء [٤] حاسباً ان في مثل هذا الموقع المنعزل

---

(١) اخبار الاعيان ص ٥٧٤

(٢) Gouin, Ed., pp. 440-443 St. John Vol. 2. p. 498

(٣) Soliman pacha, p. 211 لكن حسب مخطوطة مشاقة ص ٢٤٠ و ٢٤١ كان عدد الجيش المصري عشرين الفاً في هذا الموقعة .

(٤) The Present State of The Turkish Empire p. 277 و Cadalvene & Barrault

انظر خريطة الموقعة في كتاب كدلفان وبارو

يصعب على جيش العدو اقتحامه لكن جهل ان العقبات التي تعيق جيش العدو عن الوصول اليه تعيق ايضاً ذلك الجناح من جيشه عن المبادرة الى انجاد سائر الجيش العثماني عند الحاجة ولا واضاف الى خطائه هذا خطاء آخر اذ وزع مدافعه بنسبة مدفع واحد لكل كتيبة فافقدها هذا التوزيع التأثير المنتظر من نيران المدافع المجتمعة [1] اما ابراهيم باشا فرتب جيشه في ثلاثة صفوف جعل جناحها الايسر متكئاً على نهر العاصي والجناح الايمن الى جهة البادية ووضع الصفوف المشاة في الوسط والخيالة على الجناحين اما المدافع فقسمها الى قسمين فقط فوضع ثلاث بطاريات في الصف الاول واحدة منها على كل جانب وواحدة في الوسط . ووضع الاربع البطاريات الباقية مع مدفعي هوبتزر وراء صف المشاة الثاني [2] وبعد ان اتم ترتيب جنوده وادرك نقط الضعف في عدوه اطلق خيالة البدو لمناوشة العثمانيين ثم سلط النيران الحامية على ميسرتهم وقلبهم فضعضعهما [3] ولم تستطع الميمنة المبادرة الى نجدتهما [4] لما اوضحناه قبلاً من صعوبة الموقع الذي خصها به قائدها العام وعبثاً حاول العثمانيون اعادة تنظيم صفوفهم لان المصريين هاجموهم هجوماً عنيفاً وسلطوا نيرانهم الآكلة على جموع اعدائهم المختلة النظام فلم يتركوا لهم فرصة لاستجماع قوتهم او الثبات في مواقفهم فلجأوا الى الفرار ..

(١) The present State of The Turkish Empire pp. 275-276
(٢) المؤلف نفسه ص ٢٧٥
(٣) « « « ٢٧٧
(٤) Soliman pacha p. 212

وفي اليوم التالي دخل ابرهيم باشا مدينة حمص فأسر فيها من العثمانيين الف وخمساية رجل واستولى على مضارب العدو وعلى مؤونته وذخائره وعلى واحد وعشرين مدفعاً واوراق محمد باشا القائد العام التي فاته اخذها لسرعة انهزامه[1] . وكانت خسارة الجيش العثماني في موقعة حمص نحو الفي قتيل والفين وخمساية اسير[2] اما خسارة جيش ابرهيم باشا فبلغت ماية واثنين من القتلى وماية واثنين وستين جريحاً[3] . وفي ما يلي بعض تفاصيل عن الموقعة كما وصفها ابرهيم باشا :

« قدوة وافتخار الاماجد الكرام ذوي المجد والاحترام متسلم طرابلس الشام حالاً بربر زاده السيد مصطفى آغا زيد مجده . غب التحية والتسليم بمزيد الاعزاز والتكريم المبدي اليكم انه امس تاريخه نهار السبت المبارك الواقع في ٩ شهر صفر سنة ٤٨ الساعة في السبعة من النهار قد كان ابتداء وصول عساكرنا المنصورة التي بمعيسة ركابنا الى بحيرة حمص وفي تلك الساعة نفسها نظروا قدومنا العساكر الخيل التركية المحتشدين بمعونة الباشاوات بمدينة حمص وحالاً هجمت عليهم العساكر المنصورة خيالة الجهادية والعرب وضربوهم وشتتوا شملهم واذاقوهم كؤوس الوبال والنكال فقد ولوا هاربين والى النجاة طالبين فاتبعوا آثارهم عساكرنا (بالظفرة) فظهر امامهم اربع آلايات عساكر نظام استيانيه

---

(١) Gouin, PP. 440-441

(٢) « « P. 440

(٣) « « P. 440

ليه قرابه[1] وثـلاث الايات خيالة فعند ذلك تقدمت لمحاربتهم باقي العساكر المنصورة وترتبت الصفوف على الرسم البـديع وهجموا عليهم هجوم الاسود الكواثر[2] واذاقوهم كؤوس المنايا بطعن الحراب وفتك السيوف البواتر ولم يحتملوا سوي ساعة واحدة الا وولو الادبار صارخين الفرار الفرار من بعد ان وقع منهم ما بين قتيل ومجروح ينوف عن الف وخمسماية نفر واخذ منهم اسرى بمسك اليد ينوف عن الفين وخمسماية من ضمنهم اورطتين قد كانوا ابقوهم في قلعة حمص للمحاصرة عندما كانوا عزموا على الهرب مع جانب عساكر ارناود وبمجرد حلول ركابنا في اردوي الباشاوات الفارين في صحرا حمص واستيلاءنا على اطوابهم وخيامهم وجبخاناتهم وسائر ذخائرهم وصاروا جميعهم غنيمة لنا فالارطتين والعساكر الارناوود الذين كانوا في القلعة عندما نظر (و) هـذا الهول المريع والظفر البديع استغاثو وطلبو الامان فحيث ان العفو زكاة الظفر فقداغثناهم ومرحمة منا اعطيناهم الامان وخرجو من القلعة آمنين مطمئنين فنحمده تعالى على هذه النعمة العظيمة والموهبة الكبيرة الجسيمة[3] فالان لاجل تبشيركم اصدرنا لكم مرسومنا هـذا فيلزم منكم بوصوله تشهرو ذلك الى كافة الرعايا بعمل شنك واعلان البشائر الى سائر المقاطعات والبلاد لكي يكونو جميعهم دائمًا مبادرين على تأدية الدعا الخيري بدوام

---

(١) بفتح الراء وتشديدها
(٢) الكواسر
(٣) لعلها الجسيمة

دولة وتأييد صولة سعادة افندينا والدنا المعظم وقهر اعداه المخذولين على ممر الايام والسنين اعليوه في ١٠ ص سنة ٤٨ الحاج ابرهيم[١]
سر عسكر مصر

وكتب الى والده وهو ثمل بخمرة النصر يبشره بفوز جنوده في هذه المعركة يقول : « اني لا اتردد في القول انه لا يخامرني اقل اضطراب فيما لو كان لدي جيش مؤلف من مايتي الف او ثلاثماية الف من امثال هؤلاء الجنود[٢] » .

اما الجيش العثماني فاستمر بعد موقعة حمص منهزماً نحو حلب ومرّ في حماة لكن لم يقف فيها وترك في الطريق احد عشر مدفعاً وكثيراً من الاسلحة والعتاد فاستولى عليها ابرهيم باشا وتتبع عرب عنزة فلول الجيش المنهزم حباً بالسلب والانتقام فكبدوه خسائر جسيمة[٣] . اما الاسرى فارسلوا الى عكا وطلب ابرهيم باشا من نائبه فيها ان يمده بثلاثماية من رجال المدفعية ليتولوا ادارة المدافع التي غنمها من العثمانيين[٤]

وقبل ان يستأنف الزحف على حلب نظم الادارة في حمص وحماة وعين احد ابناء حمدان الدمشقيين متسلماً على حمص واقام رشيد آغا الشوملي الدمشقي ايضاً متسلماً على حماة[٥]

---

(١) مجموعة جامعة بيروت الاميركية سنة ١٢٤٨ هجرية
(٢) Gouin, Ed. P, 441
(٣) المؤلف نفسه ص ٤٤٢ و St. John, Vol. 2. P, 500
(٤) « « ٤٤٢
(٥) مذكرات تاريخية ص ٦٩ وحروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٢١ ومجموعة جامعة بيروت الاميركية من سنة ١٢٤٨ هـ.

ان موقعة حمص كانت الموقعة الاولى التي تنازل فيها جيشان نظاميان في هذه الحرب فظهر فيها تفوق الجيش المصري على الجيش العثماني في النظام وحسن القيادة ظهوراً رائعاً وكان لانتصار ابرهيم باشا تأثير ادبي وسياسي عظيم . وقد كانت الدولة العثمانية الى ذلك العهد تتوهم ان القوة ترتكز على المظاهر البراقة وضخامة الالقاب فكان في جيشها الذي حارب ابرهيم باشا في حمص ثمان باشاوات غير محمد باشا القائد العام وهم : عثمان باشا والي المعدن وعثمان باشا والي قيسارية وعلو باشا والي الشام السابق ومحمد باشا الكريتلي ونجيب باشا ومحمد باشا وديلاوار باشا[1] . غير ان كثرة عددهم وضخامة القابهم لم تجدِ نفعاً في موقعة حمص وذهب انخذالهم فيها وسرعة انهزامهم منها بما في نفوس الاهلين من تهيب لسلطة الدولة العثمانية ولهذا رأينا ان قبائل العربان اقتفوا آثار جنودها المنهزمين وأمعنوا فيهم قتلاً وسلباً ثم ابت مدينة حلب قبول حسين باشا سر عسكر جنودها الجديد فاضطر الى الانسحاب من امامها والانقلاب الى بيلان .

St. John, Vol. 2, P. 498 & Gouin, Ed. P. 441 (1)

احتلال حلب

في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٢ م

في اوائل سنة ١٨٣٢ قرّ رأي الباب العالي على الحاق حملة جديدة بحملة محمد باشا اذ تحقق اصرار محمد علي باشا على فتح سوريا وادرك ان حملة ابرهيم باشا اقوى من الحملة التي يقودها محمد باشا والي حلب ٠

وفي اواسط اذار سنة ١٨٣٢ عُين حسين باشا قائداً للجيوش العثمانية في تركيا آسيا مع لقب سردار اكرم ومشير الاناضول(١) لكنه لم يغادر الاستانة الا في ١١ ذي القعدة سنة ١٢٤٧(٢) = ١٢ نيسان سنة ١٨٣٢ وكان حسين باشا مشهوراً بالاقدام والقوة الجسدية وهو الذي ساعد السلطان محمود على البطش بالانكشارية في سنة ١٨٢٦ وقد كان هو ورشيد باشا اشهر القواد العثمانيين حينئذ وبما ان رشيد باشا كان مشتغلاً في اخماد الثورات وتسكين الاضطرابات في تركيا اوروبا انتدب حسين باشا لمقاومة ابرهيم باشا في سوريا ٠ وبعد ما اخفقت المفاوضات مع محمد علي وانقطع كل رجاء من تسوية الخلاف معه بالطرق السلمية أصدرت فتوى بمروقه ومروق ولده ابرهيم باشا من الدين وعُزلا عن مناصبهما ووُلّي حسين باشا على مصر وكريت(٣)

---

(١) Cadalvene & Barrault PP. 99-100

(٢) « « PP. 111,112

(٣) « « PP. 113,114-123

والحبشة وتوابعهما فوق منصبه العسكري والالقاب التي كان قد منحها قبلاً . غير ان ابطاء الدولة في استعداداتها الحربية وتثاقل حسين باشا في تقدمه نحو الهدف الموجهة اليه حملته دلا على عزيمة ضعيفة وارتباك شديد . ولم يكن ذلك بالامر العجيب نظراً لكثرة المشاكل الداخلية ونضوب الموارد المادية وصعوبة المواصلات وفقدان النظام وعدم تبادل الثقة بين الحاكمين والمحكومين . فلهذه الاسباب حل شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٣٢ والحملتان العثمانيتان لم تتحدا . فتمكن ابرهيم باشا من قهر محمد باشا بقرب حمص وشتت شمل حملته فمال جمهور من السور بين الى جانبه وحدث تبدلٌ عظيم في موقفه وموقف العثمانيين بازاء سوريا فبعد ان كان ابرهيم باشا وجيشه يُعدون غرباء في سوريا اصبح قواد جيوش السلطان وجنودهم الغرباء بل الاعداء . ولا يخفى ما لذلك من التأثير المادي والمعنوي في الجيشين المتحاربين .

وصل حسين باشا الى انطاكية بينما كان جيشا ابرهيم باشا ومحمد باشا على وشك الاشتباك في موقعة حمص . ثم بارحها قاصداً الى جسر الشغر ليتقدم منه الى حمص ولما بلغ الشغر التقى بالمنهزمين العثمانيين وعرف منهم نتيجة الموقعة فارتد نحو حلب وقد انضمت اليه فلول حملة محمد باشا فلما وصل امام المدينة طلب من زعمائها ان يمدوه بالمؤن والرجال فرفضوا طلبه ولم يمكنوا سوى العساكر المرضى والجرحى من دخول المدينة واغلقوا ابوابها في وجه من بقي وصارحوا حسين باشا انهم اتباع

من غلّاب[١] . وبما ان ابرهيم باشا كان قد اقترب من حلب اسرع حسين باشا ورجاله في الانسحاب الى بيلان اما خيامه وما كان لديه من المؤن والذخائر مع ستة عشر مدفعاً فتركها غنيمة للاعداء[٢] .

اما ابرهيم باشا فبعد ان رتب امور حمص وحماه واخذ جيشه نصيباً من الراحة استأنف الزحف على حلب وفي طريقه اقتصّ من بعض العربان لقطعهم الطريق والاعتداء على القوافل[٣] . وبلغ حلب في ١٥ تموز[٤] (يوليو) فخرج القاضي والمفتي وبعض زعماء البلد لملاقاته وتقديم خضوعهم له . وكان حزب الانكشارية في حلب لا يزال قوياً فعول ابرهيم باشا على الانتفاع به وتقريب رجاله فعين احدهم عبد الله آغا انكشار آغاسي متسلماً على حلب ووضع حامية في قلعتها[٥] ومكث في حلب بضعة ايام لاراحة جيشه وتجهيز المؤن والمهمات الحربية وتفقد المدافع وغيرها من معدات القتال وفي اثناء مكثه هذا بعث بفرقة كشافة الى جهة الفرات[٦] وبعد ما اتم اهبته بارح حلب بجيشه ووجه بعض جنوده غير النظامية لتأمين الطريق الى انطاكية وسار هو بعساكره للقاء الجيش العثماني في بيلان[٧] .

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٧٠ وترجمة سليمان باشا ص ٢١٢ وحروب ابرهيم باشا ج ١ ص ٢٢

(٢) Gouin, PP. 443-444 و St. John. Vol. 2, P. 501

(٣) مذكرات تاريخية ص ٧٠

(٤) حروب ابرهيم باشا ج ١ ص ٢١ (الحاشية) و 444 Gouin

(٥) المؤلف نفسه ج ١ ص ٢٢ و Gouin, P. 444

(٦) The Present State of The Turkish Empire P. 278

(٧) المؤلف نفسه ص ٢٧٨

موقعة بيلان

في ٢٩ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٢ = ٢ ربيع الاول سنة ١٢٤٨ هـ

ان مضيق بيلان واقع على طريق القوافل بين حلب والاسكندرونة في مركز طبيعي منيع له شهرة حربية عظيمة في التاريخ · فهو احد مفاتيح سوريا الشمالية وممر الغزاة من قديم الازمان فنيه مر الاسكندر المكدوني في طريقه الى الشرق واقتفت اثره جيوش الصليبين التي غزت سوريا قادمة عن طريق القسطنطينية · فحسين باشا احسن الاحسان كله باختياره هذا الموقع للاعتصام به والتصدي لمنع العدو من اجتيازه غير انه افقده منعته واضاع قيمته الحربية باهماله احتلال بعض المرتفعات · وكان عدد جنود حسين باشا ستين الفاً منها ٤٥ الفاً من الجنود النظامية[1] وكانت جيدة السلاح ولديها مائة وستون مدفعاً غير انها كانت مفتقرة الى المؤن وحالتها المعنوية منحطة لان بينها عدداً غير يسير من الجنود الذين ذاقوا مرارة الانكسار بقرب طرابلس وفي موقعتي الزراعة وحمص · وعدا ذلك كانت الادارة العسكرية في اسوأ حال فلا مناورات ولا تفتيش على اسلحة الجيش ومعداته الحربية[2] ولا عناية باي امر من الامور التي تجعل الجيش دائماً على قدم الاستعداد للقتال · اما القائد

---

(١) Guerre de Mehemet Ali Etc. P. 160

(٢) المؤلف نفسه ص ١٦٢



العام حسين باشا فكان من المشهود لهم بالبسالة غير انه كان من الطراز القديم لا خبرة له بالفنون الحربية الحديثة وكان السرعسكر خسرو باشا يزيد اعماله عرقلة[1] بتدخله تدخلاً غير مشروع وبتشديد عزيمة صنيعته محمد باشا والي حلب على مقاومته فسادت الفوضى واختل نظام ادارة الجيش المابين .

واذا رأيت الرأس وهو مهشم ايقنت منه تهشم الاعضاء

اما جيش ابراهيم باشا فمع انه كان اقل عدداً وعدداً من جيش عدوه فانه كان يمتاز عليه بحسن الادارة العسكرية ودقة النظام والخبرة التامة بالفنون الحربية وبالقوة المعنوية التي اكتسبها في الانتصارات المتتابعة فبهذا الجيش الشديد التحمس المتقن التدريب اقبل ابراهيم باشا على بيلان في ٢٩ تموز الساعة الثالثة بعد الظهر[2] فبادر الى تفحص مواقع العدو فاكتشف ان العثمانيين قد اغفلوا احتلال بعض المرتفعات القريبة منهم المشرفة على مواقعهم وحيث وجد ان جيشه يستطيع تسلق تلك المرتفعات صمم على احتلالها فوراً واصلاء نار القتال دون ان يستريح من عناء السفر[3] حتى لا يترك للقائد العثماني فرصة لادراك خطائه او لاستقدام النجدات من الاسكندرونة ويأس . اما جبهة الجيش العثماني فكانت منيعة لا تنال لانها صعبة

Guerre de Mehemet Ali PP. 161-163 (١)

The Present State of The Turkish Empire P. 278 (٢)

(٣) ترجمة سليمان باشا ص ٢١٤

المرتفق متينة الاستحكامات مشحونة بالمقاتلة ولديها مدفعية قوية مسلطة على الوادي [1] الذي تحتها لان العثمانيين كانوا يحسبون ان ابراهيم باشا سيهاجمهم من تلك الجهة · اما هو فتظاهر انه عازم على ذلك فقام قسم من جيشه بمناورة قبالة الجبهة العثمانية اوهمت العثمانيين انها مقدمة للهجوم [2] المنتظر فتهللوا لذلك نظراً لثقتهم بمناعة مواقعهم واقتدارهم على اهلاك جيش العدو بأسره دون ان يستطيع الوصول اليهم · وبينما هم يعللون نفوسهم بالمحال كان معظم الجيش المصري يقوم مسرعاً بحركة التفاف وتصعيد حتى بلغ المرتفعات الواقعة فوق خنادق العثمانيين واستحكاماتهم كما انه احتل الطريق المؤدي الى الاناضول ليحول دون انسحاب او انهزام العثمانيين من تلك الجهة · وحالما اتخذت الجنود المصرية مراكزها سلطت نيرانها الحامية على اعدائها الذين اصبحوا تحت رحمتها ولم يمض اكثر من ساعتين [3] حتى تقلقلت الجنود العثمانية من مراكزها وأركنت الى الفرار متجهة نحو الاناضول غير ان المصريين سدوا عليهم باب الخلاص من تلك الجهة وكبدوهم خسائر جسيمة ولما لم يجدوا طريقاً صالحاً لمرور قوات كبيرة تفرقوا شراذم واتجهوا نحو الاسكندرونة آملين ان يجدوا الاسطول العثماني هناك فيلجأوا اليه غير ان املهم لم يتحقق · وقد بلغت خسائر العثمانيين في هذه الموقعة

---

(١) ترجمة سليمان باشا ص ٢١٣

(٢) The present State of The Turkish Empire P. 279

(٣) مذكرات تاريخية ص ٧٢

خمسة وعشرين مدفعاً ونحو الفي اسير[1] وعدداً كبيراً من القتلى والجرحى · اما جيش ابراهيم باشا فكانت خسارته زهيدة جداً[2]

وفي اليوم التالي تقدمت الجنود المصرية الى الاسكندرونه فملكتها بدون مقاومة واستولت فيها على اربعة عشر مدفعاً وبعض الاسرى وعلى مقادير كبيرة من المؤن[3] ووصل اليها بعد انكسار حسين باشا سبعة عشر مركباً عثمانياً حاملين المؤن والذخائر للجيش العثماني فاستولى المصريون عليها[4] ثم تقدمت فرسان الجيش المصري الى بيّاس وتغلبت على القوة العثمانية النازلة فيها واسرت منها الف وتسعماية رجل[5]

وعلى اثر موقعة بيلان ارسل ابراهيم باشا الى متسلم الشام الكتاب التالي :

افتخار الاماجد الكرام ذوي الاحترام الحاج احمد بك

غب السلام التام بمزيد العز والاكرام نبدي اليكم انه نهار الاحد المبارك الواقع في ٢ ربيع اول سنة ١٢٤٨ قد شرفت حلول ركابنا بالعساكر المنصورة الى مرحلة خان قراموط لاجل ضرب عساكر المحتشدين في بوغاز بيلان وفي الساعة الستة باليوم المذكور قد تحرك ركابنا من مرحلة الخان المذكور بالعساكر المنصورة وآلة الحرب المهوله

---

(١) ترجمة سليمان باشا ص ٢١٤ و The Present State of the Turkish Empire PP. 279-280

(٢) Gouin. P 447

(٣) Soliman Pacha P. 214

(٤) مذكرات تاريخية ص ٧٣ وحروب ابرهيم باشا المصري الج ج ١ ص ٢٢

(٥) The Present State of The Turkish Empire p. 280

حيث ان البوغاز المرقوم المتحصنين فيه بالقرب من المنزلة التي تحول ركابنا بها وفي الساعة التاسعة من النهار قد كانت المصادفة في عساكر اللشمان وابتدأ ضرب الاطواب عليهم و بخصوص تحصينهم بعمل الطوابي وعمر الطرقات وفي هذا جميعه ما افادهم شيء سوى انه مسافة ساعتين زمان الذي تبقى منهم بعد الذي قتلوا وانمسكوا باليد ما بين مجروح وقتيل قد فروا هاربين وللنجاة طالبين مهزولين الى ناحية ادنة [1] عند طريق اسكندرونة وتركوا اطوابهم وموجوداتهم فعند ذلك حالاً صدر امرنا بتوجيه خيالة العساكر المنصورة الجهادية والعرب لاجل اتباع اثرهم ومسكهم جميعاً بحيث انه لا ينفذ منهم احد وبحوله تعالى لا بد من حصول المراد وتدمير الجميع فبناء على ذلك اصدرنا لكم مرسومنا هذا لكي بوصوله تعلنوا البشائر الى جميع المقاطعات لكي يكونوا جميعاً حائزين على السرور والفرح على هذه النصرة العظيمة والمنة الجسيمة ليكونوا دائماً مداومين بالدعوات الخيرية بدوام بقاء هذه الدولة السعيدة بوجود دولة افندينا ولي النعم والدنا عزيز مصر المعظم فبناء على ذلك اصدرنا لكم مرسومنا هذا اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد [2]

اما ذلك القائد المنكود الحظ الذي كان بالامس مناط آمال امته وموضع ثقة مليكه فأغدق عليه انعاماته وجعله قائداً عاماً لجيشه في آسيا

---

(١) انظر مجموعة جامعة بيروت الاميركية لسنة ١٢٤٨ هـ.
(٢) عن مذكرات تاريخية ص ٧١ - ٧٢ مجموعة جامعة بيروت الاميركية ١٢٤٨ هـ.

ولقبه مشيراً اكرم وسماه حاكماً على مصر و كريت والحبشة — ذلك القائد الذي كان حتى ساعة نشوب المعركة واثقاً بالنصر المبين و بانزال القضاء المبرم بالجنود المصريين لم تمض ساعتان منذ نشوب نار القتال حتى امسى شريداً طريداً بين المضايق والآكام فلم يقفوا له بعد الوقعة على اثر ولا سمع عن مصيره الحقيقي اي خبر · لكن شاعت عنه شائعات[1] لم يمكن على ما نعلم اثبات صحة واحدة منها · فاحدى هذه الشائعات هي انه فرّ مع حاشيته ومعه امواله وقسم من اموال الجيش فاستأجر مركباً يونانياً لهم جميعاً ولما درى ربان المركب بما لدى ركابه من الاموال طمع فيها فأنزل الباشا واتباعه في جزيرة صغيرة واخذ المال لنفسه[2] فهذه الشائعة عليها مسحة القصص الموضوعة كقصة السندباد البحري اما الشائعة الثانية فهي انه لجأ الى احدى البلدان الصغيرة في جهات برصة وقضى بقية حياته مجهولاً وهذا غير معقول عن رجل ذائع الشهرة في المملكة معروف لدى الالوف من الاتراك لو شاء كتمان امره لما اختار الاقامة في بلاد قريبة من دار السلطنة كبرصة وما جاورها · وقال اخرون انه نفي الى الطونه · فاذا صح انه بقي حياً بعد معركة بيلان وفرّ ومعه الاموال الطائلة فغير مستبعد ان يكون قد طمع رجاله بامواله ففتكوا به في اثناء انهزامه ليلاً في تلك البلاد الموحشة وأخفوا اثره وكتموا عن الغير خبره ·

---

(١) Soliman Pacha PP. 214-215

(٢) St. John, Vol. 2, P. 506

موقعة قونية

في ٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ و ٢١ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨٣٢

ان الانتصار في موقعة بيلان مكن ابراهيم باشا من الاستيلاء على الاسكندرونة فيّاس وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية وتقدم جيشه الى منطقة ادنه فاحتل طرسوس وفي ٢٧ تموز سنه ١٨٣٢ دخل مدينة ادنه[١] . وبالاستيلاء على ادنه وما جاورها من البلاد الغنية بالاخشاب التي كان محمد علي شديد الحاجة اليها لاعماله الصناعية وبعد وصول الجيش المصري الى جبال طوروس الحد الطبيعي ما بين سوريا والاناضول بلغ ابراهيم باشا الغاية التي كان يرمي اليها والده فوقف عن التقدم منتظراً الاوامر من مصر لان محمد علي كان يظهر للدولة العثمانية بعد كل انتصار رغبته في المسالمة[٢] . والتريث في هذه المرة وعدم التوغل في الاناضول فوراً قبل التثبت من الخطة التي تتخذها الحكومة العثمانية كانا مما يقتضيه حسن السياسة والحكمة ولم يكن في التريث خطر على مصلحة محمد علي لان الجيش العثماني كان قد اصبح عاجزاً عن اتخاذ خطة هجومية عاجلة بعد ان حلّ ما حل فيه من القتل والاسر والتشريد وفقدان قائده العام كما ان الجيش المصري كان في حاجة

(١) حروب ابرهيم باشا ج ١ ص ٢٣
(٢) St. John p. 507

الى الراحة التي لم يذق لها طعماً منذ موقعة حمص . بينما اتساع البلاد التي افتتحها ووجوب المحافظة عليها كانت تقضي بتوزيع الحاميات في جهات مختلفة والحصول على امدادات جديدة وعلى كميات وافرة من الميرة والذخيرة والمهمات الحربية . فبعد ما وصل ابراهيم باشا الى ادنه جمع معظم جيشه فيها ووجه فرقة مؤلفة من الاينين من الجنود المشاة وقوة من الخيالة غير المنظمة فاستولوا على مدينة أورفا ليراقبوا الطريق الممتد من ارزروم وسيواس فديار بكر واحتلوا مدينة مرعش ليقفوا على حركات العدو في تلك الجهة من جبال طوروس[1] . وكانت معظم مواصلاته مع القطر المصري بعد احتلال ادنه بواسطة السفن[2] .

وظهر من حركات العثمانيين في هذه الاثناء انهم لا يزالون مصرين على العدوان فحصنوا « تشفتخان » وتأهبوا لتحصين « أولو قشلاق » وكانت كل الظواهر تدل على السعي الى حشد جيش جديد[3] . وعليه لما استوفى جيش ابرهيم باشا نصيبه من الراحة وخفت عنه وطأة المرض الذي كان منتشراً فيه واستكمل المعدات اللازمة لاستئناف الزحف الى الامام وجهت بعض الطلائع في ١٤ تشرين اول (اوكتوبر) سنة ١٨٣٢ م = ١٨ جماد الاول سنة ١٢٤٨ هـ لاستكشاف مضايق جبل طوروس التي كان يحتلها الاتراك[4] وكانت هذه القوة مؤلفة من

(١) ص ٢٨١ و ٢٨٢ The present State of The Turkish Empire PP.
(٢) ص ٢٨٢ « « «
(٣) Gouin p. 450
(٤) The present State of The Turkish Empire P, 282

فرقتين احداهما نظامية تقدمت الى نمرود والثانية غير نظامية تقدمت الى تشفت خان لتقوما بحركة التفاف حول موقع الاعداء فاضطر هؤلاء عندما شعروا بحركات الجيش المصري الى الانسحاب من مواقعهم الى اركلي[1] ثم اخلوا اركلي ايضاً فاحتلتها طليعة الجيش المصري ومكثت فيها من عشرين تشرين اول الى ١٢ تشرين ثاني سنة ١٨٣٢ .

موقعة قونية[1] : ثم ان هذه القوة اخذت من المؤن والعلوفة ما يكفيها ستة ايام وسارت الى قونية وكانت قد تقدمت الى تلك المدينة ايضاً فرقة غير نظامية عن طريق كرمان وبعد ذلك تبعتها بقية الجيش مرتبة مشاةً في خمسة صفوف متوازية اما المدافع فوضعت في الوسط بينما الخيالة سارت على جانبي الجيش وبارحت هذه القوة كورخان في ١٧ تشرين ثاني سنة ١٨٣٢ واتصل بابراهيم باشا ان الاتراك اخلوا قونيـة فوجه قوة الخيالة ومعها اثنا عشر مدفعاً وامرها ان تجد السير وتستولي عليها فصدعت بالامر واستولت على قونية بدون مقاومة واستحوذت على كميات وافرة من الميرة والذخائر[2] وعدد من المدافع . وفي ١٨ تشرين ثاني انفذت قوة من الفرسان مؤلفة من اربع الايات ومعهم البدو و١٢ مدفعاً ليتعقبوا الاتراك في طريق « ألك شهر » فلما ادركوهم جرت بينهم مناوشة اخذ المصريون في اثنائها بعض الاسرى

(١) The Present State of The Turkish Empire P. 282

(٢) PP. 281-289 « « « «

(٣) مجموعة جامعة بيروت الاميركية لسنة ١٢٤٨

وعادوا الى قونية · واتخذ ابراهيم باشا الحيطة لوقاية جيشه من هجوم عثمان باشا الذي كان يقود الجنود العثمانية في سيواس فانفذ في ٩ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨٣٢ من اركلي الى قيسارية لواء من الخيالة وبعض كتائب من المشاة وبطارية من المدافع بقيادة محمد بك[1] لصد قوة عثمان باشا عند اللزوم ورأى بعين بصيرته امكان حصول الموقعة الكبرى في قونية فأخذ في درس الخطة التي سيتبعها وتفحص الجهات المحيطة بها بكل دقة وعمد الى تمرين جيشه على الحركات في الاماكن التي فرض انها ستكون ساحة النزال[2] حتى اصبح الجيش باسره عارفاً تلك الاماكن وألف الحركات التي سيقوم بها متى اصطلت نار القتال · وفي ١٨ كانون اول (ديسمبر) ظهرت طلائع الجيش العثماني على مسيرة ساعة ونصف الى غربي قونية وكان يقودها رؤوف باشا فجرت بينها وبين قوة من الجيش المصري يقودها ابراهيم باشا مناوشات تغلب فيها ابراهيم باشا واستولى على ثمانية اعلام وستة مدافع ووقع في يده الفا اسير[3] · وتجدد القتال في اليوم التالي عند خان واقع على طريق «لادك» فانهزمت الخيالة العثمانية التي بقيت محاصرة في الخان البالغ عددها سبعماية وخمسين مقاتلاً ومعها كريدلي اوغلو محمد باشا بلا شرط ولا قيد وفي مساء اليوم نفسه حضر الى المعسكر المصري ما بين خمسماية وستماية من الارناؤوط عارضين تطوعهم للخدمة

---

(١) The Present State of The Turkish Empire PP. 283,284

(٢) المؤلف نفسه ص ٢٨٤

(٣) Gouin P. 451 ومجموعة جامعة بيروت الاميركية سنة ١٢٤٨ هـ.

في الجيش المصري[١] .

وفي عشرين كانون اول تحقق ابراهيم باشا ان رشيد باشا الصدر الاعظم قائد الجيش العثماني العام اخذ يتقدم نحو قونية وصار على مقربة منها فتهيأ الجيش المصري لخوض معركة عامة[٢] وكانت قوته لا تزيد على ثلاثين[٣] الف مقاتل مؤلفة من خمس الايات من المشاة تشتمل كل واحدة منها على اربع كتائب مع ست الايات خيالة[٤] وست بطاريات جملة مدافعها ستة وثلاثون مدفعاً يتبع ذلك بعض البدو وغيرهم من الجنود غير المنظمة[٥] . وربما خيل للقارىء ان ابراهيم باشا كان مخاطراً بنفسه مغرراً بجنوده لتوغله بجيش صغير في بلاد الاناضول معقل الاتراك الاشداء على ان الخطر والتغرير كانا بعيدين عنه لان اهل الاناضول كانوا شديدي الاستياء من حكامهم لما كانوا يعانونه من عسفهم واستبدادهم وسوء ادارتهم وفساد اخلاقهم كما انهم كانوا ناقمين على السلطان محمود لتوهمهم ان مشاريعه الاصلاحية المبنية على الانظمة الغربية مخالفة للنصوص الدينية وكان كثيرون منهم يعتقدون ان محمد علي وابراهيم باشا انما يذودون عن حوزة الدين ويبغون انقاذهم من مخالب الظلم وان يبسطوا

---

(١) Gouin, P. 451 و مجموعة جامعة بيروت الاميركية لسنة ١٢٤٨ هـ.
و The Present State Etc. P. 285

(٢) The Present State of The Turkish Empire PP. 285-286

(٣) Soliman Pacha P. 217 & Clot-Bey, T. I, P. LXXIV

(٤) Gouin, Ed. P. 451

(٥) The present State of The Turkish Empire P, 285

فوقهم رواق العدل وينشروا رايات الامن ولهذه الاسباب كانت ترد على ابراهيم باشا العرائض من اهل الولايات المختلفة يدعونه فيها الى القدوم اليهم وبسط سلطته عليهم[١] .

هكذا كانت حالة الاناضوليين قبل مصادمة الجيشين في قونية . اما الجيش العثماني فكان مؤلفاً من نحو ستين[٢] الف مقاتل فيها فرق قوية من الخيالة وعدد كبير من المدافع غير ان جنوده كان يعوزها التدريب والحنكة كما ان قائده رشيد باشا الذي كان محمود الصفات معروفاً بالبسالة والاقدام لم يكن واسع الاختبار بالفنون العسكرية الحديثة ولا به الكفاءة لمنازلة قائد قدير كابراهيم باشا .

وفي ٢١ كانون اول سنة ١٨٣٢ رتبت الجنود المصرية في مراكزها واستعدت للقتال وكان يسترها حجاب كثيف من الضباب وكانت الجنود العثمانية تتقدم نحوها في الوقت عينه مرتبة ترتيباً حسناً غير ان رشيد باشا اخطأ في توزيع مدافعه كما اخطأ محمد باشا قبله في موقعة حمص اذ انه بدلاً من جمعها صفوفاً لتكون نيرانها المجتمعة شديدة التأثير وزعها بين كتائب جيشه فاختص كل كتيبة بمدفعين[٣] ولما صار الجيش العثماني على بعد نحو خمساية متر من الجيش المصري بدأ في اطلاق النيران وهو يكاد لا يرى العدو الذي بقي ملازماً السكون والسكوت

---

(١) St. John, Vol. 2, P. 509

(٢) Soliman Pacha P. 216

(٣) The Present State of The Turkish Empire P. 288

جرأه ذلك[1] على التقدم وقاموا بحركة تركت ثغرة واسعة ما بين مشاتهم وميسرة خيالتهم فاندفع المصريون اليها بينما كانت مدفعيتهم تصب قنابلها على جموع العدو صباً شديداً وهاجمت خيالتهم الخيالة العثمانية بمنتهى الشدة فردتها على اعقابها ثم انها وجهت هجومها على مشاة العثمانيين وساعدتها مشاة فرقة الحرس فاكرهت المشاة العثمانيين على التسليم[2] اما ميمنة الجيش العثماني فكانت قد احاطت بميسرة الجيش المصري لكنها اضطرت لاجل ذلك الى قطع مسافة بعيدة وهي معرضة لنيران الجيش المصري فتحكت المدفعية المصرية بميسرة وقلب فرق الخيالة العثمانية المهاجمة فتكاً ذريعاً قبل ان تتمكن منها في قتال عنيف وتمكنت ميسرة المصريين التي انجدتها المدفعية الاحتياطية من الثبات في مواقفها رغماً عن هجمات العثمانيين المتوالية[3] . وكان رشيد باشا قد شاهد التضعضع الذي طرأ على صفوف خيالته فأسرع نحوها ليلم شعثها غير ان تكاثف الضباب جعله يضل الطريق واوقعه في ايدي البدو التابعين للجيش المصري فأحاطوا به وقادوه مسرعين الى ابرهيم باشا . فلما ذاع بين العثمانيين خبر اسر قائدهم وانكسار ميسرة جيشه توقف الباقون عن مواصلة القتال واسرعوا في الانسحاب[4] .

---

(١) Soliman Pacha PP. 216-217

(٢) The Present State of The Turkish Empire P. 288

(٣) The present State of The Turkish Empire P. 288-289

(٤) المؤلف نفسه ص ٢٧٨ و Soliman Pacha P. 217

ان انتصار ابراهيم باشا في موقعة قونية اعظم انتصار ناله منذ ابتداء زحفه على سوريا وكانت خسائر الجيش العثماني في هذه الموقعة ثلاثة الاف قتيل وعشرة آلاف اسير واثنين وتسعين مدفعاً[1] . اما جيش ابراهيم باشا فبلغت خسائره مايتين واثنين وستين قتيلاً وخمساية وثلاثين جريحاً[2] وقد كان لهذا الانتصار دوي عظيم في جميع انحاء السلطنة العثمانية وخصوصاً في بلاد الاناضول حيث قدم من انحائها المختلفة الوفود لتقديم خضوعهم لابراهيم باشا ولو شاء حينئذ لاستولى على ما بقي من البلاد بدون قتال ولو واصل الزحف الى الاستانة لما لقي في طريقه مقاومة[3] وان كان يصعب التكهن عما يعقب وصوله اليها من الحوادث الخطيرة نظراً لما في الاستيلاء على الاستانة من تصادم المصالح وتضارب السياسات .

---

(١) Soliman Pacha PP. 217-218 وحروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٢٨ و ٢٩

(٢) Gouin, Ed. P. 451

(٣) The Present State of The Turkish Empire P. 290

من قونية الى كوتاهية

مكث ابراهيم باشا في قونية الى ٢٠ كانون ثاني سنة ١٨٣٣ [١]
ثم نهض بجيشه نحو الاستانة فاحتل كوتاهية بدون ان يلقى مقاومة ·
ولا بد من التساؤل عن سبب تأخره نحو شهر قبل الزحف على عاصمة
السلطنة فلو كان غرضه الحقيقي الاستيلاء على الاستانة لكان من
الواجب ان يجد في اثر العدو المنهزم حتى لا يترك له فرصة ليلم شعثه
ويستفيق من روعة الانكسار · نعم انه من المعقول ان يتريث جيش منتصر
في موقعة كبرى عن مواصلة الزحف في بلاد عدوه حتى يعيد تنظيم
صفوفه ويستكمل ما يلزمه من الميرة والذخيرة وغيرها لكن موقعة قونية
على اهميتها لم تستغرق وقتاً طويلاً لان وقوع رشيد باشا لجأة في الاسر
وتخاذل رجال جيشه ونكوصهم عن القتال حالما بلغهم ذلك كفى
المصريين شر عراك عنيف وحال دون تكبدهم خسائر جسيمة ومتاعب
عظيمة تستدعي طول الاستراحة واعادة تنظيم الصفوف · وكان معلوماً
ان الدولة العثمانية ليس لديها مدد جديد كما ان قلوب اهل البلاد كانت
متغيرة على السلطان محمود وحكومته [٢] وعرتهم الدهشة من انتصارات

---

(١) Gouin p. 422

(٢) St. John, Vol. 2, P. 509-511

ابراهيم باشا الباهرة واعجبوا غاية الاعجاب بما اوتيه من الحزم والاقتدار. وكان لا يزال شائعاً بينهم انه انما كان يدافع عن حوزة الاسلام وينتقم للمسلمين من سلطان مرق من ربقة الدين وفتنته زخارف مدنية الغربيين. فمتى استعرضنا هذه الامور اتضح لنا ان تريث ابراهيم باشا في قونية لم يكن ناشئاً عن خوفه من قيام اهل البلاد عليه او من اصطدام جيشه في اثناء زحفه الى الاستانة بجيش عثماني اقوى منه بل كانت هنالك اسباب سياسية منشاؤها تضارب سياسة محمد علي والسياسة الاوروبية نخص منها سياسة روسيا[1] وانكلترا فالاولى وهي الطامعة بالاستانة والبواغيز لا ترضى عن قيام حكومة قوية في عاصمة آل عثمان تقطع املها بالحصول على ميراث قريب. اما انكلترا فلم يرق لها انتصار ابراهيم باشا لانها كانت تخشى ان يؤدي تقدمه الى الاستانة الى تدخل الروسية تدخلاً عسكرياً يهدد مصالحها في البحر المتوسط ولو فرض احجام الروسية عن التدخل فان احتلال الاستانة ربما قاد محمد علي الى الطمع في عرش آل عثمان والى اقامة دولة فتية على شواطىء البحر المتوسط وفي طريق الهند تحارب الغربيين بسلاحهم وتدعو العالم الاسلامي الى التجدد وتبث مبادىء الاستقلال في نفوس المسلمين في كل مكان. ان ذلك لو تم لكان خطره شديداً على مصالح الانكليز في الشرق. فالمشاكل السياسية التي لها هذه الخطورة كان حلها منوطاً بمحمد علي

---

(١) Paton, Vol. 2, P. 100

الجالس على ضفاف النيل[1] وهذا الذي اقعد ابراهيم باشا عن مواصلة الزحف نحو الاستانة بعد موقعة قونيه ودعاه الى انتظار تعليمات والده للعمل بموجبها . ولا يستبعد ان زحفه بعد ذلك على الاستانة لم تكن غايته الاستيلاء عليها بل تهديد السلطان لاكراهه على قبول مطالب محمد علي وحمل الدول الاوروبية على تأييد تلك المطالب تفادياً من تطاير شرور الحرب اليها[2]

ان توغل ابراهيم باشا في الاناضول ابلغ النزاع بين السلطان محمود ومحمد علي درجة دقيقة جداً جعلته ذا صبغة سياسية عامة واصبحت تسويته خاضعة لمقتضيات السياسة الاوربية . فالروسية اظهرت التحيز لجانب الدولة العثمانية منذ ابتداء النزاع واغتنمت فرصة تقدم جيش ابراهيم باشا في بلاد الاناضول لعرض مساعدتها على السلطان محمود لاجل حماية الاستانة لانها كانت تخشى ان يؤدي انخذال تركيا الى ترتيبات جديدة تخالف مطامعها وتقلل من نفوذها في الاستانة[3] بينما فرنسا وهي ذات ضلع مع محمد علي كانت قبل حصول موقعة قونيه قد تدخلت في امر الصلح بين السلطان محمود ومحمد علي وعرضت مطاليب هذا الاخير غير ان السلطان رفض قبول وساطة فرنسا في الامر[4] اما

---

(١) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ١ ص ٣٠
(٢) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ١ ص ٢٩
(٣) Paton, Vol. 2, P. 100 St. John, Vol. 2, P. 515
(٤) حروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٢٩

بعد انتصار قونية وما احدثه من اضطراب الافكار في الاستانة ونشاط الروسية الى مفاوضة السلطان احتجت انكلترا وفرنسا على الاتفاق بين روسيا والسلطان محمود وثار ثائر العلماء في الاستانة على اقتراحات الروسية[1] وكان الباب العالي ايضاً يقاومها اما السلطان فتمسك بصداقة الروسية لكنه اذعن اخيراً الى مشورة وزرائه بارسال مندوب خاص الى الاسكندرية لمفاوضة محمد علي[2] ثم ان الجنرال مورافيف الروسي غادر الاستانة قاصداً الى الاسكندرية لمفاوضة محمد علي وقبل سفره طلب الى ابراهيم باشا ان لا يتقدم بجيشه بل ينتظر عودته من الاسكندرية[3] .

وصل الجنرال مورافيف الى الاسكندرية في ١٣ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٣٣ وكانت خلاصة مفاوضاته مع محمد علي ايقاف الزحف على الاستانة والاهتمام اهتماماً جدياً في مصالحة السلطان وقال له بلهجة لا تخلو من التهديد ان الروسية لا تسمح بتجزئة السلطنة العثمانية التي ترمي اليها مطامعه . واتخذت النمسا[4] اللهجة نفسها في مخاطبة محمد علي لا مجاراة للروسية بل منعاً لاتساع الخرق بين السلطان محمود ومحمد علي لان ذلك يمهد السبيل لتدخل الروسية لمصلحة السلطان ولازدياد نفوذها

---

(١) حروب ابراهيم باشا الج ١ ص ٢٩

(٢) St. John. Vol. 2, PP. 525-528

(٣) حروب ابرهيم باشا المصري الج ١ ص ٣٠ و St. John, Vol. 2, P. 525

(٤) St. John, Vol. 2. P, 525-526

في الاستانة وتسلطها على سياسة الدولة العثمانية وهو ما لا يتفق مع مصالح النمسا ·

اما مندوب السلطان فاستقبل في الاسكندرية بالحفاوة والاكرام ووافق محمد علي باشا على المبدأ الذي اقترحه الباب العالي وهو تسوية الخلاف ما بين الاستانة ومصر مباشرة بدون تدخل الاجانب وارسلت نتيجة المفاوضة الى الاستانة [١] · وكان محمدعلي بعد المفاوضة مع الجنرال مورافيف قد انفذ امره الى ابراهيم باشا ليوقف الزحف على الاستانة لكنه لم يفتر عن [٢] ارسال النجدات الى سوريا حتى يبقى موقفه العسكري مكيناً فيما لو اخفقت المفاوضات السلمية · اما ابراهيم باشا فصدع بامر والده ووقف بجيشه في كوتاهية [٣] لكن رغماً عن ذلك بقي السلطان مواصلاً المفاوضات سراً مع الروسية [٤] كما ان هذه بادرت الى ارسال اسطولها الى مياه الاستانة فرسا هناك في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٣٣ ووجهت جيشاً برياً فنزل على ضفة البوسفور الاسيوية وجهزت جيشاً آخر لنجدته عند اللزوم زاعمة ان نزول ابراهيم باشا بجيشه على مقربة من الاستانة قد يحدث الاضطراب فيها [٥] · اما فرنسا وانكلترا فكانتا متفقتين حينئذ في سياستهما وكانتا تسعيان الى التوفيق

---

(١) St. John, Vol. 2, P. 529
(٢) المؤلف نفسه ص ٥٢٨ و ٥٢٤
(٣) St. John, Vol. 2, P. 534
(٤) « « Vol. 2, P. 529
(٥) « « Vol. 2, P. 535

بين السلطان ومحمد علي والى مقاومة مطامع الروسية — وكانت فرنسا تظهر اهتماماً خاصاً بحوادث الشرق الادنى فأنفذت سفيراً الى الاستانة البارون روسان (Baron Roussin) فبادر الى الاحتجاج على اقامة الاسطول الروسي والجنود الروسية في المياه والاراضي العثمانية · وطلب الى السلطان ارجاعها الى حيث اتت ثم دارت المفاوضات بينه وبين الحكومة العثمانية ثم مع محمد علي ونظراً لحداثة عهده بالسفارة والسياسة الشرقية وعدم وقوفه على دقائق المسألة وتفصيل المفاوضات التي جرت بين الباب العالي ومحمد علي تسرّع في عقد اتفاق مع الباب العالي خلاصته ان السلطان قبل مساعي دولة فرنسا لحسم النزاع بينه وبين تابعه محمد علي باشا على شرط عودة محمد علي الى طاعة السلطان فيقبل السلطان طاعته ويعفو عنه ويمنحه الحكم على بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام ويرفض كل نوع من المساعدات الاجنبية[1] ومتى نفذ السلطان هذا الشرط الاخير يتعهد السفير باسم ملك فرنسا بامضاء اتفاق بوجه السرعة بالشروط المتقدم بيانها ثم ان السفير خاطب محمد علي ملحاً عليه بوجوب قبول الشروط الآنفة الذكر فرفض محمد علي اقتراحات السفير وتحرج الموقف بينه وبين قنصلي انكلترا وفرنسا العامّين في مصر بسبب ذلك[2] والكتابان التاليان اللذان كتبهما بهذا الشأن يوضحان خطورة الحالة

---

(١) St. John, Vol. 2, PP. 535-538

(٢) Gouin, P. 423 & St. John, Vol. 2, P. 539

وثبات جأش محمد علي بازاء المصاعب وجرأته في مقاومة ممثلي الدول العظمى ·

فالكتاب الاول وجهه محمد علي الى قنصلي انكلترا وفرنسا في مصر وهو :

« انه بما لي من القوة التي استمدها من شعبي ومن القانون المقدس »
« والفتاوى الشرعية الموجهة الي من جميع علماء البلاد العربية وبر »
« الاناضول قد اصبح من واجبي الذي لا محيد عنه ان اوطد اركان »
« حكومتي ومكانة قومي بجميع الوسائل · وما تلك الوسائل سوى »
« الحصول على كل البلدان التي اطلبها وهي البلاد التي استوليت عليها · »
« وبما اني قد بذلت في سبيل ذلك وقتاً طويلاً وجهوداً جهيدة فمن »
« الواجب على الاقل ان يتركوا لي في هذا الكون شيئاً من الشهرة »
« ولن يحملني حب الراحة على ارتكاب عار التخلي عن شعبي الذي وضع »
« كل ثقته بي بل اني سأكون سعيداً بان اموت شريفاً في سبيله · »
« فأرجو والحالة هذه من دولتي انكلترا وفرنسا ان تتخذا نحوي قراراً »
« مطابقاً للعدالة والانصاف ولمصالحهم الخاصة[1] »

اما الكتاب الثاني وهو مؤرخ في ٨ مارس سنة ١٨٣٣ فكان جواباً على رسالة وردت عليه من البارون روسان سفير فرنسا لدى الباب العالي وهذه ترجمته :

---

(١) Gouin, PP. 423-424

« قد اعترضت عليّ ياسعادة السفير في رسالتك المؤرخة »
« في ٢٢ شباط (فبراير) بان لا حق لي بالمطالبة في ما سوى بلاد عكا »
« والقدس ونابلس وطرابلس الشام وانه يجب عليّ والحالة هذه ان »
« اسحب جنودي حالاً وقد انذرتني بسوء العاقبة فيما لو رفضت ذلك كما »
« ان حاجيك قد ابلغني شفاهاً بناءً على التعليمات التي زودته بها اني اذا »
« بقيت مصراً على مطالبي سيتظاهر الاسطولان الانكليزي والفرنساوي »
« امام الشواطىء المصرية . فياسعادة السفير باي حق تعمل هكذا على »
« تجريدي مما غنمته ؟ ان شعبي باسره يعضدني وما عليّ الا ان »
« احرض اهل الروملي والاناضول ليثوروا ولو شئت لتمكنت بمساعدة »
« الشعب العثماني من احداث حدث جديد . فبينما اسيطر على ولايات »
« عديدة والنصر حليفي في كل المواقع قد اكتفيت باخذ سوريا التي »
« اقيم فيها بقوة السلاح وتأييد الرأي العام . كما اني قد اوقفت جنودي »
« عن التقدم ولا قصد لي سوى عدم اراقة دم الاتراك عبثاً وحتى »
« اتمكن من تعرف رأي الدول الاوربية . فكانت المكافأة على حلمي »
« هنا وعلى الضحايا التي قدمها شعبي الذي مكنني بمساعدته الفعالة من »
« الحصول على انتصارات باهرة — كانت المكافأة على كل ذلك ان »
« أطالب الآن بالتخلي عن البلاد التي احتلها وان استرجع جيشي الى »
« منطقة صغيرة يسمونها باشاوية! الا ترون انكم بذلك تصدرون عليّ »
« الحكم بالموت السياسي ؟ ان لي وطيد الامل بان فرنسا وانكلترا »

« لا تأبيان معاملتي بالانصاف والاعتراف بما لي من الحقوق . انـ »
« شرفهن يقضي بذلك . اما اذا كنت مخدوعاً في ما امّلت فاني »
« ساطيع قضاء الله لا غير وسافضل الموت على احتمال الضيم وساقدم »
« نفسي بكل ابتهاج فدى لمصلحة قومي واشعر باني سعيد بان اخدمهم »
« حتى أُغيَّب في لحدي — هذا هو قراري الذي وطنت النفس عليه »
« وقد روى التاريخ اكثر من شاهد واحد من مثل هذه المفاداة . »[1]

فلهجة محمد علي الحازمة وتدخل الروسية تدخلاً عسكرياً راع النمسا وانكلترا وفرنسا فألححن على السلطان محمود بوجوب عقد الصلح وقبول مطاليب محمد علي ولم تجد الروسية مناصاً من موافقة سائر الدول على ما طلبنه من السلطان . كما انه لم يسع السلطان بعد ان غُلب على امره في ميداني السياسة والقتال الا القبول باضافة سوريا واقليم ادنه الى دائرة حكم محمد علي . وعلى اثر ذلك صدر خط شريف في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (٦ ايار سنة ١٨٣٣ م) قاضياً بتأييد حكم محمد علي باشا على مصر وكريت ومنحه الحكم على سوريا ومنطقة ادنه مع تجديد ولاية ولده ابراهيم باشا على جده وتلقيبه شيخ الحرم المكي[2] وجعل محصلاً لاقليم ادنة وفي ٢٤ ذي الحجة سنة ١٢٤٨ (١٤ ايار سنة ١٨٣٣) عقد اتفاق كوتاهية بين السلطان محمود ومحمد علي فوقعه البارون روسان

---

(١) Gouin PP. 424-425

(٢) Histoire de la Guerre de Mehemet-Ali contre la Porte Ottomane PP. 488-489

سفير فرنسا في الاستانة بالنيابة عن السلطان وابراهيم باشا بالنيابة عن والده وبمقتضى هذا الاتفاق الذي بني على اساس الخط الشريف تعهد محمدعلي بان يدفع عن سوريا الاموال التي كان يدفعها الولاة السابقون[1] وان يسحب جنوده من الاناضول الى البلاد التي وضعت تحت حكمه .

اما روسيا فاغتنمت فرصة ضعف تركيا واستيائها من انكلترا وفرنسا لاحجامهما عن نجدتها والحاحهما عليها بالتسامح مع محمد علي فعقدت معها في ٨ تموز سنة ١٨٣٣ معاهدة « خنكار اسكله سي » التي تعد بمثابة بسط الحماية الروسية على المملكة العثمانية كما يتضح من المادة التالية[2] :

« انه نظراً لشدة رغبة جلالة امبراطور الروسيين في استمرار »
« وثبات الدولة العثمانية مستقلة استقلالاً تاماً يتعهد جلالته ان يقدم »
« للباب العالي عند الحاجة للدفاع عن الاملاك العثمانية براً وبحراً الجنود »
« والقوات التي يرى الفريقان المتعاهدان انها لازمة لذلك . »

واضيف الى هذه المعاهدة مادة سرية هذه ترجمتها :

« بمقتضى احدى فقرات المادة الاولى من المعاهدة الدفاعية الحاضرة المنعقدة بين الحكومة الامبراطورية الروسية والباب العالي يتعهد الفريقان المتعاقدان تعهداً متبادلاً ان يقدم كل منهما للآخر معونة جوهرية

---

(١) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ١ ص ٣٠

(٢) Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottomane, Par Nauradounghian, PP. 229-231

ويساعده اشد مساعدة على صيانة ممتلكاته . لكن نظراً لرغبة جلالة امبراطور الروسيين في عدم تكليف الباب العالي العثماني القيام بالنفقة او تجشم المشقة بسبب تقديم المعونة الجوهرية فان جلالته لا يطالب الباب العالي العثماني بتقديم تلك المعونة فيما لو قضت الاحوال بتقديمها طبقاً لتعهداته انما بدلاً من المعونة المكلف بالقيام بها عند الحاجة طبقاً لمبدأ التبادل المنصوص عنه في المعاهدة يحصر الباب العالي عمله لمصلحة الحكومة الامبراطورية الروسية في اقفال بوغاز الدردنيل اي في ان لا يسمح لاية سفينة حربية اجنبية ان تدخله باية حجة من الحجج »

فهذه المعاهدة الشديدة الضرر بالدول الاوربية وبالدول البحرية منها خصوصاً اثارت غضب واحتجاج تلك الدول وزادت انكلترا تشدداً في سياستها المضادة لمحمدعلي لتجتذب تركيا نحوها[1] وتبعدها عن الروسية واتحدت فرنسا معها على مقاومة السياسة الروسية .

---

(1) The present State of The Turkish Empire, P. 333

حكومة محمد علي في سوريا

بعد عقد معاهدة كوتاهية انسحب ابرهيم باشا بجيوشه من الاناضول الى البلاد التي تقرر ضمها الى حكومة محمد علي وتولى منصبي الحاكم العام والقائد العام فيها لكنه وجه جل اهتمامه الى الشؤون العسكرية فجدّ في العمل لتأمين الحدود واقرار الامن والسكينة في البلاد ورمم اسوار عكا وحصن الحدود الشمالية تحت مراقبة مهندسين اوربيين لصدّ هجوم الاتراك فيما لو حدثتهم نفوسهم ان يسترجعوا سوريا · ووزع جيشه الذي كان يبلغ نحو سبعين[1] الف مقاتل في جهات مختلفة من سوريا انما جعل معظمه في شماليها لاجل حماية الحدود كما انه جعل مقره العام في انطاكية مراعياً في اختياره اياها دون سواها موقعها[2] الحربي وجودة هوائها وكثرة العلف[3] في جوارها هذا فضلاً عن قربها من مصدر الخطر التركي الذي كان لا بدّ له من السهر على مراقبته بنفسه · وزيد جيشه في ما بعد حتى بلغ نحو خمسة وثمانين الفاً هـذا ما عدا المتجندين الحديثين من سوريا · فوزعه في البلاد السورية كما يلي[4] :

---

(١) F. Perrier p. 103
(٢) Paton, Vol. 2, p. 115
(٣) Paton, Vol. 11, p. 115
(٤) Clot-Bey, Vol. 2, pp. 230-231

جنود نظامية

موقع	جنود مشاة	فرسان	مدفعية	مهندسون	الجملة
ادلب	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٧٥٨	٠٠٧٥٨
أدنه	٥٨٠١	٠٦٧٨	٠٠٠٠		٠٦٤٧٩
أنطاكية	٣١٣١	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠٣١٣١
أورفا	٦٩١٩	١٦٣١	٠٠٠٠		٠٨٥٥٠
حلب	١١١٨٢	٠٠٠٠	١٩٤٩		١٣١٣١
حماة	٠٢٩٢٥	٠٠٠٠	١٣٧٢		٠٤٢٩٧
حمص	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٩٨٢		٠٠٩٨٢
داريا	٠٢٥٥٥	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠٢٥٥٥
دمشق	٠٠٠٠٠	١٤٨٢	١٠٠٧		٠٢٤٨٩
طرابلس	٠١٦٤١	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠١٦٤١
طرسوس	٠٠٠٠٠	١٤٠٤	٠٠٠٠		٠١٤٠٤
عكا	٠٢٠٤٩	٠٧٦٨	٠٣٣٧	٠٨١٢	٠٣٩٦٦
عينتاب	٠٧٦٢٥	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠٧٦٢٥
القدس	٠١٧٥٥	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠١٧٥٥
كلس	٠٤٩٢٦	٠٧٥٦	٠٠٠٠		٠٥٦٨٢
اللاذقيه	٠٠٠٠٠	٠٧٩٦	٠٠٠٠		٠٠٧٩٦
مرعش	٠٥٢٣٨	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠٥٢٣٨
مع القائد العام	٠١١٥٢	٠٠٠٠	٠٠٠٠		٠١١٥٢
	٥٦٨٩٩	٧٥١٥	٥٦٤٧	١٥٧٠	٧١٦٣١
جنود غير نظامية	٠١٩٣٥	٩١٨٤	٠٠٠٠	٠٠٠٠	١١١١٩
	٥٨٨٣٤	١٦٦٩٩	٥٦٤٧	١٥٧٠	٨٢٧٥٠

التقسيم الاداري

والتشكيلات الجديدة

كانت سوريا قبل ان يستولي عليها ابراهيم باشا مقسمة الى اربعة اقسام كبرى وهي ايالات حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وكانت القدس ويافا وغزة غير داخلة في هذا التقسيم[١] · غير ان الوزير الذي كان يتولى الحكم على ايالة صيدا كان يبسط سلطته احياناً على البلدان المذكورة وعلى ولاية طرابلس الشام وهكذا كانت الحال لما زحف ابراهيم باشا بجيشه على سوريا فان عبد الله باشا والي صيدا كان متولياً ادارة ايالة طرابلس الشام ومتسلطاً على بلاد فلسطين حتى برّية سينا[٢] · وكانت حكومة الاستانة المرجع الاعلى لحكام البلاد السورية · اما بعد استيلاء ابراهيم باشا على سوريا وانضمام كيليكيا اليها فأصبحت حكومة محمد علي في القاهرة المرجع الاعلى لحكومة سوريا وكيليكيا · ووُضع تشكيل اداري جديد لحكومة البلاد فجُعل ابراهيم باشا حاكماً عاماً وقائداً عاماً كما ذكرنا قبلاً وضمت عكا وسائر بلاد فلسطين حتى برّية

---

(١) Perrier, F, pp. 1 & 15-30

(٢) كان عبدالله باشا يمضي المراسيم « السيد عبدالله والي صيدا وطرابلس ومتصرف لوا غزه والرملة والقدس والخليل ونابلس وجنين » · انظر مجموعة جامعة بيروت الاميركية عن تاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا لسنة ١٢٤٧ هـ.

سينا الى ولاية الشام وفي خريف سنة ١٨٣٢ عُين شريف باشا احد اقارب محمد علي حاكماً عليها وأُطلق عليه لقب «حكمدار عربستان» لانه في اثناء السنين الاولى كان يتولى ادارة الايالات السورية جميعها وكان ابراهيم باشا قد فوّض الى كاخية منيب افندي ادارة شؤون الحكومة في عكا عند استيلائه عليها فاستبدله في رمضان سنة ١٢٤٩ = كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٣٤ بالشيخ حسين عبد الهادي من زعماء نابلس وجعله تابعاً لشريف باشا [١] . اما المدن الساحلية وهي صور وصيدا وبيروت وطرابلس فكان ابراهيم باشا قد وجه متسلمين اليها عند فتحها في كانون اول [٢] سنة ١٨٣١ ثم عاد في تشرين اول سنة ١٨٣٢ ففوّض ادارة شؤون بيروت وصيدا وصور الى الامير بشير شهاب حاكم جبل لبنان فولى عليها متسلمين من اقاربه [٣] لكن عند اجراء التشكيلات الجديدة بعد عقد الصلح بين السلطان محمود ومحمد علي رفع سلطة الأمير بشير عن السواحل وعين متسلمين اختارهم بنفسه . ولم تبق التشكيلات الأدارية على حال واحدة في اثناء قيام حكومة محمد علي في سوريا بل ان كثرة الاضطرابات واتساع دائرة الاعمال اوجبتا مراقبة الامور مراقبة شديدة لا يقوى عليها حاكم واحد . فوُلّي سليمان باشا الفرنساوي على ايالة صيدا التي كانت قد سلخت عنها عكا وجعل مقره مدينة صيدا .

---

(١) حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا ج ١ ، ص ٢٠٨ . Perrier pp. 52-54.

(٢) حروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ، ص ١٤

(٣) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ، ص ٢٠٣ و ٢٠٤

وسليمان باشا كان أليق رجال ابراهيم باشا لهذا المنصب لانه كان اكثرهم اهلية لتنشيط التجارة واوسعهم خبرة بمعاملات الاجانب الذين كانت بيروت مركز قناصلهم وكان فيها اكثر واكبر بيوتهم التجارية . اما حلب فولي عليها في سنة ١٨٣٨ اسماعيل بك احد ابناء عم ابراهيم[١] باشا . وعين احمد منكلي باشا حاكما على ادنه[٢] وبعد انتقاله منها خلفه خورشيد باشا[٣] . فبعد ذلك بقي شريف باشا متوليا على ايالة الشام والبلاد الفلسطينية بما فيها عكا . اما توليته في بادىء الرأي على جميع البلاد السورية فواضح من تلقيبه « حكمدار عربستان » ويعززها الاوامر الصادرة منه الى انحاء مختلفة من الايالات السورية والنصوص الواردة في تآليف بعض المعاصرين كنوفل نوفل وغيره . فقد قال نوفل في كتابه « كشف اللثام عن محيا الحكومة والاحكام » ص٤٩٣ : « ان جريدة ضبط مجالس المشورة كانت ترسل الى الشام ليراجعها يوحنا بك[٤] البحري » . وهذا يدل على ان الشام كانت مركز الادارة العامة حينئذ .

وقال في الصفحة نفسها ما هو اكثر من هذا صراحة وهو : « ونصب لكل بلدة متسلما من اهل الاسلام ومرجع الكل هو مركز الحكم

---

(١) Perrier, F. p. 53

(٢) Paton, Vol. 2, pp. 115-116

(٣) Perrier, p. 54

(٤) مخطوطة نوفل . ومخطوطة مشاقة ص ٢٠١

العمومي الذي في الشام وفيها يقيم الحكمدار العام الذي هو شريف بك خزينة دار محمد علي باشا سابقاً[١] ······ وكذلك مدير الحسابات الذي هو الخواجه يوحنا بحري وهو بمنزلة دفتر دار عموم ايالات سوريا واخيراً صيره مير لواء وصار يدعى بحري بك » . وقال معاصر آخر :
« وفي ٩ جماد الثاني (١٢٤٩) حضر كتاب من شريف بك في حلب »
« الى الامير بشير الشهابي ان يأمر بعدد اهالي جبل لبنان ويتحرر »
« دفاتر بأسامي كل مقاطعة بيان قراها وتقسم على عشر مراتب كل »
« مرتبة فئة معلومة على قدر احتمالها بوجه العدل وتختم الدفاتر من مشايخ »
« القرى وبعده تختم من امراء المقاطعة وترسل الى عنده[٢] . »

المتسلم : وكان لكل مدينة متسلم يتولى ادارة اعمال البلد ومراقبتها ويقوم في احوال كثيرة بالاعمال التي يقوم بها قضاة الصلح والمجالس البلدية[٣] .

المباشر : كان بمثابة امين سر المتسلم ويتولى ايضاً وظائف الصراف او مدير المال وادارة حسابات المدينة واموال الفريضة والميري . وكان المباشرون عادة من المسيحيين لانهم كانوا اكثر من سواهم خبرة بالاعمال الحسابية[٤] .

---

(١) مخطوطة نوفل
(٢) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا الاناضول ج ١ ص ٣٤
(٣) Perrier, p. 56
(٤) P. 57 .

ديوان المشورة[1] : وأُلِف في كل مدينــة عدد سكانها من عشرين الف نفس فما فوق مجلسٌ سُمي « ديوان المشورة » عدد اعضائه يتراوح ما بين ١٢ و ٢١ عضواً مراعــين في ذلك عدد السكان وكان هؤلاء الاعضاء ينتخبون من بين اعيان البلد وكبار تجارها ويمثلون جميع المذاهب ففي دمشق مثلاً كان هذا المجلس مؤلفًا من واحد وعشرين عضواً من المسلمين والنصارى واليهود[2] ورئيس هذا الديوان كان من اهل البلد ايضاً . ولم يكن هذا المجلس خاضعاً لسلطة المتسلم او حاكم البلد . وفي بيروت كان مؤلفًا من اثني عشر عضواً وقد ورد وصف ديوان المشورة باسهاب فيـ كتاب حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ١ ص ٣٧ و٣٨ وهو :

« في ١٤ رمضان (١٢٤٩ هـ) امر ابراهيم باشا بصير ديوان مشورة في بيروت وجعل اثني عشر رجل من اكابر بـيروت اصحاب فطنة والمتسلم لا يبدي بشيء الا بما يبرز به الحكم من ديوان المشورة بموجب كتاب منه الى ارباب الديوان المذكور وهم ستة اسلام : عبد الفتاح حماده ناظر المجلس وعمر بيه (بيهم) احمد العريس حسن البربير امين رمضان احمد جلول وستة نصارى وهم جبرايل حمصي بشاره نصر الله الياس منسا ناصيف مطر يوسف عيروت موسى بطرس وترتيب

(١) Perrier p. 57-59 ومذكرات تاريخية ص ٥٦ و ٥٧ وحروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٣٨

(٢) مذكرات تاريخية ص ٥٦

الديوان المذكور (١) تعيين وقت معلوم كل يوم الى حضور ارباب المجلس وعند حضورهم يحرر الكاتب اسماءهم بقائمة برتبة حضورهم لا برتبة مقامهم (٢) الكاتب يحرر كل يوم الاشغال الموجودة عنده وحين يحضروا ارباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم الى يوم (٣) اذا كانت هذه الاشغال لا تنتهي في ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثاني يوم قبل الوقت المعين بزمان كاف لنهيها (٤) الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تتقيد في اعماله بل في اليوم الذي تنتهي فيه (٥) حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خبير بها من ارباب الديوان قبل الجميع وبعده يأخذ رأي الباقي بحيث لا يبقى احد بدون تكلم واذا وجد واحد من ارباب المجلس تكلم مع آخر في حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب اولاً وثانياً فان ما افاد فيحرر في مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل احاديث خارجة عن المصلحة والكاتب لازم يحرر كما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شيء وكما يتقرر يكون مكتوباً ولا يتحرر الا الذي موافق الحق (٦) بعد نهاية المجلس وتمام (رؤية) المصالح التي نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحررها الكاتب بمسودة وثاني يوم يبيضها ويوجهها لمحلاتها وبعد ذلك تتقيد في عمل المجلس وهذه الخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم للمجلس لكي بعد نهايته يقرأها بأعلا (صوته) بحضور الجميع فان استحسنوا رأياً اوفق من الذي تقدم

فيغيروا الخلاصة وتتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة وبعد القيد تصل الى صاحب الامر لكي يشرح عليها الى اصحابها آمراً باجراء ما يتضمن من الحكم واذا (ما) كان سعادة الحاكم دار موجوداً فيشرح من طرف متسلم آغا (٢) الكاتب يمسك دفترين الواحد الى صورة المجلس المتضمنة التقرير والآخر الى الخلاصات من بعد ختمهم ويلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس ايضاً »

وكانت قرارات مجالس المشورة في المدن الصغيرة تستأنف عند الاقتضاء الى مجلس مشورة عكا او مجلس مشورة دمشق واذا اقتضت الحال تميز قرارات هذين المجلسين الى القاهرة . على انه لم يرو انه حدث اي تمييز[1] .

ومن التغييرات الادارية التي احدثتها حكومة محمد علي القضاء على الحكم الاقطاعي وجعل اصحاب الاقطاعات في بادىء الرأي موظفين برتبات مقررة لا تساوي عشر ما كانوا يستولون عليه من اقطاعاتهم وتدرجت من ذلك الى عزلهم وتولية سواهم في اماكنهم — هكذا عاملت الامراء بني الحرفوش في بعلبك والامراء آل شهاب في بلاد حاصبيا وراشيا[2] وكذلك زعماء فلسطين وغيرهم .

على ان هذه التنظيمات رغماً عما لها من حسن المظهر ومع ما في

---

(١) Perrier, p. 58

(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٧١

وضعها من حسن القصد ادى تطبيقها الى خلل في الادارة واجحاف شديد بحقوق الاهلين لان الحكام كانوا يجهلون او يتجاهلون حدود سلطتهم فاتسع المجال للفوضى الادارية والاستبداد نظراً لتجاوز كل منهم حدود وظيفته واعتدائه على سلطة غيره وقيامهم باعمال متناقضة وهذا ما يحدث عادة عن قلة الاختبار عند تطبيق النظامات الجديدة · انما اشد اسباب الشكوى نشأ عن فساد العمال واستبدادهم بالرعية من امثلة ذلك ان شريف باشا حكمدار عربستان كان صارماً مستبداً مولعاً بجمع المال بطرق[١] غير مشروعة وحملته قرابته لمحمد علي على الظن انه لا يحاسب على ما يفعل · وكان اسماعيل بك حاكم حلب محباً للمال احتكر لنفسه الاتجار باللحوم والفواكه والبقول وما شاكل ذلك · وكان يستثمر بعض الاراضي الزراعية ويبيع محصولاتها للتجار بالمزاد ولا يسمح لغير الذين اشتروا منه ان يبيعوا ما عندهم من جنس محصولاته الا بعد ما يفرغ الذين اشتروا منه من بيع[٢] ما اشتروه

ويقال ان حنا بك بحري واخوه جرمانوس الذي كان يتولى ادارة اموال وحسابات ولاية حلب لم يكونا اكثر نزاهة ورفقاً بالاهلين من شريف باشا واسماعيل بك · وكان حنا بك يتخذ مختلف الوسائل ليزيد دخل الخزينة وينال الحظوى لدى محمد علي وابراهيم باشا من ذلك

F. Perrier, pp. 52-53 (١)

« pp. 53-54 (٢)

انه كان يلزّم بعض الاصناف التجارية في المدن كاللحم والبقول وغيرها باسعار عالية ويسمح للملتزمين بيعها باكثر من ضعفي ثمنها فتربح الخزينة والملتزمون ارباحاً فاحشة كما يخسر الاهلون خسارة جسيمة لغلاء لوازم معيشتهم[1] . وكان جرمانوس يحذو حذو اخيه في سياسته المالية ويشارك اسماعيل بك حاكم حلب في ابتزاز الاموال[2] وكان المباشرون يقتدون بمن تقدم ولم يكونوا مكلفين بتقديم ضمان مالي يخشون فقده فيما لو اختلسوا الاموال كما ان مرتباتهم كانت صغيرة لا تكفي لسد حاجاتهم واعاشة عائلاتهم فالحاجة والفساد الاداري المنتشرة بين عمال الحكومة على اختلاف طبقاتهم كانت تدفعهم الى اتخاذ اساليب مختلفة لكسب المال بطرق غير مشروعة . ووجود ديوان المشورة لم يَحُل دون وقوع المظالم بل كان هو نفسه مصدراً لكثير منها .

على انه لا يسع المنصف الا الاعتراف بان المبادىء التي شاء محمد علي ان يؤسس عليها الادارة والقضاء في سوريا كانت صحيحة بوجه عام لانها كانت ترمي الى تنظيم الاعمال وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة ومنع الاستبداد بتقييد الحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية وتدريب الاهلين على ادارة شؤونهم المحلية غير ان جهل الحكام كيفية تطبيق القوانين وفطرتهم الاستبدادية وعدم وجود

---

(١) F. Perrier pp. 54-56

(٢) « p. 56

مراقبة فعالة على اعمالهم وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها وكثرة الاضطرابات في البلاد حالت دون بلوغ الغايـة التي وضعت تلك القوانين من اجلها ولابراهيم باشا فضل خاص في السنين الاولى بعد الفتح في ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهلين وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على اهل البلاد او عدم النزاهة او غير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة[1] فلو استمرت حكومة محمد علي في سوريا ناهجة هذا المنهج القويم الحكيم لملكت قلوب السوريين .

---

(١) مجموعة جامعة بيروت الاميركية لسنة ١٢٤٨ هجرية

القضاء

كان القضاء العثماني في سوريا قبل عهد محمد علي مستمداً من الشرع الشريف وكان النظر في القضايا الجزائية من اختصاص الباشا او كاخيته (كتخداه) اما القضايا المدنية فكان النظر فيها من اختصاص القاضي . وكان العدل في الاحكام يتوقف على نزاهة القاضي او الحاكم على ان كفة العدل كانت راجحة . ومن مزايا المحاكمات في ذلك العهد هو ان المرجع المختص بها كان معيناً تعييناً جلياً يعرفه الخاص والعام مقترناً ببساطة الاجراآت وقلة النفقات وسرعة الحكم والتنفيذ . اما حكومة محمد علي في سوريا فوضعت انظمة جديدة مشابهة بوجه عام لانظمة بعض البلدان الاوربية وابقت على القضاء الشرعي مراعاة لشعور الشعب الاسلامي . وهكذا تعددت السلطات وتوزعت الاعمال القضائية ما بين الحاكم والقاضي المنفرد والمحاكم وديوان المشورة وكانوا جميعاً قليلي الاختبار بالاعمال التي انتدبوا للقيام بها والقوانين التي عهد اليهم العمل بموجبها كما ان المتقاضين حاروا ما بين هذه المراجع المختلفة بل ان اصحاب الاختصاص انفسهم كانوا يخطئون في تعيين المسائل التي يعود اليهم حق النظر فيها ويتعدون حدود سلطتهم فكثر الارتباك في دوائر القضاء بسبب غموض بعض النصوص وحداثة عهد النظام وقلة اختبار

القائمين بتطبيقه ·

اما بوجه عام فقد كان اختصاص السلطات القضائية كما يلي :—

كان في كل مدينة قاض ينظر في القضايا الجزئية كالمنازعات المحلية والمعاملات التجارية ويتولى التصديق على عقود البيع والهبة وما شاكل ذلك ويتقاضى رسماً للتصديق قدره ما بين واحد واثنين وربع في المئة من قيمة العقار المسجل[١] ·

اما القضايا الكبرى فكانت تنظر في المحاكم المؤلفة من قاض وعضوين او اكثر وكان لكل محكمة كاتب لتسجيل احكامها · اما المرجع الاستئنافي فكان قاضي القضاة[٢] · وكان الحكم بالاعدام من اختصاص كبار الحكام كشريف باشا وسليمان باشا وخورشيد باشا وكان هؤلاء يرسلون الاحكام عادة الى ابراهيم باشا لاجل التصديق وفي بعض الاحوال كانوا ينفذونها قبل التصديق عليها منه[٣] · وكان الجزاء التأديبي الضرب بالعصي وكان لصغار المأمورين وشيوخ البلدان سلطة الحكم بالضرب وكثيراً ما كان هؤلاء يسيئون استعمال هذه السلطة في الحكم والتنفيذ[٤] ·

اما دواوين المشورة فقد ذكرنا قبلاً طريقة اجراآتها اما اختصاصاتها

Perrier F. p. 64 (١)

Perrier, p. 65 (٢)

Perrier, p. 66 (٣)

Perrier, pp. 50-67 (٤)

فقد ذكر عنها نوفل نوفل ما يلي : — « ان القاعدة الاساسية في تلك المجالس هي مراعاة صوالح الميري وقلما تداخل في غير ذلك من الدعاوى التي لا علاقة لها في الاموال الاميرية وليس لاحد غير الاعضاء حق الدخول اليها ليسمع المفاوضات والمذاكرات التي تجرى فيها ٠٠»

« وفي هذه المجالس كانت تسمع دعاوي الاراضي واموال الاطيان المرتبة على الفدن و يبحث فيها عن ضائعات الميري وعائدات القرى وتعطى المقاطعات والاقلام الالتزامية والرسوم الميرية بعد ان يقر مزاد بدلاتها على الراغبين ومنها ما كان من البدع المكروهة التي تشمئز نفوس الاكثرين منها ومن استماع دعاويها كقلم الخمارات وغيرها[1] » ٠٠٠٠٠

« وكانت المذاكرات التي تحصل بين الاعضاء تكتب في جريدة بالضبط تحت اسم المتكلم وفي رأس كل شهر ترسل تلك الجريدة الى الشام ليراجعها يوحنا بك البحري و ينقحها واذا وجد فيها رأياً متقدماً من احد الاعضاء مخلاً بفائدة الميري اعترض عليه وضمن الخسارة لصاحب ذلك الرأي لكن لم يقع من ذلك الا ما ندر للغاية اذ ان هذه القاعدة اوجبت الاعضاء بان يستوفوا للميري فوق حقوقها ولو اضر ذلك بالاهالي واجحف بحقوقهم[2] »

---

(١) مخطوطة نوفل ص ٤٩٢

(٢) مخطوطة نوفل ص ٤٩٣

المالية

ان الفوضى كانت سائدة على مالية السلطنة العثمانية من دخل وخرج سيادتها على غير ذلك من الشؤون لان الانظمة لو وجدت لما امكن العمل بموجبها الا بطريقة عامة لعجز حكومة الاستانة عن تنفيذ اوامرها ونظاماتها في الولايات البعيدة كالولايات السورية فقد كان ولاة صيدا مثلاً كأحمد باشا الجزار ثم عبد الله باشا الخزندار يسيرون الامور في البلاد التي يحكمونها حسبما شاءت اهواؤهم ومطامعهم[1] ومع ان الضرائب المفروضة على بلاد السلطنة كانت انواعها ومقاديرها مقررة بوجه عام وهي مال الميري والجزية والرسوم الكمركية — واحياناً كانوا يلجأون الى احتكار بعض الاصناف — فان الولاة لم يقتصروا على ذلك بل كانوا يكلفون الافراد والجماعات دفع اعانات مختلفة يتحملون لابتزازها شتى[2] الاسباب . وهذا جبل لبنان مع ما كان له من الامتياز الخاص فيما ان حاكمه كان يتلقى خلعة الولاية من والي صيدا كان اهله يكلفون ما يفوق طاقتهم دفعه من الاموال ويسامون صنوف العذاب في تحصيلها . فالتولي على لبنان كان موضوع التنافس بين الامراء وعرضة للمساومة بينهم وبين والي صيدا . فلما وقع التنافس بين الامير بشير الكبير وبين

---

(١) Correspondence d'Orient, T. 4, p. 139

(٢) Perrier, p. 94

طالبي الولاية من اقاربه أكره الامير على التنحي عن الولاية للاميرين قعدان وحيدر شهاب لكن بعد حين رضي عنه الجزار وارجعه الى الولاية « بعد ما اخذ رهينة على المال ابنه قاسم » الخ لكن « بعد مدة ايام ظهر ابنا الامير يوسف وكاخيتهم جرجس باز ونزلوا لعكا ... فلبسهم الباشا حكام بالجبل ..... واستقاموا حكاماً اياماً . ومن طمع الباشا رتب عليهم مالاً كثيراً وقبلوا فيه غصباً وصار طلب الغرش من الناس بما يفوق الاحتمال . فمن اتصال الطلب هاجت العامة وطردوا اولاد الامير يوسف ورجعوا الامير بشير [1] »

على انه لم يمض زمن طويل حتى عزل الامير بشير وأعيد ابنا الامير يوسف الى الحكم « تحت مال معلوم » « واخذ جرجس باز يفرض المال على الناس من مشايخ وعامة ومطارنة ورهبان حتى ما بقي احد سالم من دفع غرش حتى من الغربية (الاجانب) وكل مدة يجيد طلب وشيء ماله نهاية [2] » . اما حكومة محمد علي فقضت على هذه الفوضى لكنها لم تخفف عن عواتق الاهلين الاثقال المالية بل اضافت الى الضرائب التي كانت تجبى قبلاً ضرائب جديدة وهي الفردة والدخوليات واحتكرت محصول الحرير واوجبت دفع الاموال الاميرية عن الاملاك الموقوفة مع انها كانت معفاة منها في عهد العثمانيين [3] ومع انها الغت

---

(١) حوادث الشام ولبنان ص ٦٥

(٢) المؤلف نفسه ص ٦٦

(٣) Perrier p. 95

الاعانات التي كان يتقاضاها الحكام العثمانيون فان الالغاء لم يكن الا اسمياً لانها اضافت الى مال الميري الاصلي جميع ما كان يبتزه الموظفون والملتزمون في العهد العثماني كما سنبين ذلك في الفصل التالي[1] . وعدا الضريبة العامة على العقار كانت حكومة محمد علي تجبي مالاً خاصاً عن الاشجار كالتوت والزيتون وغيره من الاشجار المثمرة تقدر بخمسة بالماية من دخلها في سنة معتدلة الاقبال وكانوا يحسبون ذلك بان يفرضوا على كل ارض مشجرة مسطحها خمسون قدماً قرشين ونصف يضاف الى ذلك بارتان عن كل قرش .

وكانت المغروسات الجديدة من هذه الاشجار تفرض عليها الضريبة من وقت غرسها اي كانوا يتقاضون الضريبة عن بعضها كالزيتون مثلا قبل ان يثمره صاحبه ببضع سنين . وهذا ما حمل كثيرين من الناس على العدول عن غرس الاشجار المثمرة[2] .

الفِردة او الفرضة هو ما فرضته حكومة محمد علي باشا على الذكور من مختلف المذاهب البالغين من العمر من خمس[3] عشرة سنة الى ستين سنة وكانت قيمتها ١٢ بالماية من دخل المكلفين ولهذا كان يختلف مقدارها بحسب اختلاف درجات دخل المكلفين انما كان لها حدان أعلى وأدنى فلا تزيد عن خمساية قرش على المكلف المثري ولا تنقص عن خمسة عشر قرشاً على المكلف الفقير . وقد شذت حكومة محمدعلي عن

---

(١) مخطوطة نوفل - مجلة الكلية نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٢٦ ص ٤٧
(٢) Perrier, p. 96 (٣) وقيل اثني عشرة سنة

هذه القاعدة في سنة ١٨٣٩ حينما اضطرت الى المال بسبب تجدد الحرب مع السلطان محمود فضاعفت مقدار هذه الضريبة وجمعتها عن سنتين دفعة واحدة ·

وقد كانت الفردة من اهم مصادر الدخل لخزينة محمد علي في سوريا وكان يقوم بتقديرها وتوزيعها على طبقات المكلفين ديوان المشورة لكن كانت الشكوى كثيرة من المحاباة في التوزيع · وتضاعفت الشكوى اذ اخذ عدد المكلفين بالتناقص بسبب الوفيات والتجنيد والمهاجرة لان الرجال الباقين في البلدة او المقاطعة كانت تكلفهم الحكومة دفع ما كان مفروضاً على المتوفين والغائبين[1] · اما اذا زاد عدد المكلفين في بلدة ما فكانت تزاد الضريبة بنسبة زيادة العدد · وكان يعفى من دفع الفردة رجال الدين والموظفون الملكيون والعسكريون كما ان الجنود لم يكونوا مطالبين بدفع الفردة في اثناء تجندهم غير ان اهلهم او مواطنيهم كانوا يكلفون بدفعها عنهم[2] ·

رسوم الكمارك والدخوليات : كانت الرسوم الكمركية التي تستوفى من الاجانب اقل كثيراً من الرسوم التي تستوفى من رعايا الحكومة المحلية[3] على ان اللوم في ذلك لم يكن واقعاً على حكومة محمد علي بل على الحكومة العثمانية التي خوّلت الاجانب الامتياز على رعاياها بمقتضى

---

(١) Laurent, T. I, p. 15

(٢) Perrier, pp. 99-101

(٣) Thornton, Vol. 2, p. 15

معاهداتها مع الدول الاجنبية . فبمقتضى تلك المعاهدات كان يدفع الرعايا الاجانب رسوماً كركية قدرها من نصف الى واحد بالماية عن الاصناف المذكورة في التعريفة وثلاثة بالماية عن الاصناف الغير مذكورة فيها . اما الرعايا المحليون فكانوا يدفعون اضعاف ذلك مراراً في عهد الحكومة العثمانية تخفضها محمد علي الى اربعة بالماية عن جميع البضائع المذكورة في التعريفة وغير المذكورة فيها[١] .

وكانت تجبى مثل هذه الرسوم عند ارسال البضائع من مدينة الى مدينة في داخل البلاد ويكلفون فوق ذلك دفع رسوم مختلفة كرسم التسريح مثلاً فتصبح جملة الرسوم التي يدفعونها من ٦٪ الى عشرة في الماية بل الى ١٢ بالماية . بينما جملة ما كان يستوفى من الاجانب في مثل تلك الاحوال لم يكن ليتجاوز ٣٪ بالماية[٢] . على انه كما ذكر قبلاً كانت معاملة التجار الوطنيين من جهة الرسوم في عهد محمد علي افضل منها في عهد الحكومة العثمانية حيث كان يبلغ مجموع الرسوم ما بين ١٨ و ٢١ بالماية ولهذا عجز التجار الوطنيون عن مجاراة التجار الاجانب وعمد كثيرون منهم الى الاتجار باسم التجار الاجانب ليتخلصوا من الرسوم الباهظة وكانوا في مقابل ذلك يدفعون لاولئك الاجانب مبلغاً قدره ٣٪ او اربعة بالماية من قيمة بضائعهم[٣] .

---

(١) perrier, p. 78

(٢) pertier p. 78

(٣) perrier, p. 86

رسم التسريح : وكان يستوفي رسم تسريح على المحصولات المحلية عند ارسالها من بلد الى آخر اما لاجل المقطوعية الخصوصية او للاتجار به . اما الاجانب فكانوا معفين من رسم التسريح اذا كانت المحصولات مطلوبة لاجل مصروفهم الخاص . وكان بعض موظفي القنصليات يسيئون استعمال هذا الامتياز فيطلبون مقادير كبيرة من المحصولات زاعمين انها لازمة لسد حاجاتهم فيستهلكون بعضها ويبيعون البعض الآخر[1] .

رسم الدخولية على الحيوانات[2] : ان الحيوانات التي تدخل المدن كان يستوفي عنها عند دخول المدينة رسوم دخولية قدرها عن راس البقر من ١٣ الى ٢١ قرشاً اذا لم يكن دخوله لاجل الذبح ومن ستين الى سبعين قرشاً اذا كان لاجل الذبح .

اما الغنم والمعزي والجمال فكانت تستوفى عنها رسوم سنوية .

الضريبة صنفاً (الشونة) : عدا مال الميري الذي كان يستوفى نقداً كان اهالي كل ناحية يكلفون تقديم بعض ما يلزم الجيش من حاصلاتهم كالحبوب والسمن والزيت الخ . وكانوا يكلفون نقل هذه الحاصلات الى اقرب شونة عسكرية من بلدتهم اما على دوابهم او على دواب يستأجرونها بمالهم . ولم يقف الحيف عليهم عند هذا الحد بل كانوا عند

---

(١) perrier, p. 102

(٢) perrier, p. 102

تسليم المقدار المطلوب منهم يجدونه ناقصاً لان الحكومة على ما يقال كانت تستعمل ميزانين ومكيالين مختلفين في الوزن والكيل . فالميزان او المكيال الكبير تتسلم بموجبه من الاهلين والصغير تستعمله عند ما يكون التسليم منها اليهم . وكان الفرق بين الاثنين نحو الربع . فبسبب هذه المعاملة الجائرة كان الملاك مكلفاً بتسديد العجز صنفاً او دفع ثمنه نقداً [١] .

دخل الخزينة وخرجها : ان حكومة محمد علي زادت الضرائب على السور بين زيادة فاحشة ففي جبل الشوف وتوابعه لا غير كانت الزيادة من مال « الفردة » فقط ١٠٩١٩٤٥٠٠ [٢] غرش لكن بالرغم عن ذلك لم يكن مجموع الدخل كافياً للقيام بنفقات الحكومة . على ان احوال سوريا حينئذ كانت شاذة وكان فيها جيش جرار اضطرت حكومة محمد علي لحشده لاخماد الثورات او لتكون على استعداد لصد هجوم العثمانيين اذا حاولوا استرجاع سوريا . فالعجز الذي كان ينشأ عن ذلك كانت تستورده الحكومة من خزينة مصر [٣] .

---

(١) perrier, pp. 104-105 .

(٢) مذكرات خصوصية للدكتور اسد رستم استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

(٣) paton, Vol. 2, p. 124 و perrier, p. 103

مظالم حكومة محمد علي

كثيرون من السوريين أملوا الخير من وراء تغلب حملة ابراهيم باشا على بلادهم لان من مزايا حكومة محمد علي العمل على اقرار الامن في البلاد[١] وانقاذها من الفوضى التي جعلت ارواح العباد واموالهم تحت رحمة الاقوياء والاشقياء كما ان ابراهيم باشا كان قد وعد السوريين بانه سيعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب[٢] ولا يكلفهم سوى دفع الاموال الاميرية . والاموال الاميرية لم تكن عبئاً ثقيلاً عليهم في عهد الحكومة العثمانية الا لما كان يرافقها من سوء المعاملة في التحصيل وابتزاز المبالغ الاضافية بحجج مختلفة[٣] . وكان ابراهيم باشا قد حقق بعض الآمال على اثر احتلال سوريا والشروع في ادارة احكامها فخفف عنهم الاثقال المالية[٤] واخذ ينشط الزراعة والتجارة فبدأ القوم يشعرون

---

(١) Wilkinson, Vol. II, P. 550

(٢) Mouriez, Vol. III, PP. 276-277 و Perrier, P. 359

(٣) Perrier P. 350

(٤) مجموعة جامعة بيروت الاميركية لسنة ١٢٤٨ هـ .

« افتخار الاماجد الكرام ذوي المجد والاحترام حرور زاده مصطفى اغا متسلنا بطرابلس الشام زيد مجده

بعد التحية والتسليم بمراسم الاعزاز والتكريم المبدي اليكم انه تحقق لدينا انواع المشقات التي تكبدوها الرعايا في ايام الولاة السالفين بكثرة التوزيعات التي تحصل منهم من مصارف الحكام وعوايد وغيره عدا عن اموال الاميرية ومن حيث ان الله سبحانه وتعالى قد اقتنم بادخالهم تحت ظل الاحكام المصرية فقد صار واجب فرض عين التشبث باستحصال راحتهم

بالطمأنينة والرخاء وبالاخلاص للحكومة الجديدة غير ان زمن الهناء والرخاء لم يطل . فقد ذكرنا في فصل سابق ان من اهم الاسباب التي حملت محمد علي باشا على الطموح الى الاستيلاء على سوريا هو رغبته بالانتفاع بما فيها من مال ورجال ولذلك لم ينقض زمن طويل على امضاء معاهدة كوتاهية وعلى الخطة الحكيمة التي كان ابراهيم باشا قد انتهجها في ادارة البلاد السورية حتى وردت عليه اوامر والده قاضية على آمال السوريين موجبة عليهم الخضوع للسياسة العسكرية والاقتصادية التي جرى عليها في القطر المصري . فالاوامر التي اصدرها محمد علي الى ولده ابراهيم باشا في اوائل سنة ١٨٣٤ اوجبت اجراء ما يلي [١] :

١ — احتكار الحرير في البلاد السورية

٢ — تحصيل «الفردة» اي فريضة الرؤوس من جميع الرجال على اختلاف مذاهبهم

٣ — التجنيد في البلاد الساحلية

وعدم تعرضهم لشيء هذه التوزيعات والعوايدات عنهم وابطالها بالكلية فيلزم منكم بوصول مرسومنا هذا الحكم تتلوه جهاراً بمجلس الشرع بحضور جميع الوجوه والاعيان ويكون معلوماً عندكم جميعاً عدى عن الاموال الميرية والمقننات العايده الى الخزينة من الان وصاعد لا تسمع ارادتنا بادنى توزيع ساليانه وعوايدات ومن بعد اشهار امرنا هذا بطرفكم تحرروا صورته حرفياً وترسلوه الى كافة الايالة لتصير معلوماً عندهم ذلك [ويداوموا] على تادية الدعوات الخيرية بدوام تأييد هذه الدولة العادلة المصرية مدا الدهور والايام فبناء على ذلك اصدرنا لكم مرسومنا هذا لتعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته اعلموه واعتمدوه »

الحاج ابرهيم

والي جده وسر عسكر مصر حالاً

(١) البهجة التوفيقية ص ١٠٥ و Nouriez, T. III, P. 244

٤ — نزع السلاح من ايدي اهل البلاد

ورغمًا عما لتنفيذ هذه الأوامر من سوء التأثير في عمران البلدان السورية وفي شعور السوريين نحو حكومة محمد علي ومع انها تناقض الوعود[1] التي كان قد قطعها ابراهيم باشا لاهل البلاد فانه لم يتردد في تنفيذ اوامر والده · والطاعة العمياء لمشيئة محمد علي كانت من اظهر صفات ابراهيم باشا[2] · وقد لامه بعض الكتاب على مضيّه في تنفيذ هذه السياسة في سوريا بدون ان يراجع والده في الامر و يلفت نظره الى ما فيه من المجازفة لان ابراهيم باشا كان قد اكتسب خبرة شخصية باقامته في سوريا واطلع على احوال البلاد وعرف عنها وعن اهلها ما لم يعرفه والده · فان السوريين كانوا يشكون من جور الحكم العثماني لتكاليف كانت اخف وطأة من تلك التي فرضت عليهم في عهده ولم يكن يخاف عليه ان من وقع بين شرّين يختار اهونهما وهو الميل الى الرجوع الى الحكم العثماني لاسيما ان الحكومة العثمانية وبعض الاوربيين وفريقًا من اهل البلاد كانوا يدسون الدسائس و يعملون على اثارة الفتن على حكومة محمد علي[3] · فلو اقام ابرهيم باشا على خطة الرفق في معاملة السوريين لازداد اخلاصهم للحكومة الجديدة وزال اهم اسباب الثورات وتمكن من الانتفاع برجال سوريا ومواردها الاقتصادية انتفاعًا مشروعًا.

(١) Soliman Pacha, P. 227

(٢) « « P. 228

(٣) Mouriez, T. III, P. 276 Clot-Bey, T. I, P. LXXVI

أكيداً لان السوريين بعد ما تذوقوا طعم السكينة في اول عهده صاروا يرون ان عود الحكم العثماني ليس لمصلحتهم . ولو لم تنقلب عليهم حكومة محمد علي وتحرجهم بما فرضته عليهم من التكاليف الثقيلة لما خرجوا عليها المرة بعد المرة بل لاصبحوا باسرهم جيشاً متطوعاً لمقاومة كل اعتداء على سوريا من جانب الحكومة العثمانية وللمحافظة على ما حصلوا عليه من بوادر الامن والرخاء . كما ان انتشار السكينة والطمأنينة في بلادهم كان مما يمكنهم من توسيع نطاق الزراعة والصناعة والتجارة فتنشأ عن هذا التوسيع زيادات عظيمة في الضرائب والمكوس لا يتذمر منها دافعوها متى اصبحوا يجودون بما يجدون . انه لمن المستبعد ان تكون امور كهذه قد خفيت على ابراهيم باشا وهذا ما يحملنا على التساؤل عن الاسباب التي منعته من محاولة اقناع والده بالرجوع عن سياسة جمعت بين الاجحاف بحقوق السوريين ونكث العهود التي كان قد قطعها لهم وهو ما يؤدي حتماً الى نفورهم من حكومته وعدم ثقتهم بـه . فمن رأي بعضهم ان اعتياد ابراهيم باشا اطاعة اوامر محمد علي اطاعة عمياء وشدة تيقنه بحزمه وبعد نظره انساه عهوده للسوريين وحجبا عن بصره الاخطار التي تعرض الحكومة لها بسبب نكث تلك العهود [1] . على ان الاقرب الى المعقول هو ان محمد علي لم يقدم على فرض التكاليف السالف ذكرها الا بعد الوقوف على رأي ابراهيم باشا وان كليهما كانا يريان ان من الحزم

---

(1) Soliman Pacha, P. 228

الاسراع في تقوية الجيش وحشد الاموال استعداداً للطوارىء[1] وان ذلك مما يستوجب تجنيد السوريين ومساواتهم باخوانهم المصريين في تأدية الضرائب والتسخير وما شاكل ذلك وعمدوا اولاً الى نزع سلاح السوريين ليبقوا كالطير المقصوص الجناح · واغترّ ابراهيم باشا بانتصاراته الباهرة على الجيوش العثمانية فاستصغر شأن السوريين · وبعد ما اتخذ له حزباً منهم توهم انهم لا يستطيعون جمع كلمتهم على المقاومة ولا يجرأون على الانتقاض على الحكومة متفرقين · كما ان ابراهيم باشا مضى في تنفيذ اوامر والده بالتدريج فلم يشرع في نزع سلاح اللبنانيين وتجنيدهم الا بعد ما فرغ من نزع سلاح غيرهم وتجنيده · ولما جاء دور اللبنانيين اوهم المسيحيين ان سيكتفي بنزع سلاح الدروز وهكذا استمال المسيحيين اليه لكنه ما كاد ينتهي من نزع سلاح الدروز حتى عمد الى نزع سلاح المسيحيين[2] فلم يبق هنالك شك في ان سياسة الرفق التي كان قد اتخذها في اول الامر لم تكن الا تدبيراً وقتياً غايته تخدير اعصاب السوريين الى أجل مسمى · على انه ثبت جلياً لمحمد علي لكن بعد خراب البصرة ان الشدة شر الوسائل لحكم الشعوب وان السوريين الذي استصغر شأنهم في بادىء الرأي كانت مقاوماتهم له من اشد العوامل تأثيراً في انهاك قوى جيوشه واتخذتها السياسة الاوروبية وسيلة لزعزعة اركان

---

(١) Clot-Bey, T. 2, P, 257

(٢) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ١ ص ٥٤ و ٥٥
Paton, Vol. 2, P. 120 -

حكومته . ويروى ان احدهم رآه يوماً قلق البال فسأله عما اذا كانت الدول الاوربية سبب بلباله فأجابه : « ماذا ؟ الدول الاوربية ؟ اني اضعها في علبة السعوط . انني اتألم من اولئك السوريين الاشرار الذين سيكونون سبباً لجيم وبلائي[1] » . على ان تذمر محمد علي من صعوبة مراس السوريين لا يذكر في جانب ما ذاقه هؤلاء من مرّ العذاب من حكومة محمد علي كما يتضح ذلك من اشباع الكلام عن المظالم والمغارم التي انزلتها عليهم .

احتكار الحرير : حينما بدأ محمد علي باحتكار التجارة بمحصولات البلاد وصناعتها في القطر المصري انتحل عذراً لذلك الاضطرار لحصوله على موارد تمكنه من انشاء الترع والمصارف العائدة منفعتها على الفلاحين لان تلك المشاريع لم يكن في الامكان القيام بها بطريقة منظمة الا بواسطة الحكومة . فلما عمد الى اجراء مثل ذلك الاحتكار في محصول الحرير في سوريا تبين فساد ذلك العذر لان السبب الذي ادعاه للاحتكار في مصر لم يكن موجوداً في[2] سوريا . فالاحتكار كان يوجب على الاهالي بيع محصولات ارضهم الى الحكومة بالثمن الذي يقدره عمال الحكومة نفسها وعدا ما كان في هذه الطريقة من الحيف في تقدير الثمن فانها كانت تحول دون تزاحم التجار والسماسرة على المشترى فتحرم الملاك والفلاح من الحصول على ثمن عال لمحصولاته وتثبط عزائم

(١) Mouriez, T. III, P. 304

(٢) Poujoulat, T. II, P. 543

المتعيين وتحرم السماسرة من الانتفاع برسوم السمسرة عما يشترون . فالربح الذي كان يجب ان يحصل عليه هذان الفريقان تسرَّب الى خزينة الحكومة التي شاركت الفلاح في تعبه وحرمت السمسار عملاً يقوم به . اما احتكار صناعة الحرير فعدا ما فيه من مزاحمة الحكومة للاهلين على ربح هم اولى به فانه يحول دون تنشيط المشاريع المحلية ويمنع المتمولين واصحاب العقول النيرة والهمم العالية من استثمار اموالهم وجهودهم .

الفردة والميري : ان الفردة كان لها تأثير سيء في نفوس المسلمين بنوع خاص[1] لانهم لم يعتادوا دفع مثلها قبلاً وكانت ثقيلة الوطأة بوجه عام لان ما كان يفرض منها على بلدة او مقاطعة كانت مكلفة بدفعه ولو نقص عدد الرجال[2] فيها فمن كان ذا عائلة فيها ثلاثة او اربعة شبان يكلف بالدفع عنهم جميعاً ولو مات بعضهم او كلهم اما بسبب المرض او في الحرب في سبيل الحكومة واذا عجز عن ذلك فبلده او المقاطعة التي ينتسب اليها توزع المبلغ المطلوب على الرجال الموجودين وهذه التكاليف كانت تزداد سنة فسنة على الذين يقومون بدفعها نظراً لازدياد عدد الغائبين والمفقودين موتاً او قتلاً او فراراً الى حيث لا تطالهم يد الحكام خوفاً من الحبس والضرب والتعذيب . وقد كان رجال الحكومة يعاملون الاهلين بمنتهى القسوة في تحصيل هذه الضريبة

(١) مذكرات تاريخية ص ٩٠-٩٢

(٢) Poujoulat, T. II, P. 341

وغيرها من الاموال · وزادت حكومة محمد علي على هذه المغارم تقدير الاموال الاميرية على الاملاك بطريقة جعلتها اشد وطأة على الملاكين مما كانت عليه في عهد الحكومة السابقة حيث لم تقتصر على تحصيل مال « الميري » فقط بل اضافوا اليه كل ما كان يبتزه الملتزمون والعمال المحليون واعتبروا المجموع مالاً اميرياً فعلى هذه الحالة ينطبق قول حافظ :

وقد كان فينا الظلم فوضى فهُذِّبت
حواشيه حتى صار ظلماً منظماً

وقد وصف نوفل نوفل الطريقة الجائرة التي كان يتبعها مندوبو الحكومة لتقرير الاموال الاميرية[1] · قال :

« واول عملية يلزمه اجراؤها عند وصوله هو ان يطوف بنفسه على القرايا قرية فقرية ومقاطعة فمقاطعة ويتحقق من الفلاحين عن مقدار ما كان يتناوله منهم الملتزمون من غلال ونقود وعن ميري ابقارهم وما يقدمون لهم من العوايد والرسميات والهدايا في المواسم والاعياد والافراح من كلي وجزئي لان المقاطعات كانت تعطى قبلاً الى ملتزمين تحت بدلات معلومة كما كان جارياً في مصر قبل حكومة محمد علي باشا · · · · واوهم الفلاحين ان قصد الحكومة من ذلك ابطال ما كان من تلك الاشياء ظلماً فترفعه عنهم وتحت هذا الظن والامل كانت الفلاحون يقررون عن كل شيء حتى عن ثمن حذوة حصان او عن ربطة شعر ماعز

(١) مجلة الكلية تشرين ثاني سنة ١٩٢٦ ص ٤٧

يكون قدمها احدهم للملتزم في احد السنين ليصلح بها غرباً او ليعملها عقالاً لدابة من دوابه ثم بعد ان يقيد هذا الباشكاتب كل هذه الاشياء بثمنها ويرسخ مقدار مجموعها بتمامه مالاً راتباً على تلك القرية يتحصل منها كباقي الاموال الاميرية في كل سنة...»

وقال ايضاً مشيراً الى ما تقدم:

« وندم الفلاحون غاية الندم على تقاريرهم اذ ما كان اخذه منهم الملتزم مرة في العمر مثلاً ترتب عليهم مالاً سنوياً وحزن الملتزمون على ما خسروه من سعة العيش ولذة السلطة والنفوذ في المقاطعات التي سلبت من اياديهم »

ومما زاد تعاسة الفلاحين وعجل في فقدان املاكهم هو ان العسر كان يدفعهم الى الاستدانة من مرابين قساة القلوب وبيع محصولاتهم مقدماً بنصف قيمتها الحقيقية فاذا امحل الموسم او لم يكف ثمنه لتسديد مطلوب المرابي يمدّد اجل الدين مضافاً اليه الربا الفاحش وينتهي الامر باضطرار الفلاح الى بيع املاكه لاجل تسديد ديونه ·

السخرة: وزاد الاهلين ضنكاً تسخيرهم وتسخير حيوانات النقل لاشغال الحكومة · فمن امثلة ذلك ما رواه نوفل نوفل ايضاً حيث قال:

« فلا يقدر احد من اية رتبة كانت من الاهالي في المدن فضلاً عن القرى ان يحمي دابته ويحافظ عليها ولو جعل معلفها داخل داره فان الضابط المسمى بالتفكجي له سلطان ان يخلع الابواب ويكسر

الاقفال ويفوت هاجماً الى الدار ويجرها قهراً جبراً ويركبها لاي عسكري او ضابط اراده ويكون صاحبها مجبوراً بان يستأجر لها رجلاً يرسله معها لاجل عليقها وليحضرها له عند انتهاء عملها والا لا دعوى له اذا ضاعت عليه وفي اكثر ايام السنة كانت تمتنع الفلاحون عن النزول الى المدينة لانه لا يمكن ان ينزل اليها فلاح الا ويتسخر هو ودابته او هو وحده ودابته وحدها فيجره الضابطي الى حيث اراد واذا تعند معه اصابه من الضرب الاليم والعذاب المفرط ما يجعله ان يخضع لارادته رغماً عن انفه[1] »

وكانوا يرسلون البنائين الى عكا وقولاق بوغاز[2] وغيرها من الاماكن التي تبعد عن اوطانهم مسيرة يوم او ايام ويكرهونهم على العمل بربع الاجرة . ومن مظالم السخرة انهم كانوا يكلفون المكارين نقل الفحم الحجري من معدن قرنايل باجرة زهيدة وبما ان الفحم المحفور حديثاً تكون فيه رطوبة تتبخر عند تعرضه للشمس والهواء في اثناء نقله مسيرة ساعات عديدة فيجف وينقص وزنه فكانوا يلزمون المكارين بدفع ثمن الفرق في الوزن الناشيء عن فعل الطبيعة فيفقدون اكثر اجرتهم او كلها[3] ظلماً وعدواناً .

ومن فظائع « البلص » والتسخير هي ان الحكومة عملت بالمثل

---

(١) مجلة « الكلية » ت ٣ سنة ١٩٢٦ ص ٤٨

(٢) Charles Napier, Vol. I, P. XXVII

(٣) Ch. Napier, Vol. I, P. XXVII , Perrier, PP. 272-3

المشهور فكانت تكيل بمكيالين وتزن بميزانين[1] فتأخذ بمكيال او ميزان يزيد على المكيال او الميزان الذي تعطي به والذي فرضت التعامل به بين الناس كما بيّنا قبلاً في الكلام عن الضرائب ·

ولم يقتصر حيف الحكومة على الملاكين والمكارين بل شمل افقر الطبقات وهي طبقة العامل الفقير الذي يأكل خبزه بعرق جبينه ويعول ذويه من اجرته اليومية · فمن هؤلاء من كان يستخدم في قطع الاشجار في الغابات فاذا قطع شجرة ووجدت لاي سبب من الاسباب غير صالحة للغرض الذي تطلبه الحكومة يُحرم اجرتـه · نعم ان الحكومة كانت تترك له حرية التصرف بالشجرة التي تمسك عنه اجرة قطعها غير ان بعد الغابات عن المدن كان يحول دون انتفاع[2] العامل بها · ومن المظالم التي ذكرها نوفل بعد ان عدّد اضرار السخرة ما يلي قال : « والاعظم من ذلك جميعه اخراج الناس من بيوتها لاجل اسكان العساكر التي لا تفتر من الجولان في البلاد وخاصة مدن الساحل فلا يرثون لانين شاكي ولا يرحمون دمعة باكي فترى النساء والارامل فضلاً عن المتزوجات من المسلمين والنصارى دايرات في الاسواق يتوقعن مأوى يأوين اليه وقد يتفق البعض منهن انهن بعد مقاساة العناء يجدن محلاً لكنهن لا يستقرن فيه برهة الا وتأتي العساكر وتخرجهنّ منـه ايضـاً ولا يعفى من ذلك احد لا كبير ولا صغير الا من كان ذا رتبة

(١) Perrier, F, P. 105

(٢) Rustom's Syria Under Mehemet Ali P. 42 Volt.

معروفة بين خدام الميري » .

« وكثيراً ما تعطل المساجد والمدارس لتجعل انابر لوضع الذخائر والمهمات »[1] . وقد ذكر غير نوفل حوادث من هذا النوع منها مـا حدث في دمشق فانهم « اخذوا جملة جوامع ومدارس نزلوا بهم عساكر مثل الجامع الذي في الخياطين والمدرسة التي بلصق بيت عبد الله باشا والمدرسة التي قاطع حبس باب البريد والجامع الذي بالدرويشية وجامع المعلق »[2] الخ .

التلاعب باسعار العملة : ومن مساوىء حكومة محمد علي في سوريا التلاعب باسعار العملة تلاعباً يعود بالخسارة على عموم الاهلين فتربح خزينتها ما خسره اهل البلاد وذلك انها تخفض اسعار العملة عند ما تشرع في تحصيل الضرائب فاذا انتهى جمع الضرائب عادت الى رفع اسعارها[3] . وهذه المعاملة شبيهة بما ذكرناه قبلاً عن الكيل بمكيالين والوزن بميزانين .

التجنيد : كان السوريون ينفرون من التجنيد اشد النفور لانهم لم يألفوه وان كانوا قد ألفوا الحروب . فالحروب التي كانوا يشتركون فيها قبلاً كانت تقع في داخل البلاد وكان المحارب لا يغيب عن اهله وبلدته الا اياماً معدودة ويسير الى الحرب مع اخوانه ومواطنيه جنباً

---

(١) مجلة «الكلية» عن شهر تشرين ثاني سنة ١٩٢٦ ص ٤٧
(٢) مذكرات تاريخية ص ٨٧ و ٨٨
(٣) Napier, Vol. I, P. XXVII

الى جنب وتحت راية زعيم يعطف عليه وتجمعه به جامعة المبدأ والمصلحة والوطن . اما التجنيد الاجباري في جيش ابرهيم باشا فكان خالياً من كل هذه المزايا ولم تكن له شريعة خاصة ولا نظام معروف ولا وقت معين [1] وكانت طريقة تنفيذه فظيعة اجمع على استنكارها جميع المعاصرين حتى ان كلوت بك وهو من كبار رجال حكومة محمد علي ومن الحائزين على ثقته لم يسعه الا الاعتراف بانها كانت طريقة همجية وان كل ما رواه الرحالون عن فظاعتها مطابق للواقع [2] وقال نوفل نوفل عن التجنيد انه « لم يكن له وقت ولا نظام مخصوص ولا على اصول القرعة الشرعية بل في اي وقت صدرت به الارادة تدور العساكر في المدن والقرى للقبض على اي من وجدوه واذا وشي باحد انه مختبئ في احد البيوت تهجم العساكر وتدخل الى ذلك البيت فجأة للبحث عنه فتصبح اسواق المدن ودكاكينها خالية وتتعطل حوانيت البيع والشراء وتهرب الشبان منها ويمتنع الفلاحون واهل القرى عن المجيء اليها وكثيرون من الناس كانوا يقطعون السبابة وهو الاصبع الذي يلي الابهام من الكف اليمين او يقلعون العين الشمال ليخلصوا من الدخول في هذه الخدمة ... » [3] وروى بوجولا ما خلاصته : « كان ثاني يوم وصولنا الى حمص يوم سوق ففتحوا ابواب المدينة مبكرين ليمكنوا الفلاحين من الدخول

---

(١) مجلة الكلية من شهرت ٢ سنة ١٩٢٦ ص ٤٨ و Clot-Bey, T. 2, P. 255

(٢) « « « «

(٣) مجلة « الكلية » من شهرت ٢ سنة ١٩٢٦ ص ٤٨ و ٤٩ وانظر مشاقة ص ٢٥٥
Napier, Vol. I, PP. XXVIII , LXXX

وبيع حاصلات اراضيهم . فنحو الساعة العاشرة صباحاً بينما كانت مدينة حمص غاصة بالناس وحركة السوق على اشدها وكان الباعة والمشترون قائمين باعمالهم بسلام أقفلت ابواب المدينة اقفالاً محكماً وانقض فجأةً على الجمهور نصف آلاي من الجنود المشاه فساد الاضطراب الشديد مدينة حمص باسرها كأنما هاجمها عدو لدود . فقبض الجنود على الشيوخ والشبان من مسلمين ومسيحيين سواء أكان من التجار او الصناع او العمال وقادوهم جميعاً مشدودي الوثاق يتبعهم عدد عديد من النساء والبنات يملأن صراخهن ونواحهن الفضاء وهن يقرعن صدورهن ويلطمن وجوههن حزناً على ابنائهن واخوتهن وآبائهن الذين اقتادهم الجنود كرهاً بدون ان يتركوا لهم فرصة لمشاهدة مسقط رأسهم او التزود بنظرة من ذويهم .

اما المقبوض عليهم فسيقوا الى دار احدى الثكنات العسكرية وهناك جرى فرزهم فأخلي سبيل المسيحيين والشيوخ من المسلمين وسيق الباقون الى مصر كما يساق الجناة تخفرهم فرقة من الجند ويرافقهم اليأس من الرجوع الى اوطانهم لانهم سيبقون جنوداً مدى الحياة .

« وهكذا كان كلما شاء محمد علي زيادة قوة جيشه يغتنم فرصة حلول عيد او اقامة سوق بيع وشراء او اذا اقتضت الحال يجمع الناس لحفلة دينية ويحيط المجتمعين بفرقة من الجنود الذين يتعمد عليهم

فيقوموا بالمهمة التي انتدبوا لها بالصورة التي سبق وصفها »[١] .

نزع السلاح : ان السلاح آلة شديدة الضرر بالاهلين ونزعه من ايديهم بعد قيام الحكومة بحفظ الامن واقرار السكينة في البلاد امرٌ لا غبار عليه على انه في كل حال احدث استياءً عظيماً بين السوريين لانهم اعتادوا نقل السلاح واستعماله منذ اجيال وكان الزعماء يفاخرون بالتفاف رجالهم حولهم وهم شاكو السلاح .

فالسلاح كان احد مظاهر القوة والعظمة التي عزَّ على السوريين فقدها . غير ان تجريد الاهلين منه له ما يبرره انما الخطة التي اتبعت في التنفيذ كانت جائرة وكان فيها من القسوة والترويع ما في جميع اجراآت حكومة محمد علي في التجنيد وجمع الضرائب وغيرها . وكانت تعتبر كل رجل مسلحاً ولو كان ممن لم يقتنوا السلاح مطلقاً وتكرهه على تسليمها سلاحاً يضطر الى مشتراه لينجو من ضغط الحكام[٢] .

انشاء الخمارات : اجازت حكومة محمد علي انشاء الخمارات وحصرت فيها حق بيع الخمور للافراد ولاصحاب المقاهي فكان من ذلك اباحة شرب الخمر جهاراً لاي شاء حتى المسلمين وقد غالى بعض الجهال بالجهر في استعمال الخمر وفي اثناء احدى الزينات التي اقيمت في دمشق ركب رجل مسلم جملاً ووضع على جانبيه « مسودتين » من العرق وسار في

---

(١) B. Poujoulat, T. 2. PP. — انظر ايضا مخطوطة مشاقة ص ٢٠٥ و ٢٠٦ 37-39 Paton, Vol. 2, PP. 121 , C. Napier, Vol. I, PP. XXVIII -XXIX

(٢) H. Guys, T. 2, P. 228

موكب عظيم متنقلين في احياء المدينة وكان الرجل يتناول العرق من حين الى آخر وهو على ظهر الجمل على مرأى من الوف من المسلمين [1] الذين كادوا يتميزون غيظاً مما شاهدوا . فانشاء الخمارات اثار في نفوس المسلمين ثائر الغيرة الدينية كما انه حرم عدداً كبيراً من المسيحيين الارباح التي كانوا يصيبونها من المتاجرة به واستولت الحكومة على ما كان مخزوناً عندهم من العرق والنبيذ لاجل البيع ولم تدفع لهم سوى ربع ثمنه كما انها استولت على الآلات المستعملة لصنع الخمور وعلى المواعين المعدة لحفظ الخمر في بيوت النصارى واليهود [2] وهكذا اوجب انشاء الخمارات استياء جميع الطوائف السورية .

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٦٧ و ٦٨
(٢) مذكرات تاريخية ص ٨٨ و ٨٩

الثورات على حكومة محمد علي

ان مظالم حكومة محمد علي التي روينا اخبارها في الفصل السابق آذت المسلمين في شعورهم الديني واثقلت كاهل الشعب على اختلاف مذاهبه وطبقاته بالضرائب حتى ان الاغنياء حملوا منها فوق طاقتهم وشاركت الملاكين والصناع والعمال في اتعابهم وشرّدت رجال البلاد في الآفاق اما بسوقهم الى الخدمة العسكرية في البلدان البعيدة سوق الجناة او للسخرة في الاشغال الاميرية باجور زهيدة او بالجائهم الى الفرار الى حيث لا تصل يدها اليهم نخلت الحقول من زارعيها وارتفعت اجور العمال الباقين ارتفاعاً فاحشاً تعذر معها على ذوي الاملاك استثمار املاكهم وتقهقرت تجارة البلاد التي كانت في اول عهد الحكومة قد اخذت في الانتعاش واستعملت من ضروب القسوة في جميع اجراآتها ما اوغر الصدور واحرج السوريين كافة احراجاً لم يبق وراءه سوى انفجار بركان الاحقاد وشبوب نار الثورات في البلاد . ورغماً عن الاسباب التي حالت دون اجتماع كلمة السوريين على القيام بالثورة دفعة واحدة فان نيران الثورات التي بدأ شبوبها سنة ١٨٣٤ ما برحت متنقلة من فلسطين الى جبال العلويين فشمالي سوريا فحوران فلبنان ولم تخمد الا

(١) مذكرات تاريخية ص ٨٨ و ٨٩

بانتهاء حكم محمد علي في[1] سوريا . فكان ما فقد محمد علي من جيشه في محاربة السوريين بسبب تنفيذ قانون التجنيد اكثر بكثير من عدد الذين تمكن من تجنيدهم . وما استولى عليه من اموال السوريين بحق او بغير حق أنفق اضعاف اضعافه في محاولة اخضاعهم . وجميع التدابير التي قام بها لاضعاف قوتهم وأد في نفوسهم من الغيظ والغيرة على حقوقهم والمحافظة على كرامتهم وكيانهم ما يزيد على القوى التي سلبها منهم . كما ان اعداء محمد علي من عثمانيين واوربيين استثمروا هياج افكار السوريين فأيدوا الثائرين حتى انتهى الامر بخروج ابرهيم باشا بجنوده وسائر رجال حكومة محمد علي من سوريا كما سنرى .

---

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٨٦



سوريا الجنوبية

ثورة فلسطين

من نيسان الى ايلول سنة ١٨٣٤

ان اوامر محمد علي القاضية باحتكار تجارة الحرير وتحصيل «الفردة» ونزع السلاح واجراء التجنيد وصلت الى ابرهيم باشا وهو مع اركان حربه في مدينة يافا[١] فبادر الى اذاعة هذه الاوامر في البلاد السورية التي قامت وقعدت لهذا الحادث العظيم وكان اول ظهور بوادر الاستياء والاضطراب بين القبائل العربية النازلة في جوار البحر الميت التي لم تخضع في عهد الحكومة العثمانية لاي نوع من التكاليف التي فرضها عليهم[٢] محمد علي فلم يكن زعماء جبل نابلس كآل طوقان وآل الجرار اقل استياء منهم لان زمام حكومة بلادهم كان بيدهم في عهد الحكومة العثمانية فنزعه ابراهيم باشا منهم وقل مثل ذلك عن آل ابي غوش اصحاب قرية العنب الواقعة ما بين القدس ويافا فان حكومة محمد علي حالت ما بينهم وبين ما كانوا يبتزونه من الحجاج الى بيت المقدس . فدارت المفاوضة ما بين هؤلاء وغيرهم من زعماء فلسطين لاجل توحيد الكلمة على رفض مطاليب الحكومة[٣] . اتصل خبر هذه الحركة بابرهيم باشا

---

(١) Soliman Pacha p. 231

(٢) P. 232 « « Mouriez, T, 3. p. 278

(٣) P. 231 « « مذكرات تاريخية ص ١٠٠

فأسرع في الذهاب الى القدس مع جيشه فوصلها في اليوم التالي وخيم تحت اسوارها [1] وعلى اثر وصوله دعا الحكام وشيوخ القبائل المجاورة للاجتماع في نيسان [2] (ابريل) سنة ١٨٣٤ فسرعة زحف ابرهيم باشا أوقف حركة [3] دعاة الفتنة وأدخل الخوف على قلوب الزعماء اذ لم يترك لهم متسعاً من الوقت لتوحيد كلمتهم والتفاهم على الخطة التي يتخذونها لمقاومته فاكثر المدعوين لبوا الدعوة فبلغهم ارادة والده وطلب منهم اجابته عما اذا كانوا مستعدين لتنفيذها [4] فأجابوا بالايجاب اذ لم يروا مفراً من ذلك بازاء قوة ابراهيم القاهرة غير انهم حاولوا ان يستبدلوا التجنيد بتعويض مالي اي بزيادة الضرائب كما انهم توسلوا اليه ان يعفيهم من تسليم السلاح غير ان ابراهيم باشا لم يحد قيد شعرة عن اوامر والده وابلغ الشيوخ انه ليس الا وسيطاً بينهم وبين العزيز فقبلوا مطاليبه مكرهين لكنهم اخبروه ان لا بد لهم من المداولة مع الذين انتدبوهم ورجوا منه ان لا يعتبرهم مسؤولين شخصياً اذا لم يفلحوا في اقناع قومهم بقبول ما جرى الاتفاق عليه بينه وبينهم [5] اما ما وقع الاتفاق عليه من حيث التجنيد فهو ان يقدموا رجلاً واحداً للجندية من كل اثني عشر [6] رجلاً وعين رؤساء لمشايخهم الشيخين قاسم الاحمد وحسين عبد الهادي من

---

(١) Soliman Pacha, PP. 232-233

(٢) مذكرات تاريخية ص ٩٩ و Mouriez, T. 3, P. 278

(٣) Soliman Pacha, P. 233

(٤) Soliman Pache P. 234

(٥) « P. 235

(٦) مذكرات تاريخية ص ٩٩

كبار زعماء جبل نابلس وابقاهما بصفة رهائن عنده وجعل ابن قاسم الاحمد متسلماً على القدس [١] . وبعد انتهاء الاجتماع عاد ابراهيم باشا الى يافا لينتظر فيها ورود الاخبار والنجدات من مصر . اما باقي المشايخ فتفرقوا في البلاد لدعوة الاهلين الى التجند حسبما اتفقوا عليه مع ابراهيم باشا لكن قلوبهم كانت ممتلئة حقداً عليه . وكانت الحكومة العثمانية في اثناء ذلك تدس الدسائس في سوريا لحكومة محمد علي فذاع في طول البلاد وعرضها خبر مؤداه ان الدولة العثمانية قد حشدت جيشاً جراراً في سيواس وعهدت بقيادته الى محمد رشيد باشا الذي كان قد اسره ابراهيم باشا في موقعة قونية وانها تتأهب للزحف على سوريا لاجل [٢] استرجاعها وكان العدد الاكبر من الجنود المصرية قد عاد الى القطر المصري اما الجنود التي كانت لا تزال باقية في سوريا فكانت مفرقة في المدن المختلفة . فهذه الاشاعة لقيت آذاناً صاغية من السوريين الذين اصبحوا ناقمين على حكومة محمد علي وشددت عزائمهم على مقاومة مطاليبه فعاد العربان الضاربين بجوار البحر الميت الى الانتقاض [٣] وتبعهم اهل جبل نابلس الاشداء وفر الشيخ قاسم الاحمد من معتقله في يافا الى نابلس وتولى قيادة الثوار هناك وارسل جماعة الى القدس فاحضرت ولده الذي كان متسلماً عليها [٤] وانضم الى الثوار آل ابي غوش انتقاماً

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٩٩ و ١٠٠

(٢) Soliman Pacha P. 236

(٣) المؤلف والصفحة نفسها

(٤) مذكرات تاريخية ص ١٠٠

من الحكومة لانها سجنت والدهم وكبير قومهم في عكا لابتزازه اموال الحجاج الى بيت المقدس وكان لانضمام هؤلاء الى الثوار تأثير عظيم نظراً لشدة بأسهم وزعامتهم في البلاد الواقعة ما بين القدس [١] ويافا فخرج مركز الحامية المرابطة في القدس التي كان يبلغ عدد رجالها نحو الف مقاتل فعزم قائدها على الانسحاب منها الى يافا فاعترضها آل ابي غوش برجالهم وهاجموها بشدة وقتلوا منها نحو خمسين جندياً وشتتوا شمل الباقين فاضطر القائد الى الرجوع الى القدس مع الجنود التي تسنى له جمع شتاتها ودخل بهم القلعة واعتصم بها [٢] فلما اتصل الخبر بابرهيم باشا وجه الاياً من جيشه بقيادة الميرالاي حسن بك لرفع الحصار عن حامية القدس فتصدى له آل ابي غوش ايضاً ونشبت بينهم معركة دامية قتل فيها حسن بك ونحو ثلاثين جندياً واكره الباقون على الرجوع الى يافا [٣] وكان الثوار في اثناء ذلك قد هاجموا حامية الخليل المؤلفة من مائتي جندي وذبحوهم [٤] وحضرت جموع غفيرة لمهاجمة القدس فانسل بعضهم الى جهة باب داود وقتلوا الحراس وفتحوا الباب فدخل الثوار منه واشتد القتال بينهم وبين الحامية المحاصرة في القلعة ونهبوا دكاكين البلد وبعض بيوت اليهود [٥] وكانت حينئذ قد وصلت الامدادات من

---

(١) Soliman Pacha P. 237
(٢) المؤلف نفسه ص ٢٣٧ و ٢٣٨
(٣) « « ص ٢٣٨
(٤) مذكرات تاريخية ص ١٠١
(٥) المؤلف والصفحة نفسها

مصر فنهض ابرهيم باشا من يافا في ٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٣٤ ومعه سليمان باشا الفرنساوي يقودان ستة الاف مقاتل [1] فلما بلغوا قرية العنب بلدة آل ابي غوش الواقعة على مسيرة نحو ثلاث ساعات من القدس اشتبكوا مع الثوار في موقعة دامية استمرت من الظهر الى العشاء دون ان يفوزوا منهم بطائل فباتوا ليلتهم هناك وفي الصباح تجدد القتال فابلى الفريقان احسن بلاء واخيراً تغلب ابرهيم باشا على الثائرين وفتح طريقه الى القدس فوصلها في اليوم الثالث بعد قيامه من يافا وفرّق جموع الثائرين الذين كانوا قد دخلوها [2] وعلم ان مسلمي القدس ساعدوا الثائرين وان الذين قاموا بالمساعدة قد فروا مع الثوار فاباح لجنوده نهب منازلهم ونهبت في اثناء ذلك منازل بعض اليهود خطأ لقربها من منازل المسلمين [3] غير انه وجد موقفه في القدس حرجاً بازاء الثوار الذين كانوا يحيطون به من كل جانب فالنابلسيون كانوا يهاجمونه من جهة وعربان البحر الميت من جهة اخرى ومواصلاته مع يافا مقطوعة لاعتراض آل ابي غوش في الطريق [4] فحصلت بين ابرهيم باشا والثوار ثلاث وقائع كان النصر فيها لابرهيم باشا لكنه فقد في احداها قائد من رجاله برتبة امير لواء [5] غير ان قوة الثائرين لم يصبها

---

(١) Soliman Pacha P. 238 وحروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤ و ٤١

(٢) Soliman Pacha P. 236 و مذكرات تاريخية ص ١٠٢

(٣) Soliman Pacha pp. 239-240

(٤) المؤلف نفسه ص ٢٤٠

(٥) مذكرات تاريخية ص ١٠٦ و ١٠٧

وهن وهممهم لم تفتر عن القتال . وفي ٢٩ حزيران (يونيو) وصل محمد علي باشا الى يافا قادماً من الاسكندرية ومعه جيش عدده خمسة عشر الف[1] مقاتل حيث كان قد بلغه خبر تحرّج موقف جنوده في فلسطين ولما بلغ ابراهيم باشا وهو في القدس خبر وصول والده الى يافا اوقف رحى القتال وعمد الى التغلب على خصومه بالوسائل السياسية فأوهم الشيخ قاسم الاحمد انه مستعد للعدول عن التجنيد والتسامح في غير ذلك من الامور فاجتذب هذا الزعيم اليه ودارت المفاوضة بينهما في القدس وكان سليمان باشا في الوقت عينه يفاوض اولاد ابي غوش وتمكن من استمالتهم الى جانب الحكومة حيث وعدهم باخلاء سبيل والدهم السجين في عكا وان يسدل استار النسيان على كل ما مضى واتفق معهم على ان يكونوا اصدقاء لحكومة محمد علي فينالوا المكافأة التي تناسب الخدمة التي يقومون بها فلما استوثق ابراهيم باشا من صداقة آل ابي غوش قطع المخابرة مع الشيخ قاسم الاحمد وعاد الى يافا فاجتمع بوالده اما قاسم الاحمد فعاد الى نابلس مغضباً واخذ يستعد لتجديد القتال[2]

الثورة في صفد : كان المسلمون في صفد ممن لبى داعي الثورة فشقوا عصا الطاعة على حكومة محمد علي في اواسط حزيران (يونيو) سنة ١٨٣٤ وهاجموا مواطنيهم اليهود ونهبوا اموالهم وقتلوا بعضهم[3] . وكان الامير

---

(١) B. Poujoulat; T. 2, p. 343 وحروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٤٠

(٢) Soliman Pacha PP. 240-241

(٣) Paton, Vol. II, P. 117

امين ابن الامير بشير حاكم جبل لبنان قد حضر الى يافا موفداً من والده لاجل السلام على محمد علي ولتأكيد اخلاصه له فأمره العزيز ان يبلغ والده ان يسير برجاله الى بلاد صفد ويؤدب ثوارها فبارح الامير بشير بيت الدين قاصداً الى صفد في ٢٨ حزيران[1] سنة ١٨٣٤ ولما اتصل باهل صفد خبر قدومه اوفد الشيخ صالح قاضي ترشيحا لملاقاته وعرض طاعتهم عليه فتقبل الامير منه ذلك وطلب ان يوافيه مشايخ بلاد صفد الى قرية بنت جبيل فامتثل المشايخ للامر وقدموا طاعتهم له فطيب خواطرهم وامرهم باعادة ما سُلب من اليهود فوعدوا باعادته . ثم سير الامير افندي شهاب حاكم راشيا الى صفد ومعه عسكر ليتسلم قلعتها ويحصل اموال اليهود المسلوبة . اما هو فتقدم الى الصفصافة ومنها ذهب الى صفد وقبض على اكثر الذين سلبوا اموال اليهود[2] وارسلهم الى سجن[3] عكا وبذلك انتهت ثورة الصفديين .

الثورة في نابلس : ان سياسة التفريق التي اتبعها ابراهيم باشا مع زعماء فلسطين استمالت اليه آل ابي غوش وآل عبد الهادي فأمن على خط مواصلاته ما بين يافا وداخلية فلسطين وضاق نطاق الثورة فبرّ بالوعد لابناء ابي غوش بان اخلى سبيل والدهم الذي كان سجيناً في عكا وجعل الابن الاكبر زعيماً لقومه والابن الثاني متسلماً على القدس[4] وجعل

---

(١) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤١

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٧٨ و ٥٧٩ وحروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤٥

(٣) Soliman Pacha. P. 242

(٤) المؤلف نفسه ص ٢٤٤

الشيخ حسين عبد الهادي من رجاله المقربين – اما الشيخ قاسم الاحمد فرغماً عن انفصال ابناء ابي غوش واتباعهم عنه لم يزدد الا اصراراً على مقاومة ابراهيم باشا لحشد رجاله في بلدة تدعى الدير وزحف ابراهيم باشا للقائه ونزل بجيشه في قرية زيتا قبالة قرية الدير المار ذكرها فاشتبك الجيشان في قتال عنيف كان فيه النصر لابراهيم باشا وقتل من النابلسيين نحو سبعماية رجل واخذ منهم عدداً كبيراً من الاسرى[١]. ومن زيتا تقدم الى غيرها من قرى نابلس فكان يؤمن من يطلب الامان ويحرق القرى التي يفر اهلها من وجهه ولما اقترب من بلدة نابلس خرج اهلها لملاقاته طالبين الامان فأجاب طلبهم ونزل على ماء خارج البلدة واخذ يقبض على من تصل اليه يده من الذين اشتركوا في حركة الانتقاض ويقتلهم[٢] وكان بين الذين قبض عليهم وقتلهم الشيخ مسعود الماضي وولده[٣]. أما المشايخ قاسم الاحمد وعيسى البرقاوي وعبد الله الجرار من زعماء الثوار وغيرهم من الزعماء والاتباع الذين ظلوا مصرين على المقاومة ففروا الى الخليل[٤]. وكان ابراهيم باشا في اثناء مروره في قرى نابلس يجمع مال الفريضة ويجرد الاهالي من السلاح وينشر راية الامن فيها. فلما فرغ من ذلك توجه الى القدس في اول آب سنة ١٨٣٤ ومنها

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٠٩ وحروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤٤

(٢) « ص ١١٠

(٣) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤٤

(٤) « « « « ج ١ ص ٤٤ ومذكرات تاريخية ص ١١٠

تقدم بجيوشه الى الخليل[1] .

ولما اطمأن محمد علي الى نجاح جنوده في اخماد ثورة فلسطين عاد الى الاسكندرية فوصلها في ٢٢ ربيع اول سنة ١٢٥٠ = ٢٩ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٤

الثوار في الخليل : تقدم ابراهيم باشا لمهاجمة الخليل في ١٤ آب وكان الثوار متربصين في الطريق على مسيرة نحو ساعتين من المدينة فدعاهم ثلاث مرات الى التسليم فرفضوا وفي اليوم التالي زحف لمقاتلتهم فاصطلت نار القتال مدة ثلاث ساعات استبسل الفريقان في اثنائها في الهجوم والدفاع فانكسر الثوار وارتدوا الى المدينة والجيش سائر في اثرهم وهناك حصل بينهم قتال شديد فاستولى الجيش على المدينة ودام النهب والسبي والقتل نهاراً كاملاً فكان ما نهب من الاموال والارزاق شيئاً لا يحصى وكان عدد القتلى نحو ستماية ومثل ذلك عدد الاسرى وقبض على ماية وعشرين ولداً من ابن ثمان سنين الى ابن اثنتي عشرة سنة فأدخلوا في الجيش ولم يبق في الخليل سوى المسنين واصحاب العاهات اما زعماء الثوار ففروا من الخليل الى السلط والكرك[2] فأقام ابراهيم باشا سليمان باشا الفرنساوي على ادارة الخليل وتولى بنفسه تعقب الثائرين الى الكرك .

الثوار في الكرك والسلط : كان الحر شديداً حينما تقدم ابراهيم باشا

(١) مذكرات تاريخية ص ١١١ و Soliman Pacha P. 244

(٢) مذكرات تاريخية ص ١١١ و ١١٢

الى الكرك فقاسى جنوده الشدائد من الحر والعطش وسقط نحو ثلاثماية منهم متأثرين من ضربة الشمس حتى اضطر عند وصوله الى بلدة الغور الى الاقامة فيها يومين ريثما انتعشت جنوده[1] ثم استأنف السير نحو الكرك ولما اقبل عليها خرج اهلها المسيحيون للقائه مستأمنين فأمنهم وامهلهم ثلاث ساعات ليخرجوا من البلدة وينقلوا منها ما يشاؤون وبعد ذلك استباح جنده ما بقي في البلد من رجال واموال قتلاً ونهباً ودمروا بيوتها[2] تدميراً . اما الثوار فاعتصموا في قلعة الكرك ولم تكن مدفعية الجيش قد وصلت لتسلط نيرانها عليهم كما ان إقدام ابراهيم باشا وما كان يجيش في صدره من حب الانتقام من الزعيم قاسم الاحمد ورفقائه حجبا الصواب عن بصيرته فرمى القلعة بفرقة الفرسان محاولاً فتحها عنوة فأدت هذه الغلطة الشنيعة الى اصابة المهاجمين بخسائر جسيمة كان في جملتها اميرالاي وقائمقام وبكباشي وهم الذين تعاقبوا في قيادة الفرقة[3] الى الموت الاكيد . ورغماً عن الاستبسال في الهجوم كان الاخفاق تاماً وراعت ابراهيم باشا كثرة الاصابات فأمر جنوده بالانسحاب وانتظر وصول المدفعية ليستأنف القتال فاغتنم قاسم الاحمد واعوانه هذه الفرصة وانسحبوا برجالهم ليلاً من القلعة بدون ان يشعر ابراهيم باشا بذلك وتوجهوا نحو السلط[4] . ولما وصلت المدفعية الى الكرك سلطت نيرانها

(١) Soliman Pacha, p. 246

(٢) مذكرات تاريخية ص ١١٣

(٣) Soliman Pacha, pp. 246-247

(٤) « « p. 247

على القلعة لكن لم تبدُ في القلعة اية حركة ولا خرج منها اي طلق ناري وكانت المدافع قد فتحت ثغرة في جدارها فدخل الجنود منها فلم يجدوا فيها احداً غير انهم وجدوا موناً وذخائر كثيرة[1] ·

فبعد ان اعطى ابراهيم باشا جنوده نصيباً من الراحة تعقب العصاة الى السلط حيث كانوا ينوون المقاومة غير ان اهل السلط لم يوافقوهم على ذلك وحالما حضر ابراهيم باشا تقدموا للقائه مستأمنين · اما الشيخ قاسم الاحمد وغيره من الزعماء فانفصلوا عن رجالهم وجدوا السير نحو البادية ونزلوا على عرب عنزة وهم يظنون انهم وصلوا الى ملجأ امين[2] ·

فلما اتصل بابراهيم باشا ان زعماء الثائرين قد لجأوا الى قبائل العرب انتقل بجيشه الى المزيريب ووزع رسله بين العربان وكتب الى مشايخهم يطلب منهم القبض على زعماء الثوار وتسليمهم مهدداً من يكتم امرهم عنه بالعقاب الشديد · وكانت سطوة ابراهيم باشا قد القت الرعب في قلوب القبائل العربية فبادر ابن الدوخي شيخ عرب عنزة الى القبض على الزعماء الذين لجأوا اليه واتفق قدوم خيالة من جيش ابراهيم باشا فتسلموهم وذهب هو ايضاً معهم الى ان اوصلهم الى ابراهيم باشا فقتل بعضهم في دمشق والبعض الآخر في عكا[3]

---

(١) و (٢) Soliman Pacha P. 247

(٣) مذكرات تاريخية ص ١١٣-١١٤

الاضطراب في الشام

ايار (مايو) سنة ١٨٣٤

بعدما اذاع ابرهيم باشا اوامر والده عن التجنيد وغيره من التكاليف اتخذ شريف باشا التدابير اللازمة لتجنيد الدمشقيين فاستدعى مشايخ الحارات سراً واخبرهم عن عزمه على اجراء التجنيد طبقاً لاوامر العزيز وان الجنود ستوزع في المدينة حتى اذا ما اصبح صباح ١٠ ايار تكون الجنود مرابطة امام البيوت وكل رجل يخرج منها تقبض عليه وترسله الى الثكنة العسكرية ليفحصه الحكماء ويدخلوه في سلك الجندية اذا وجد لائقاً لها وفي اليوم المذكور نفذت هذه التدابير فبلغ عدد الذين تقرر تجنيدهم سبعماية رجل عدا بعض الاغنياء الذين قبلت منهم بدلات مالية . وكان يوم التجنيد يوم حزن واضطراب افكار عظيم كثر فيه عويل النساء وبكاؤهم حزناً على المجندين من ذويهم وفر عدد كبير منهم الى الجبال والبراري وبعضهم ابعد في فراره الى بغداد [1] والى ما بين قبائل البادية وعلى اثر ذلك اتصل باهل دمشق خبر نشوب الثورة في جبل نابلس وان الثوار قد بطشوا بعساكر ابرهيم باشا حتى كادوا يفنوها فازداد هياج افكار الدمشقيين واخذوا يتوعدون

---

[1] مذكرات تاريخية ص ١٠٢

النصارى والجنود بالشر ويتآمرون للايقاع بهم [١] فوقف شريف باشا عن مواصلة التجنيد واكتفى بالذين كان قد جندهم في ١٠ ايار وكانت لديه قوة عسكرية تبلغ نحو اربعة الاف جندي فاحتاط لحفظ الامن في المدينة وجعل العساكر تطوف ليلاً ونهاراً وشدد في مراقبة مثيري الفتن وقتل احدهم المدعو ابن سقا اميني لطعنه في الحكومة وهكذا حال دون وقوع فتنة في الشام [٢]

وكان شريف باشا قد جمع الاسلحة النارية والسيوف من دمشق فبلغ عدد البنادق التي جمعها نحو اربعة الاف وخمسماية بندقية فاكتفى بها . لكن بعد اخماد ثورة نابلس حضر ابرهيم باشا الى دمشق بعسكره واطلع على عدد البنادق المجموعة فلم يرضَ به بل اوجب على الدمشقيين ان يقدموا من البنادق ما يساوي عدد دافعي الفريضة بل كلف بعض الاعيان ان يقدم الواحد منهم من خمس الى عشر بنادق [٣]

(١) مذكرات تاريخية ص ١٠٤
(٢) « « ص ١٠٤
(٣) « « ص ١١٥ و ١١٦

الاضطراب في طرابلس

حزيران وتموز (يونيو و يوليو) سنة ١٨٣٤

وظهرت بوادر الثورة في طرابلس فتآمر اهلها على الفتك بحاميتها المؤلفة من نحو ار بعماية جندي و بمن في المدينة من المسيحيين فانسحب الجنود الى الميناء وتحصنوا فيها ولجأ وجوه المسيحيين الى جبل لبنان كما ان مصطفى اغا بربر متسلم طرابلس السابق الذي كان حينئذٍ معزولاً عن منصبه قاوم مريدي الثورة واتخذ له حزباً من اهل المدينة فحالوا دون حدوث الفتنة [1] واتصل خبر هياج الافكار في طرابلس وبلاد عكار بمحمد علي وهو في يافا فارسل امراً الى الامير بشير بان يوجه ولده الامير خليل بالف مقاتل الى طرابلس ليتحد مع سليم بك في تأديب الثائرين [2] فبارح الامير خليل ورجاله الجبل الى طرابلس في ٩ ربيع الاول سنة ١٢٥٠ = ٣ تموز سنة ١٨٣٤ [3] ولما اجتمع بسليم بك القوا القبض على خمسة وعشرين رجلاً من الجانحين الى الفتنة بينهم ثمانية من اعيان المدينة وسجنوهم جميعاً في القلعة [4] ولما انتقل ابرهيم

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٠٤ و ١٠٥
(٢) اخبار الاعيان ص ٥٧٨
(٣) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤١
(٤) المؤلف نفسه ص ٤٢ واخبار الاعيان ص ٥٨١

باشا الى دمشق بعدما اخمد ثورة فلسطين ارسل اوامره الى الجهات التي ظهرت فيها الفتن مشدداً بوجوب معاقبة العصاة فعوقب الطرابلسيون بقتل ثلاثة عشر رجلاً من اعيانهم وبقيت جثثهم ملقاة في الشوارع ثلاثة ايام [1]

الاضطرابات
في عكار وصافيتا والحصن

آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) سنة ١٨٣٤

وثارت الفتن في بلاد عكار وصافيتا والحصن فتوجه من طرابلس الى بلاد عكار سليم بك بعساكر نظامية والامير خليل شهاب ومعه مائتا خيال من اللبنانيين فقبضوا على اسعد بك المرعب واسعد بك الشديد وعلى اثنين من اولاد محمد بك القدور وعلى ثلاثين شخصاً من وجوه عكار [2] ولما وردت اوامر ابرهيم باشا بتشديد معاقبة العاصين قتلوا بعضهم وارسلوا عدداً منهم الى عكا [3] ثم طرأ مرض على الامير خليل فعاد الى طرابلس وبعد ان جمع السلاح منها عاد الى بيت الدين في ١٠ ايلول

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٨٩ وحروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٤٢ ومخطوطة نوفل ص ١٧٤

(٣) مذكرات تاريخية ص ١١٤

سنة ١٨٣٤ [1] اما سليم بك فتقدم من عكار الى صافيتا وقبض على مصطفى بك الاسعد متسلم عكار وعلى اخرين معه ٠ وقبض ايضاً على الشيخ دندش والشيخ خضر متسلمي بلاد الحصن وصافيتا وارسلهم جميعاً الى قلعة طرابلس وقبض ايضاً على محمد اغا بن علي اغا خزندار متسلم طرابلس وعلى مصطفى اغا متسلم اللاذقية وارسلهم مع عالم الى جزيرة قبرس

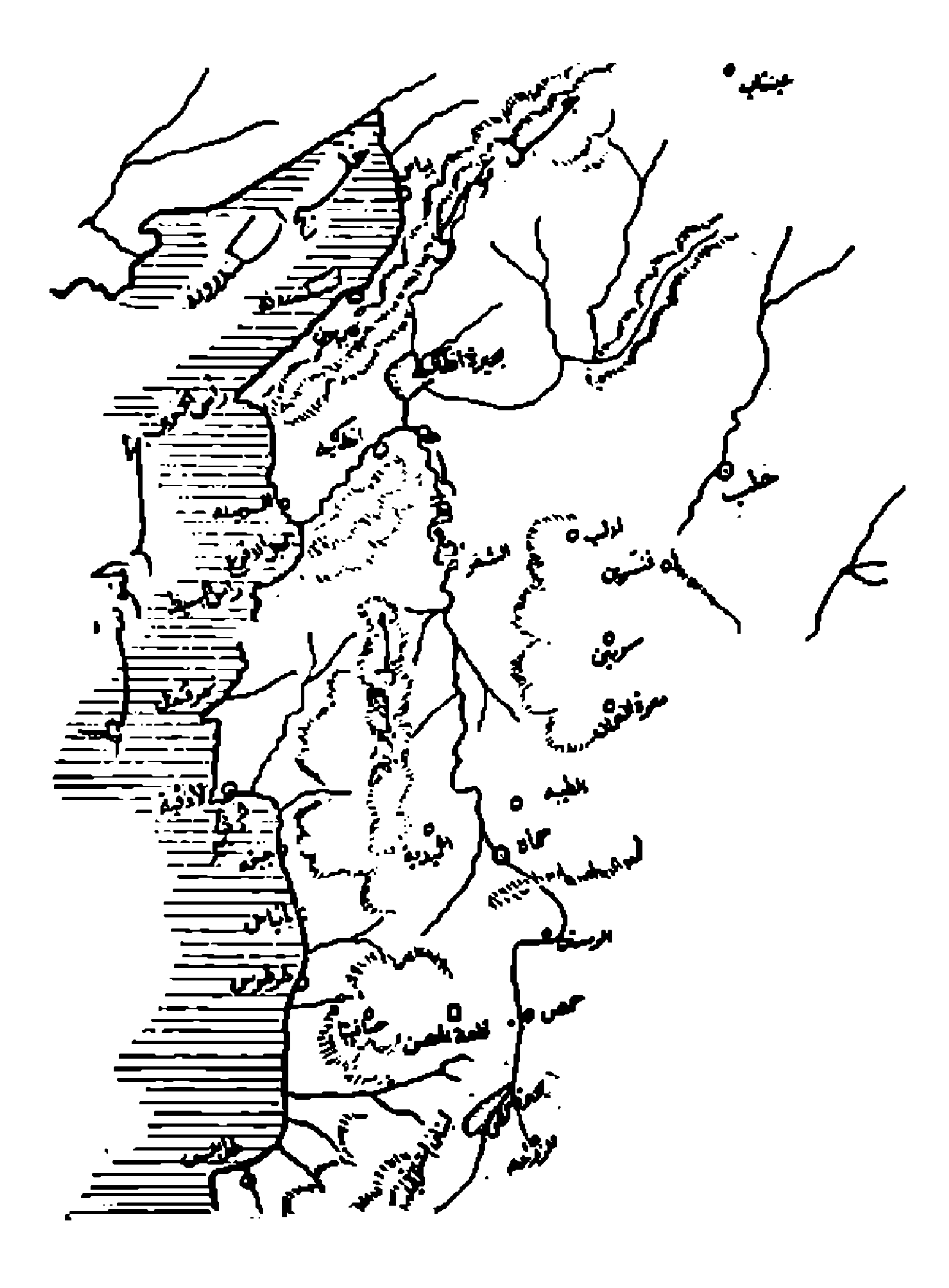
وبناء على امر ابرهيم باشا قتل عبد الله اغا عذره صاحب قلعة المرقب بمشهد عظيم في سوق اللاذقية لانه اهان ضابطاً من ضباط الجيش المصري [2]

ثورة النصيرية

تشرين اول الى اخر كانون اول (اكتوبر الى اخر ديسمبر) ١٨٣٤

ان ثورة النصيرية كانت اهم ثورات سنة ١٨٣٤ بعد ثورة فلسطين فقاتلوا الجيش مستبسلين كما ان بلادهم اصابها من النهب والحرق والتخريب ما لم يصب غيرها مثله ٠ اما اسباب هذه الثورة فهي هي تلك التي اذكت نار الثورة في سائر البلدان السورية وكان ابتداؤها

(١) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤٦
(٢) حروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٤٢ ومخطوطة الياس صالح (اللاذقي)



سوريا الشمالية

ان النصيرية اعترضوا الالايًا من الخيالة النظامية كان ذاهبًا من اللاذقية الى حلب فالجأوه الى التقهقر بعد ان فقد نحو نصف رجاله [١] ثم هاجموا مدينة اللاذقية واعتدوا على ممتلكات الحكومة والمسيحيين وحاصروا المتسلم سعيد اغا العيتاني في داره [٢] وكان ابرهيم باشا عائدًا حينئذٍ من كرك الشوبك فلما وصل الى المزيريب بلغه خبر هذا الانتقاض فاصدر امره الى امير لواء المدفعية سليم بك ان يقوم من طرابلس الى اللاذقية لاجل تأديبهم كما انه امر الامير بشير ان يوجه قوة لبنانية بقيادة احد اولاده ليشترك مع سليم بك في اعمال التأديب [٣] فنهض الامير خليل ومعه اللبنانيون من بيت الدين في ٢٠ تشرين اول سنة ١٨٣٤ وانضم اليهم الامراء الشهابيون فندي وجهجاه وسعد الدين واحمد ومعهم رجال وادي التيم فوصلوا الى طرابلس ومنها استأنفوا السير الى اللاذقية في ٢٧ جماد الثاني سنة ١٢٥٠ [٤] (٣١ تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٨٣٤). وفي ٦ رجب زحفوا على بلاد النصيرية وخيموا في قرية البهلولية ففر النصيرية من وجههم تاركين وراءهم مواشيهم وامتعتهم وغلالهم فغنمتها العساكر وحرقت خمس عشرة قرية من قراهم وقطعت اشجارها [٥] ثم وجه سليم بك فرقة من عسكره لتخريب غيرها من

---

(١) Paton, Vol. 2, P. 117

(٢) « Vol. 2, P. 118

(٣) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٤٦

(٤) « « « ج ١ ص ٤٦ و مخطوطة الياس صالح اللاذقي

(٥) « « « ج ١ ص ٤٧ و « « «

القرى فصدمها الثوار صدمة شديدة واكرهوها على الرجوع الى مضاربها[1] فارسل الامير خليل الف مقاتل من رجاله بقيادة الامير جهجاه احد امراء حاصبيا فانهزم النصيرية وحرق العساكر ثلاثين قرية وفي اليوم الثاني نهض الامير خليل برجاله ومعه الامير فندي شهاب حاكم راشيا والعرب المنادي وبعض الفرسان المصرية وتواقعوا مع النصيرية في قرية منايا وكانت خسائر الفريقين بالرجال قليلة غير ان النصر كان حليف الجيش الذي حرق قرى عديدة[2]. ثم انتقلت العساكر الى مقاطعة صهيون وكان سكانها قد اعتصموا في قلعتها وجاءتهم نجدة مؤلفة من نحو الفي مقاتل من مقاطعة بيت الشلف فحصلت بينهم وبين العسكر معركة فاز فيها العسكر على الثوار وهزمهم ثم هاجم القلعة واستولى على ثلاثة من ابراجها وطلب المحاصرون الباقون الامان. وكان الوقت ليلاً فكف العسكر عن قتالهم فاغتنم المحاصرون الفرصة وانسحبوا من القلعة تحت ستار الليل وهربوا وعند الصباح دخل العسكر القلعة واستولى على ما فيها . وعلى اثر ذلك حضر اهل مقاطعة دريوس وسلموا[3] ثم انتقل العسكر الى مقاطعة بيت الشلف وشرعوا في حرق قرية عين التين فبادر اهلها الى التسليم وحذا حذوهم اهالي مقاطعة المزيرعة وبيت عمار والجهنا . وقدم الى اللاذقية عثمان الجبور كبير

(١) حروب ابرهيم باشا الخ . ج ١ ص ٤٧ ومخطوطة الياس صالح

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٨٠ وحروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٤٧ ومخطوطة الياس صالح اللاذقي .

(٣) حروب ابرهيم باشا الخ ج ١ ص ٤٨ و مخطوطة الياس صالح اللاذقي

الكلبية وحيدوش كبير بني علي لاجئين الى القناصل ملتمسين مساعدتهم متعهدين انهم يقدمون سلاح بلادهم . اما اهل بيت باشوط والدرامطة والقراحلة فامتنعوا عن التسليم ورابطوا على جسر السن الواقع بين بانياس وجبلة واتفق ان الشيخ حسين السلطان ونحو سبعين خيالاً من المتاولة جاؤوا قاصدين الانضمام الى العسكر فاعترضهم المرابطون على الجسر وقتلوا اثنين منهم واستولوا على بعض خيولهم [1] . وارسل الامير بشير نجدة مؤلفة من خمسماية مقاتل مؤلفة من اهل زحلة وبسكنتا فتصدى لهم الثوار انفسهم عند جسر السن ايضاً وقتلوا منهم ستة وعشرين رجلا من الزحليين وعشرة من البسكنتاويين فأرسل الامير خليل ثلاثماية فارس لنجدة اللبنانيين بقيادة الامير سعد الدين والامير احمد الشهابيين ففر النصيرية من وجههم الى جبل الحمام وفي اليوم التالي زحف العسكر على مقاطعاتهم فأعمل فيها النهب والحرق وفعلوا مثل ذلك في مقاطعة القرداحة التي كان مقدمها عثمان الجبور قد سلم للعسكر لكن عجز عن تقديم جميع الاسلحة التي وعد بتسليمها ثم ساروا الى الشعرة وحرقوا نحو خمسين قرية ونزلوا في قرية [2] الجديدة وكان ابراهيم باشا قد وصل الى حمص قادماً من دمشق فأبلغه سليم بك امر خضوع الثوار فأمر الباشا بتفرق العساكر [3] فأذن للاميرين سعد الدين واحمد الشهابيين

(١) حروب ابرهيم باشا ج ١ ص ٤٨

(٢) اخبار الاعيان ص ٥٨١ و ٥٨٢ وحروب ابرهيم باشا الخ ص ٤٨ و ٤٩ ومخطوطة الياس صالح اللاذقي

(٣) حروب ابرهيم باشا الخ ص ٤٩

بالرجوع الى اوطانهم وفي اثناء عودتهم حصلت وقائع بينهم وبين النصيرية في وادي العيون ووادي عميق[١] شمالي صلفيتا . لما الامير خليل شهاب فغادر بلاد النصيرية في ٢٠ شعبان ١٢٥٠ هـ (٢٢ كانون اول سنة ١٨٣٤) عن طريق جبلة فالمرقب فطرطوس فطرابلس ووصل الى بيت الدين في اول كانون ثاني سنة ١٨٣٥ وتفرق رجاله الى اوطانهم[٢] وبقي سليم بك في بلاد النصيرية مع قسم من عساكره لاكمال جمع السلاح واستتب الامن بعد ذلك بنوع لم يبق له مثيل[٣] وانتظم نحو اربعة آلاف رجل من ابناء تلك البلاد في سلك الجيش المصري[٤] .

الثورات الصغرى

وعدا الثورات السابق ذكرها حدثت في سنة ١٨٣٤ اضطرابات اقل منها شأناً في حلب وانطاكية وبلاد بعلبك وبيروت[٥] اضطرت الحكومة الى استعمال القوة لاجل اخضاعها

وفي اوائل سنة ١٨٣٥ حصل انتقاض على حكومة محمد علي في

---

(١) حروب ابرهيم باشا ص ٤٩ و ٥٠
(٢) « « « ص ٥٠
(٣) مخطوطة الياس صالح اللاذقي
(٤) Paton Vol. 2, P. 118
(٥) Baptistin Poujoulat; Vol. 2, PP. 346-347

كلس ولم يخمه الا بعد معارك دامية تكبد فيها الفريقان خسائر جسيمة[1]

وفي سنة ١٨٣٦ ثار عرب الصفاء فتوجهت قوة من اللبنانيين بقيادة الامير مسعود حفيد الامير بشير شهاب فاخضعهم لكن مات من عسكره نحو خمسين رجلاً من شدة البرد[2]

نزع السلاح والتجنيد

بعدما فرغ ابرهيم باشا من اخماد الثورات الكبرى في فلسطين وبلاد النصيرية وما صحب ذلك من نزع سلاح وتجنيد عمد الى نزع السلاح من ايالتي دمشق وحلب ومن البلاد السهلية فلم يلاق في اثناء ذلك مشقة تذكر[3] وعلى اثر ذلك هدأت الاحوال ولم تبق في البلاد الساحلية بلد لم ينفذ فيها امر التجنيد ونزع السلاح الا جبل لبنان على ان اللبنانيين كانوا بمثابة متجندين لانهم هم الذين اخمدوا ثورة صفد واشتركوا في تسكين الاضطراب في طرابلس وبلاد عكار وجبال النصيرية كما كانوا قد اشتركوا قبلاً في فتح دمشق وموقعة حمص وقدموا لابرهيم باشا مساعدات جمة ذات قيمة حربية في تموين جيشه وحفظ خط المواصلات عند زحف الجيش المصري شمالاً الى الاناضول .

(1) Poujoulat, T. 2, P. 347

(2) اخبار الاعيان ص ٥٨٨

(3) Paton: Vol. 2, PP. 118-119

بل ان بعضهم حارب في صفوف جيش ابرهيم باشا في الاناضول نفسها على ان محمد علي لم يطمئن بالاً الى اجتماع جميع رجال لبنان في وطنهم وبقاء سلاحهم في ايديهم وهم قد اشتهروا بالبسالة وللجبلهم ما له من المناعة الا انه ارجأ امر تجنيدهم الى سنة ١٨٣٥ لانشغال جيشه في سنة ١٨٣٤ باخماد الثورات وتسكين الاضطرابات في جهات مختلفة من البلاد السورية · وبعد اخماد ثورة النصيرية دعا ولده ابرهيم باشا[1] الى العودة الى مصر في رمضان سنة ١٢٥٠ (كانون ثاني سنة ١٨٣٥) ليستريح من عناء الحروب ومن الطبيعي ان يكونا قد تباحثا ملياً في اثناء ذلك في امر ادارة البلاد التي استولوا عليها ومن ضمنها مسألتي نزع سلاح اللبنانيين وتجنيدهم

نزع سلاح اللبنانيين

وتجنيد الدروز

(ايلول وتشرين اول سنة ١٨٣٥)

فبعد ما عاد ابراهيم باشا من مصر الى عكا شرع في اتخاذ التدابير لتجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم وتسهيلاً لتنفيذ هذه المهمة بتفريق كلمة اللبنانيين اوهمَ المسيحيين انهم سيعفون من تسليم السلاح في اوائل

---

(١) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٥٠

ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٣٥ خابر الامير بشير ومشايخ الدروز طالباً من دروز لبنان تقديم مجندين فأجاب المشايخ انهم لا يستطيعون اكراه احد على التجند ثم حضر حنا بك بحري الى بيت الدين لمخابرة الدروز رأساً واقناعهم بتقديم المجندين المطلوبين فلم يفلح[1] · عندئذ عمد ابراهيم باشا الى نزع السلاح اولاً · وفي ٢٧ ايلول سنة ١٨٣٥ ورد[2] مرسوم منه على الامير بشير يخبره فيه انه حضر الى زحلة ومنها سيحضر الى بيت الدين لاجل نزع سلاح الدروز ويأمره بان يعلن وجوب جمع السلاح واحضاره الى بيت الدين وان يحذروا اخفاء اي قطعة من السلاح والا انزل بهم اشد العقاب فصدع الامير بالامر · وفي ٢٩ ايلول ثفرق اولاده وحفدته في المقاطعات اللبنانية لاجل جمع السلاح وفي اليوم عينه وصل الى بيت الدين ودير القمر[3] ابراهيم باشا وابن اخيه عباس باشا وسليمان باشا الفرنساوي وسليم باشا ومحمد باشا يقودون الوفاً من الجنود الزاحفين على لبنان من جهات مختلفة فثار اهل المتن اولاً وامتنعوا عن تسليم سلاحهم لكن عادوا فخضعوا للقوة القاهرة وسلموها وكذلك فعل سائر الدروز · وما كاد الدروز يسلمون اكثر سلاحهم حتى انقلب ابراهيم باشا على المسيحيين وامرهم بان يبادروا الى تسليم اسلحتهم[4] زاعماً ان عدم تسليم سلاح النصارى أدى الى تردد بعض

(١) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٥٣
(٢) « « « ج ١ ص ٥٣
(٣) حروب ابرهيم باشا المصري ج ١ ص ٥٤
(٤) « « « ج ١ ص ٥٥ و Paton, Etc, Vol. 2, P. 120

الدروز في تسليم اسلحتهم ونفّذ امره هذا بمنتهى الشدة[1] ·

وفي ٢٢ تشرين اول سنة ١٨٣٥ اذاع الامير بشير بناء على امر ابراهيم باشا مرسوماً في جميع المقاطعات بوجوب تقديم الف وستمائة شاب من الدروز للجندية[2] لكن عاد ابراهيم باشا فاكتفى بنصف هذا العدد[3] ويقال ان ابراهيم باشا لم يكن حاسباً ان الدروز يسلمون اسلحتهم ويرتضون بانتظام شبانهم في سلك الجندية بدون مقاومة بعد ان كان قد سمع ما سمع عنهم من شدة البأس وصعوبة المراس الا ان حالتهم عندما قدم ابراهيم باشا بعسكره الى لبنان جعلت المقاومة عديمة الجدوى بل غير ممكنة نظراً لانقسام اللبنانيين على بعضهم واطاعة حاكمهم اوامر ابراهيم باشا اطاعة تامة وتغرُّب اكبر زعماء الدروز واكثرهم نفوذاً واشدهم بأساً بينما اكثر الزعماء الذين بقوا في لبنان كانوا موالين للامير بشير إما طمعاً بمنفعة خاصة او مراعاة للقوة القاهرة ·

---

(١) Paton, Vol. 2, P. 120

(٢) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ١ ص ٦٠ ·

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٤٣ ·

استئناف التجنيد

سنة ١٨٣٧

بعد نزع سلاح اللبنانيين وتجنيد دروز لبنان في سنة ١٨٣٥ سادت السكينة في سوريا حتى سنة ١٨٣٧[1] وكانت القبائل الكردية النازلة بقرب الحدود التركية السورية قد ثارت على الحكومة العثمانية فجرّدت هذه جيشاً لاخضاعهم وتوسلت بذلك لارسال جنود كثيرة تزيد عما يلزم لاخماد الثورة بل واصلت ارسال الامدادات بعد ما خضع الثوار وكانت تزعم ان الثورة انما نشأت من دسائس محمد علي[2]. وكان قد بلغ محمد علي ان الدولة العثمانية تتأهب للانقضاض على سوريا واسترجاعها فصدر امره باجراء تجنيد عام في سوريا استعداداً للمقاومة فدعا ابراهيم باشا حكام البلاد الى عكا وفي مقدمتهم شريف باشا وبلغهم وجوب اجراء التجنيد في جميع البلاد الواقعة تحت حكمه بنسبة رجل واحد من كل عشرة رجال[3] ثم توجه الى شمالي سوريا لمراقبة حركات العدو وتفرق الحكام الى بلادهم ليشرعوا في التجنيد. وما ذاع الامر بين الناس حتى تشرّد الشبان في البراري والجبال ووقف دولاب

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١١٧

(٢) B. Poujoulat; Voyage dans l'Asie Mineure, Vol. 2, PP. 393-395

(٣) مذكرات تاريخية ص ١١٨

الاعمـال . وكان دروز حوران ممن حاولت الحكومة تجنيدهم وكانت قبل ذلك قد اذنت لهم باستبقاء سلاحهم واستثنتهم من الخدمة العسكرية فلما عادت عن قرارها السابق وحاولت تجنيدهم ثاروا عليها .

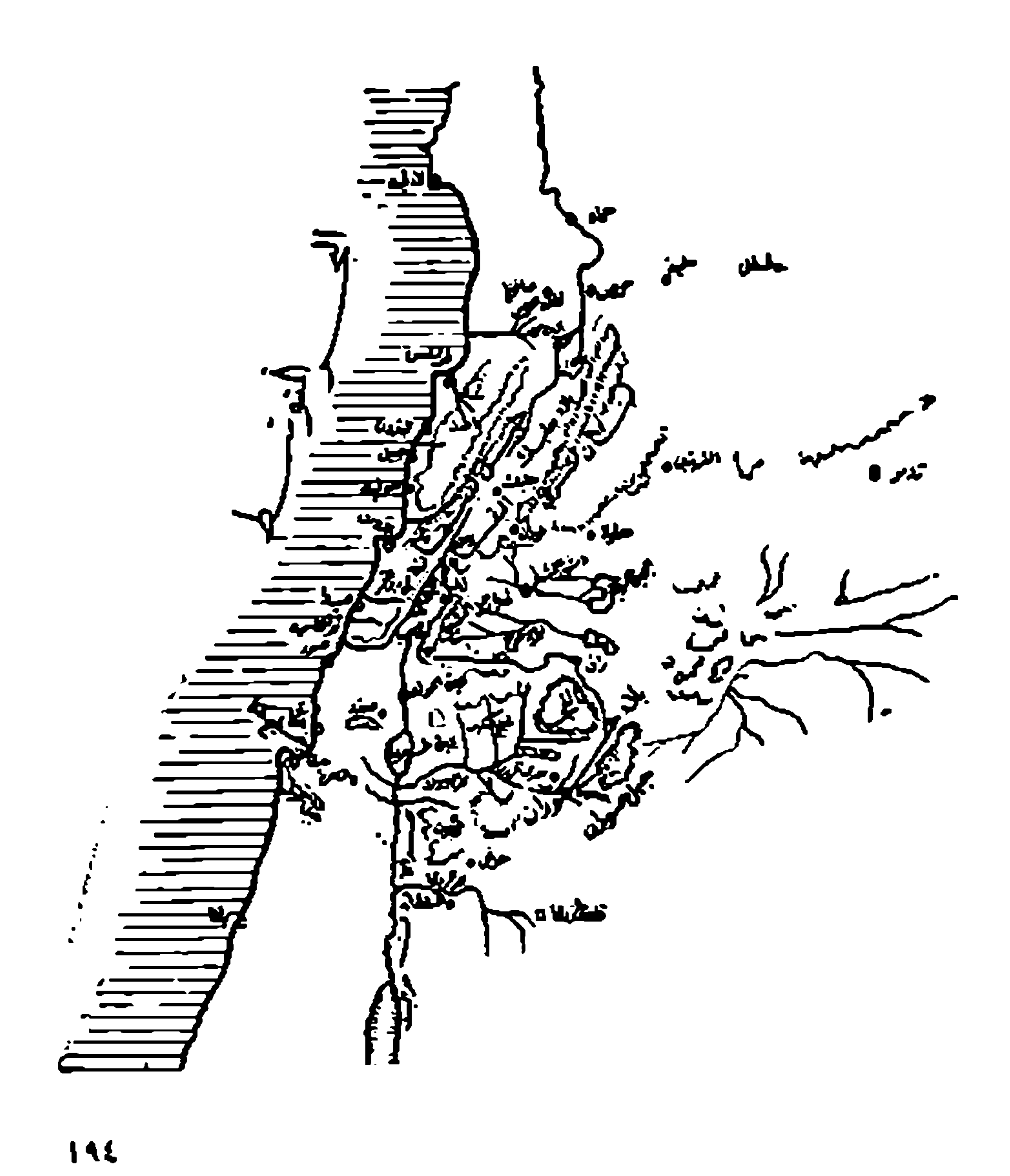
ثورة دروز حوران

تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٨٣٧ — آب (اغسطس) سنة ١٨٣٨

بدأت هذه الثورة في اواخر شهر تشرين الثاني سنة١٨٣٧ وانتهت في النصف الثاني من شهر آب سنة ١٨٣٨ بعد وقائع دامية خسر في اثنائها جيش ابراهيم باشا ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل[1] بينهم عدد غير يسير من القواد ولاقى من الاهوال ما لم يلاق مثله في حروبه مع الدولة العثمانية او في اخماد سائر الثورات في سوريا وغيرها . وحتى تتضح للقارىء الاسباب التي دعت حكومة محمد علي الى اثارة هذه الفتنة التي كلفتها الضحايا الغالية بدون جدوى ونجلي امامه الاحوال التي مكنت الدروز رغمًا عن قلة عددهم من البطش بالحملة بعد الحملة واحتمال ضغط الجيوش الجرارة تسعة شهور لا بد من ايراد بعض التفاصيل عن موقف المتحاربين

---

(١) Cadalvene & Barrault, T. I, P. 139



سوريا الوسطى

هجر بعض الدروز مواطن العمران في لبنان وغيره الى بلاد سادت فيها الفوضى وكثر الخراب وهي بلاد حوران وكانت هجرتهم اما بسبب المشاحنات التي كانت كثيرة الوقوع بين الأسر والاحزاب او فراراً من مظالم حكام ذلك الزمان · فوجدوا في حوران الحرية المطلقة وجودة الهواء والمساكن الرحبة في قراها القديمة المهجورة تحيط بها الاراضي الواسعة الكثيرة الخصب · غير انهم ما لبثوا ان اضطروا ان يستأنفوا في وطنهم الجديد مثل ما كانوا عليه في وطنهم السابق من قتال ونزاع مع جيرانهم او مع القبائل الرحالة التي اعتادت المرور والمرعى في الديار التي نزلوها هذا فضلاً عن تعرضهم الدائم لمقاومة غزاة البادية الذين يعيشون على السلب والنهب · هكذا كان الدروز الذين أموا حوران حتى عهد ابراهيم باشا — كانوا احلاس حرب حنكتهم التجارب وتمرسوا بالحروب في وطنهم القديم فكان ذلك افضل ما ادخروه لحفظ كيانهم في وطنهم الجديد حيث لم تزدد مزاياهم الحربية الا نمواً لانهم كانوا على الدوام في حال حرب لا يخرج الواحد منهم من منزله الا وهو شاكي السلاح استعداداً للطوارىء والمفاجئات — فتمادي الاحوال على هذا المنوال صير جميع دروز حوران جيشاً محارباً فيه الجنود والقواد · فبنو الحمدان وهم اقدم اسرة درزية نزحت الى حوران على ما نعلم توطدت زعامتهم العامة فيها · ونشأت اسر غيرها ذات عصبية قوية وزعامة محلية فكان اولئك الزعماء قواداً ورجالهم جنوداً · والدروز في الحروب اطوع

لقوادهم من اللبنان كما ان قوادهم فوق ما امتازوا به من البسالة والاقدام عرفوا في حروبهم بسعة الحيلة وحسن الادارة الحربية وطالما بزوا في ذلك القواد المدربين . وفي الدروز من مزايا الجنود المنظمة سرعة حشد قواتهم والعمل يداً واحدة بدون ارتباك وهذه المزايا توارثها الخلف عن السلف غير انها ازدادت ظهوراً في دروز حوران لكثرة تعرضهم لغزو الغزاة واعتيادهم رد الغارات فكانوا اذا جاءتهم اشارة من موقع الخطر تندفع مقاتلتهم نحوه من مختلف الجهات فيوحدوا صفوفهم ويقاتلوا جنباً الى جنب كأنهم رجل واحد — وهم يفوقون الجنود المنظمة في سرعة حركاتهم ومرونة ترتيباتهم الحربية وفي صفة الاعتماد على النفس الضعيفة في اولئك الجنود . فهذه المزايا كانت تجعل لهم اليد العليا في الكر والفر وتجعلهم اقل تعرضاً للخسائر الجسيمة والنكبات عند تكاثر جموع الاعداء .

ومن مزاياهم الصبر على الشدائد وتحمل المشقات لصحة ابدانهم وقوة ايمانهم وخشونة معيشتهم واعمالهم الجسدية واتقانهم استعمال الاسلحة المختلفة كالسيف والرمح والاسلحة النارية وفي ذلك يقول احدهم مفتخراً :

حنّا[1] بني معروف نحمي الجار ولو جار

نهوى المزنّد[2] فتيلك منا تعداريه

وسيوفنا الهندب تبرى كل زنّار

---

(١) نحن (٢) البندقية ذات الزناد اما ذات الفتيل فكانت ادنى منها طبقة.

وسلاحنا لو صدي بالدم نجليه
بارودتي فلتا ومزنّره بيوار
جالقه رصاصها عالارض مبا ترميه

وفوق هذه المزايا قد استفادوا من موقع اللجاة المنيع . واللجاة برٌ فسيح طوله عشرين ميلاً وعرضه خمسة عشر ميلاً وهو شديد الوعورة كثير المغاور والكهوف يصعب على الجيش المهاجم الاحاطة به ويجد اكبر المشقات اذا حاول اختراقه . فالدروز انتقلوا اليه بعيالهم حالما ظهرت بوادر العدوان بينهم وبين حكومة محمد علي واتحدوا مع العربان الذين يقطنون اللجاة فبلغ عدد مقاتلتهم جميعاً نحو الفي[1] رجل منهم نحو الف وستماية رجل من الدروز[2] . وهذا عدد يسير بالنسبة الى الالوف المؤلفة التي اعتادت جنود ابراهيم باشا المنظمة مصادمتها والتغلب عليها . غير ان وعورة مسالك اللجاة وصعوبة الحرب فيها على غير عارفيها ضاعفت قوة الدروز وحلفائهم وبالنسبة عينها اضعفت قوة الجيش الذي هاجمهم فيها .

اما الذي حمل حكومة محمد علي على التشدد في امر التجنيد في سوريا فهو ان الدولة العثمانية كانت تحشد جنودها على مقربة من حدود سوريا الشمالية بحجة مقاتلة ثوار الاكراد فاستعداداً للطوارىء بادر محمد علي الى تقوية جيوشه في سوريا واصدر اوامره بتعميم التجنيد

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢١

(٢) مخطوطة مشاقة في جامعة بيروت الاميركية ص ٢٠٧

فيها وبمقتضى ذلك النظام طلبت حكومة دمشق من دروز حوران مائة وسبعين [1] جندياً مع انها لم تكلفهم التجند في سنة ١٨٣٤ لشعورها بحاجتهم الى الرجال لدفع اعتداء العربان المحيطين بهم من كل جانب لان الدروز انفسهم كانوا يقومون في بلادهم بما هو من واجب جنود الحكومة ورجال شرطتها فيتولون حفظ الامن في الداخل والدفاع عن حوزتهم عند وقوع اعتداء من الخارج . وحالتهم في سنة ١٨٣٧ لم تتغير عما كانت عليه في سنة ١٨٣٤ فتجنيدهم وتكليفهم الخدمة في اماكن بعيدة عن جبلهم بينما جيرانهم من عربان البادية يسرحون ويمرحون لا مبرر له من جانب الحكومة لان عدم تجنيد مائة وسبعين رجلاً ليس له تأثير محسوس في قوة الجيش . فالذي يتبادر الى ذهن الباحث هو ان حكومة محمد علي اتخذت مسألة التجنيد ذريعة للتحرش بدروز حوران توصلاً الى اغراض اكثر اهمية من الحصول على مائة وسبعين جندياً . فجبل حوران واللجاة كانا في ذلك الزمن ملجأً لكل خائف [2] من جور الحكام او ثائر على الحكومة ومعقلاً يعتصم به الفارون من التجنيد والمتملصون من حمل الضرائب الثقيل حتى ان قرى عديدة في جبل الكرمل خربت [3] في ذلك الوقت وانتقل اهلها الى جبل حوران

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢٠ وروى احدهم ان العدد كان ١٧٥ وقال اخر انه كان ١٨٠ جندياً

(٢) Urquhart, Vol. I, PP. 161-162 و Churchil, Vol. 2, P. 315

(٣) « The Handbook of Syria » by The British Admiralty, P. 511

لينجوا من الضرائب الثقيلة وشدة وطأة التجنيد وفي ذلك خسارة جسيمة على الحكومة في المال والرجال · فلذلك رأت الحكومة ان تدويخ دروز حوران يثبت قدمها في جبلهم وفي اللجاة ويمكنها من ايقاف تيار اللاجئين اليها ومن فرض التكاليف العسكرية والمالية عليهم وتمهيد السبيل لبسط سلطتها على ما ورائهم من العربان · وكانت تظن خطأ ان دروز حوران القليلي العدد لا يستطيعون مقاومتها لتفرقهم في قرى مختلفة وان روابط الولاء والاخلاص بين مشايخهم وفلاحيهم كادت تكون مفقودة [1] وانهم عزل من السلاح ولا خبرة لهم الا باستعمال المحراث والمساس · وعلى كل حال لم يكن عندها ريب في نجاح تدابيرها لاخضاعهم لان جيشها كان على قدم الاستعداد وفيه الجنود المجربة والقواد المحنكون الذين تعودوا الانتصار على اعداء اقوياء زد على ذلك انهم كانوا يفوقون الدروز عدداً ويمتازون عليهم بجودة السلاح ووفرة الذخيرة · اما مواطن الضعف في ذلك الجيش فكانت استصغاره شأن الدروز وعدم تقدير عواطفهم القومية ومزاياهم الحربية تقديراً صحيحاً · وشتان ما بين مدافع عن وطن اشتراه بالمهج الغالية وبين مهاجم مأجور لا يندفع الى الامام الا بقوة النظام كما ان قواد الجيش وجنودهم لم يعتادوا الحرب في الاماكن الوعرة كاللجاة التي كانوا يجهلون مصاعبها · فوعورة مسالك اللجاة افقدت الجيش اهم

---

(١) مخطوطة مشاقة - جامعة بيروت الاميركية ص ٢٥٧

مزاياه وهي قوة النظام وكثرة العدد لانها اضطرت الجنود الى التفرق فلم يستطيعوا العمل مجتمعين وزال الاتصال الوثيق بينهم وبين قوادهم فهان على عدوهم الفتك بافرادهم وجماعاتهم الصغيرة وانزال النكبات بمجموعهم

المفاوضة فالمحاربة : جرت المفاوضة في امر تجنيد دروز حوران ما بين شريف باشا والشيخ يحيى الحمدان شيخ مشايخ دروز حوران الذي حضر الى دمشق مع بعض اعيان بلاده لهذه الغاية بناء على طلب شريف باشا . فحاول الشيخ يحيى اقناع شريف باشا بان يعدل عن تجنيدهم لان لهم موقفاً خاصاً يختلف عن موقف غيرهم من السوريين . فهم مقيمون في صدر البادية ومكلفون بحفظ الامن في بلادهم والمحافظة على ارواحهم واموالهم بقوة سلاحهم بينما الحكومة تقوم بذلك في سائر انحاء سوريا الساري عليها نظام التجنيد وكأنه اظهر شيئاً من الشدة والصلابة في محادثته مع شريف باشا فاخذت هذا سورة الغضب واهان الشيخ يحيى وفي رواية انه لطمه [١] واكرهه على قبول طلبه لكنه امهله عشرة [٢] ايام ليقنع قومه بان يقدموا المجندين المطلوبين فخرج الشيخ يحيى واصحابه من دمشق غاضبين وعلى اثر وصولهم الى حوران عقد الدروز اجتماعاً استقر رأيهم فيه على رفض طلب شريف باشا والرحيل

---

(١) مخطوطة ابي دبس في مكتبة جامعة بيروت الاميركية
(٢) Voyage dans le Haouran P. 23

الى اللجاة واتفقوا مع عرب السلوط[١] المقيمين فيها على المقاومة وانضم اليهم عرب الشمال ثم اخذوا يعتدون على بعض القرى المجاورة التي تخص شريف باشا وبحري بك[٢] فوجه شريف باشا عليهم[٣] اربعماية فارس من الموارة بقيادة علي آغا البصيلي[٤] ظاناً ان هذه القوة كافية لاخضاعهم فنزل علي آغا في قرية الثعلة احدى قرى الدروز وكان يصحبه عبدالقادر آغا ابي جيب متسلم حوران فدارت المفاوضة بينه وبين مشايخ الدروز في امر التجنيد والاعتداء على الضياع المجاورة فأظهر الدروز ميلهم الى السكينة واستعدادهم لرد ما اخذوه من تلك الضياع لكن رجوا من علي آغا البصيلي ان يتوسط بينهم وبين شريف باشا ليعفيهم من التجنيد فوعدهم خيراً وهو ينوي الغدر بهم فأبلغ شريف باشا ما طلبوه وحسّن له اظهار التسامح معهم حتى اذا ما تفرقوا[٥] الى قراهم اوقع بهم ·

وقعة الثعلة : على ان هذه المفاوضة كانت مبنية على الخداع من الجانبين · فعلي آغا البصيلي كان يظن انه خدع الدروز وانه سيأخذهم على غرة بعد تفرقهم في قراهم فيبطش بهم وهم متفرقون · اما الدروز فاضمروا له الشر كما اضمره لهم فكان لسان حالهم يقول :

يا ابا اليقظان كم صيدٍ نجا   خاليَ البال وصيادٍ وقع

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢١ ومخطوطة مشاقة ص ٢٠٧

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٢١

(٣) Neaib & Beyrout, P. 145

(٤) مذكرات تاريخية ص ١٢١ و مخطوطة مشاقة ص ٢٠٨

(٥) مذكرات تاريخية ص ١٢١ و ١٢٢

فكأنهم أنسوا من البصلي عدم الاخلاص وكانوا قد عرفوا من شريف باشا الاصرار على تجنيدهم فلم يخطروا نتيجة المخابرة بين البصلي وبينه بل انقضّوا على فرقة الموارة ليلاً وقتلوا رجالها ما عدا قائدها ونحو ثلاثين فارساً منها فهؤلاء نجوا بنفوسهم ونقلوا خبر هذه النكبة الى شريف باشا[1] . وكان بين القتلى في هذه الوقعة متسلم حوران عبد القادر آغا ابي جيب ومن الدروز الشيخ ابراهيم الاطرش عم الشيخ اسماعيل الاطرش المشهور .

<u>حملة محمد باشا</u> : ألمعنا قبلاً الى سوء المعاملة التي لقيها الشيخ يحيى الحمدان من شريف باشا الذي استصغر شأن الدروز وكان يظن ان اربعماية فارس من الهوّارة يوم الكفاية للتغلب عليهم اما بعد ما اوقعوا باولئك الفرسان وانسحبوا الى اللجاة ادركت الحكومة خطأها في معاملة الدروز وتقدير قوتهم كما ان ابراهيم باشا كان شفاف البصيرة في الامور الحربية حازماً في تدابيره سريعاً في تنفيذها فبادر الى خنق الثورة في مهدها فجهز حملة مؤلفة من نحو ثمانية آلاف مقاتل يقودها محمد باشا[2] مفتش الجهادية قوامها الالاي الاول من الحرس والالايان الثاني والثامن عشر من المشاة[3] مع خمسماية من الفرسان وبعض المدافع[4] فاشتبكت

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢٢ ومخطوطة مشاقة ص ١٥٧
(٢) مذكرات تاريخية ص ١٢٢ و Nezib & Beyrout, P. 146
(٣) Voyage dans le Haouran PP. 23-29
(٤) Churchil ,Vol. 2, P. 314

هذه الحملة مع الدروز في اوائل كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٣٨ في قرية بصرى الحريري[١] وتغلبت عليهم فاضطرتهم الى التقهقر نحو اللجاة . وفي اليوم التالي اقتفت آثارهم فانسحبوا امامها الى داخل اللجاة ليستدرجوها الى الاماكن الكثيرة الوعورة حيث اعدوا لها المكامن وتأهبوا لمنازلتها . اما محمد باشا فخدع بانسحابهم وظنهم قد جبنوا عن الوقوف في وجه جنوده فجدّ في اثرهم وسار مع اركان حربه في مقدمة الجيش ولما بلغوا مكاناً شديد الوعورة انقضّ عليهم الدروز من مكامنهم ففتكوا عند افتتاح المعركة بمحمد باشا قائد الحملة وامير اللواء ايوب بك[٢] وغيره من اركان حربه فتضعضعت الحملة لفقدان قوادها وشدة هجوم الدروز الفجائي عليها في مكان كثير الوعورة صعب المسالك . وعقب ذلك معركة هائلة ذهبت فيها حملة محمد باشا ما بين قتل وأسر وتشريد وقتل فيها اربعة[٣] عشر ضابطاً غير القواد واستولى الدروز على مقادير كبيرة من الميرة والذخيرة والسلاح[٤] .

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢٣

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٢٣ وفي بعض الروايات « الميرالاي يعقوب بك » ولعله اصح . انظر Voyages dans l'Asie Mineur, T. II, P. 552 . ولم نعثر على اسم ايوب بك بين كبار ضباط حملة ابرهيم باشا اما يعقوب بك فوارد اسمه في صفحة ٢٣٧ من مخطوطة مشاقة وص ٢١ من الجزء الاول من « حروب ابرهيم باشا المصري الخ »

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٢٣

(٤) في ص ١٢٣ من مذكرات تاريخية ان كان بين رجال حملة محمد باشا نحو ثمانمائة جندي من الدروز انضموا الى اخوانهم الثائرين

حملة احمد منيكلي باشا: كان ابرهيم باشا في انطاكية حينما بلغه خبر النكبة التي اصابت محمد باشا وحملته فعزم على تولي قيادة الحملة الثانية بنفسه · واصدر امره الى الاي الحرس الثاني المخيم في حمص والى ألايي المشاة الرابع والرابع عشر المخيمين في حلب وانطاكية بان يسيروا الى دمشق وبارح هو نفسه انطاكية قاصداً الى دمشق ايضاً فلما وصل الى حمص بلغه ان الجنود العثمانية اخذت تتقدم من الشمال نحو البيرة فاضطر الى العدول عن عزمه على قيادة الحملة الحورانية وتوجه الى حلب ليكون على قدم الاستعداد لصد ما يحتمل حصوله من الحركات العدائية من جهة الحدود الشمالية وطلب من والده ان يوجه احمد منيكلي باشا وزير الحربية الى سوريا [١] ليقود الحملة على حوران وكان شريف باشا في اثناء ذلك قد توجه الى حوران وجمع فلول حملة محمد باشا وحشدهم في قرية تبنة في غربي اللجاة [٢] فحضر احمد منيكلي باشا من مصر على جناح السرعة وتوجه الى قرية تبنة وضم الى حملته الاي المشاة السادس وألاي الفرسان التاسع [٣] فبلغ عدد رجال حملته ما بين تسعة وعشرة الاف مقاتل [٤] فزحف بهذه القوة من تبنة يصحبه امراء اللواء احمد بك ورجب (او راجي ؟) بك ووالي بك والميرالاي طيفور بك فكان

---

(١) Voyage dans le Haouran PP. 23-29

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٢٣ و ١٢٤

(٣) Voyage dans le Haouran PP. 23-29

(٤) Poujoulat, B., T. II. P. 362 و Nerib & Beyrout. P. 147

السير شاقاً في مسالك اللجاة الصعبة واخيراً وصلوا الى سهل متسع بقرب قرية جَدَل فنصبوا فيها خيامهم وباتوا هنـاك ولم يروا في ذلك اليوم اثراً للعدو اما في اليوم التالي فلم يبعدوا اكثر من مسيرة ساعة عن جدل حتى ظهرت امامهم طلائع الدروز غير انها ما لبثت ان اخذت تتقهقر وهي تناوشهم فخدعوا بتقهقرها كما خدع رجال حملة محمد باشا من قبلهم اذ لم يرجع الدروز القهقرى الا ليغروا عدوهم على اتباعهم الى مكان وعر كثير المغاور ولما بلغوه صمـدوا له في موقع حصين حيث يرون الجنود ولا تراهم وصبوا عليها نيرانهم الصائبة غير ان الجنود حملت عليهم حملات منكرة ثلاث مرات فكانوا في كل مرة يردونها على اعقابها واخـيراً لما ادرك الدروز ان الجنود قد اعتراها الكلل انصبوا عليها انصباب السيل وناجزوها بالسيوف فهزموها وكبدوها خسائر جسيمة قـدرت بنحو اربعة الآف ما بين قتيل وجريح واسير وكان في عداد الجرحى احمـد منيكلي باشا فانه اصيب بثلاث رصاصات وكانت جراحه خطرة حتى ظن الدروز انه نقل من ساحة القتال ميتاً ولذلك قال زاجلهم :

احمد باشا راح محمول نعشه وطيفور بيك ومثله اوزار (وزراء)

وكان شريف باشا حاضراً في هذه الموقعة فسقط عن جواده ولو لم يبادر علي آغا البصيلي الى انقاذه لادركه الدروز وفتكوا به . وكان في عداد القتلى امير اللواء والي بك ورجب بك (ابو راجي) والميرالاي

طيفور بك وقائمقام من اللواء الرابع وسبع بكباشية وعشرون يوز باشياً[1] فكانت هذه الموقعة ملحمة هائلة . واستولى الدروز فيها على مقدار كبير من السلاح وعلى خمسين جملاً محملة ذخائر ومايتي جمل محملة مؤن لاجل الجيش هذا عدا المقادير الكبيرة من الملابس[2] والمعدات الحربية

صدى انتصارات دروز حوران وثورة دروز وادي التيم

كان لانتصارات الدروز في حوران ولكثرة الخسائر التي اصابت الحملات التي وجهت عليهم صدى عظيم في جميع انحاء سوريا وتأثير اعظم في نفوس جنود ابراهيم باشا فضعفت عزائمهم كما تشددت عزائم الدروز وغيرهم من الناقمين على حكم محمد علي فبثوا دعاة الثورة في البلاد المجاورة خصوصاً في دمشق وبين اخوانهم في وادي التيم . اما الرسائل التي بعثوا بها الى دمشق فوقعت في ايدي رجال الحكومة فحالوا دون شبوب نار الفتنة فيها[3] . واما دروز وادي التيم فلبوا داعي الثورة واجتمع منهم نحو سبعماية مقاتل واخذوا يعترضون المارة ويهددون مواصلات الجيش . واتفق ارسال ذخائر الى الجيش من عكا فتعرض لها الثوار في ـ ـ ـ م واستولوا عليها بعد ان قتلوا الجنود التي كانت

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢٤ و ١٢٥ و Voyage dans le Haouran, PP. 23-29
(٢) Voyage dans le Haouran, PP. 23-25

ملاحظة : روى الدكتور جلاردو في مذكراته المدرجة في الرحلة السابق ذكرها ان هذه الموقعة جرت في ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٣ هـ — ١٤ اذار سنة ١٨٣٨ م

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٢٥-١٢٨



٢٠٧

شبلي العريان

تحرسها[١] . فلما اتصل الخبر بحكومة دمشق وجهت الى وادي التيم حملة صحبها الامير سعد الدين شهاب امير حاصبيا وانضم اليهم الامير محمود حفيد الامير بشير حاكم جبل لبنان فاقتصوا من بعض القرى العاصية في اقليم البلان وقبضوا في حاصبيا على بعض الدروز وارسلوهم الى دمشق[٢] فنهض شبلي اغا العريان كبير ثوار وادي التيم بجمهور من الدروز قاصداً الى حاصبيا لاجل محاربة الامير سعد الدين وانضم الى الدروز الاميران بشير وعلي الشهابيان من امراء راشيا لثأر لهما على امراء حاصبيا ولان تقاليد تلك الايام كانت لا تجيز لغير الامراء محاربة الامراء[٣] . فاعتصم الامير سعد الدين وذووه ورجالهم والامير محمود ورجاله في سراي حاصبيا فدارت رحى القتال بين المحاصرين والمحصورين وحاول شبلي العريان دخول السراي عنوة فلم يتمكن من ذلك وقتل في الهجوم بعض رجاله وقتل من المحصورين الامير محمد شقيق الامير سعد الدين . ثم بلغ شبلي العريان وهو قائم على حصار السراي ان الامير خليل شهاب قادم من لبنان قائداً نجدة لانقاذ ولده الامير محمود فانسحب من حاصبيا وانضم الى المحاربين في حوران[٤]

ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي في حوران : بعد ان اخفق احمد

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٢٩
(٢) مذكرات تاريخية ص ١٣٠
(٣) مخطوطة مشاقة ص ٢٠٩
(٤) مخطوطة مشاقة ص ٢٠٩

منيكلي باشا وهو اعلى قواد محمد علي همة وأكثرهم اقتداراً وتكرر انكسار الجنود النظامية رغماً عن كثرة عددها وحسن نظامها وجودة سلاحها رأى ابراهيم باشا ان يجهز حملة جديدة اكثر عدداً من الحملات التي تقدمتها وان يضيف الى جنوده النظامية جنوداً غير نظامية اعتادت القتال في الاماكن الجبلية فالتمس من والده ارسال مدد من الجنود الالبانية وعين سليمان باشا الفرنساوي قائداً لجنوده في حوران⁽¹⁾ واتفقا على وقف الاعمال الحربية ريثما يحل فصل القيظ وتجف برك الماء التي يستقي منها الدروز في داخل اللجاة اذ لا تبقى حينئذٍ سوى ينابيع قليلة العدد اكثرها على حدود اللجاة فتنحصر مهمة الجيش في منازعتهم الموارد القليلة الباقية في اللجاة ويهون عليه دفعهم عن المياه الواقعة على حدودها فيضطرون الى الخروج من معاقلهم في طلب الماء فتسهل على الجيش مطاردتهم . فجعل سليمان باشا قرية تبنة مركزاً يراقب منه حركات الثوار وحشد فيها الالاي الاول من الحرس والالايين الثاني والرابع عشر من المشاة وفلول الالاي الرابع من المشاة⁽²⁾ ايضاً وجد في اعادة تدريبهم واعدادهم للوقائع المقبلة وحصر حركاته في استكشاف حركات العدو ودفع الغارات التي كان يشنها بعض شراذمه على القرى المجاورة وعلى قوافل الميرة والذخيرة المرسلة الى رجال الحملة⁽³⁾ لكن

(١) Voyage dans le Haouran PP. 23-29 , Nezib & Beyrout, PP. 148-149

(٢) Voyage dans le Haouran PP. 23-29

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٢٨

رغماً عن شدة احتياط سليمان باشا صادف الدروز غفلة من احدى فرق الجيش فباغتوها ليلاً وقتلوا ما بين ثلثماية واربعماية من رجالها [1]

وفي شهر نيسان (ابريل) سنة ١٨٣٨ ارسل محمد علي النجدة الالبانية الذي كان قد طلبها ابراهيم باشا مؤلفة من اربعة الاف مقاتل يقودها مصطفى كامل باشا حاكم كريت فانضمت الى الجنود المرابطة في حوران [2] وساق ابرهيم باشا غير هذه النجدة فرقاً عديدة من جهات مختلفة في سوريا وقدم هو نفسه الى حوران فوصل الى قرية تبنة مركز قيادة الحملة حينئذ في ١٥ نيسان (ابريل) سنة ١٨٣٨ ثم انتقل الى قرية الصَّوَره التي كان قد حشد فيها نحو احد عشر الف مقاتل [3] وفي ٢٥ نيسان انضم اليه سليمان باشا [4] ومعه بضعة آلاف من الجنود ولم تبق في تبنه سوى كتيبة واحدة يقودها شريف باشا [5] فاصبحت الحملة الحورانية مؤلفة من نحو عشرين الف مقاتل [6] . وبعد ما اجتمع ابراهيم باشا بسليمان باشا

---

(١) Nezib & Beyrout. P. 150

(٢) ابكاريوس ص ٢١٠ — جعل بعض الرواة تجريدة مصطفى باشا حملة قائمة بذاتها جاءت ما بين حملة احمد منكلي باشا والحملة الكبرى التي تولى قيادتها السامة ابرهيم باشا لكن لم نطلع في اقوال الذين حضروا حروب حوران من رجال ابرهيم باشا ما يؤيد هذه الرواية كما ان وصول ابرهيم باشا ومصطفى باشا الى حوران في شهر واحد يجعل قيام مصطفى باشا بحملة منفرداً بعيد الاحتمال

(٣) Voyage dans le Haouran PP. 23-25

(٤) « « «

(٥) « « «

(٦) في ص ١٢٢ من المذكرات التاريخية ان عدد رجال الحملة كان اربعين الفاً لكن يستدل من بعض المصادر التي ذكر فيها عدد الفرق التي كانت الحملة مؤلفة منها ان العدد الحقيقي كان نحو عشرين الفاً اكثر او اقل قليلاً .

رسما خطة للتغلب على الثوار من مقتضاها ان يحرموهم المياه التي اعتادوا الاستقاء منها ونظراً لحلول فصل القيظ كانت موارد الماء الواقعة في داخل اللجاة قد جفا كثرها وما بقي منها لم تكن به الكفاية لسد احتياج الثائرين فكان لا بد لهم من الاستقاء من المياه الواقعة على حدود اللجاة حسب العادة . اما الخطة التي وضعها ابراهيم باشا وسليمان باشا فهي ان يستولوا على عدد معين من موارد المياه ويحتفظوا به ليستقي منه الجيش وما زاد على ذلك يتلفونه بان يردموه بالتراب[1] . وقيل ان ابراهيم باشا اضاف الى هذه الخطة تسميم المياه التي لا يحتاجها جيشه ولا يمكن ردمها فاستحضر من دمشق الصيدلي فيجاري (Figari) ومعه كميات وافرة من السموم لهذا الغرض فوجد ابراهيم باشا قد عدل عن هذا الرأي لانه مخالف للانسانية[2] وفي رواية اخرى ان ابراهيم باشا صمم على سم المياه فبين له كلوت (Clot-Bey.) بك ناظر الصحة ان ذلك مخالف للحقوق الانسانية لاسيما وان ضرره لا ينحصر في المحاربين بل يودي بحياة النساء والاطفال اذا شربوا منه ويفضي الى موتهم عطشاً اذا عرفوا انه مسموم فامتنعوا عن شربه . لكن رغماً عن ذلك اصرّ ابراهيم باشا على رأيه وكلّف الكيمائيين الملحقين بجيشه ان يحللوا مقادير كبيرة من السموم فصدعوا بالامر والقيت في الماء[3] . ومن الروايات الشفهية ان ابراهيم

---

(١) Voyage dans le Haouran PP. 23-29

(٢) Nezib & Beyrout, P. 131

(٣) مخطوطة مشاقة ص ٢٩١

باشا كان يلقي جثث الحيوانات الميتة في المياه ليفسدها ·

اخذ ابراهيم باشا في تنفيذ خطته الحربية فقسم الحملة الى اربع فرق تولى قيادة احداها بنفسه ووكل قيادة الفرق الباقية الى سليمان باشا ومصطفى باشا وشريف باشا[1] وقرر استبقاء مياه الهيّات والمسميّة وتبنة وقرّاصة وبصرى الحريري ونجران[2] لسد حاجات الفرق السيارة وعمل على استخلاص ما كان منها في ايدي الثوار وأقام على حراسة كل منها بعد الاستيلاء عليه حامية مؤلفة من كتيبة واحدة او كتيبتين من الجنود لتمنع الثوار من الاستقاء وجعل سائر رجال الحملة فرقاً سيارة تطوف من مكان الى آخر وامامها الادلاء الذين يرشدونها الى مواقع المياه في اللجاة فتتولى انتزاعها من يد الثوار واتلافها او تنجد الحاميات التي يهاجمها الدروز لينتزعوا منها موارد الماء فتمكن الجيش من اتلاف اكثر من عشرين مورداً · وعدا الينابيع التي كان قد تقرر استبقاؤها استولى الجيش على مياه الصّوَرة وبرّاق وريمة[3] وغيرها وكل هذه الينابيع واقعة عند اطراف اللجاة · اما القيام بهذه الاعمال فأدى الى معارك شديدة استبسل فيها الثوار والجنود وتكبد الجنود بنوع خاص خسائر جسيمة على انها في اكثر الاحيان كانت تكره الثوار في نهاية المعركة على الانهزام او الانسحاب · ومن اشد هذه المعارك هولاً معركة

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٣٧

(٢) Voyage dans le Haouran PP. 23-29

(٣) المؤلف نفسه

جرت بين ابراهيم باشا والثوار عند دامة « فأدخل امامه خيول عسكر الاكراد وتبعها ابراهيم باشا بعسكر النظامي وبوصول الاكراد الى ارض دامة انطبق عليهم رجال الدروز فكسروهم كسرة هائلة فدافع عنهم ابراهيم باشا بالعساكر النظامية بلا فائدة لان عساكره جميعها خافت سطوة الدروز فانكسرت امامهم وهم يتبعونها ويهلكون رجالها ويربطون عليها مضايق الطرقات حتى امكن ابراهيم باشا التخلص بمن بقي معه من رجاله لخارج اللجاة[1] . . »

وتواقع الفريقان في احدى المرات عند براق الواقعة في الجهة الشمالية من اللجاة حيث زحفت الجنود الالبانية والاسيء من الجند النظامي الى براق فأدرك الدروز انها تقصد الاستيلاء على الماء الكائنة على مقربة من تلك القرية فتصدوا لمنعها وحدثت موقعة هائلة استمرت « من قبل الفجر الى ما بعد الظهر فقتل من الدروز نحو ثلثماية زلمه ومن» « العساكر نحو الفين وبعد الحرب انكسرت الدروز وولوا هار بين . . . » « فلحقوهم الارنؤوط مقدار ساعتين ومسكوا متاريس وصار مراد » « ابراهيم باشا يرجعهم فما قبلوا يرجعوا . . . . فتقدم الاوردي الى » « عندهم وحط داخل اللجاة[2] »

استمرت المحاربة على هذا المنوال ما بين ابرهيم باشا والثوار نحواً من شهرين وكانت المعارك تدور حول ينابيع الماء لان حياة الثوار

---

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٦٠ و ٢٦١

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٣٢

كانت تتوقف على توفر الماء لديهم بينما ابرهيم باشا كان يرى ان اقرب سبيل الى قهرهم هو حرمانهم اياها وآخر المعارك لبلوغ هذه الغاية كانت اشدها هولاً وقد حصلت في اواسط شهر حزيران (يونيو) سنة ١٨٣٨ فاستمرت اكثر من اثنتي عشرة ساعة اضطر الدروز بعدها الى نقل ميدان القتال الاكبر الى بلاد وادي التيم وخرج بعضهم من اللجاة نظراً لاشتداد الحر وقلة المياه [1]

ميدان القتال في وادي التيم : لما اخذ ثوار الدروز في اللجاة يشعرون بالضنك بسبب شدة الحر وجفاف المياه وتضييق نطاق الحصار عزموا على اذكاء نار الفتنة في ميدان جديد يوجب على ابرهيم باشا رفع الضغط عن اللجاة . فخرج شبلي اغا العريان من اللجاة بنحو مائتي مقاتل قاصداً الى بلدته راشيا وهاجم سراي الحكومة وقتل المتسلم المقيم فيها [2] فلما اتصل الخبر بحكومة الشام وجهت عليه فرقة من الجند مؤلفة من الف مقاتل واردفتها بماية من رجال المدفعية وبعض المدافع . فالفرقة الاولى نازلها الدروز والجأوها الى الاعتصام بقلعة راشيا [3] فحوصرت فيها . اما رجال المدفعية فلم يتمكنوا من دخول القلعة لان الدروز حالوا ما بينهم وبينها فلجأوا الى موقع منيع يرتفع تصعب مهاجمتهم فيه نهاراً . فبيتهم الدروز فيه وفي اثناء الليل هاجموهم بشدة فقتلوا من قتلوا واخذوا عدداً

---

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٦٢

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٣٩ ومخطوطة ابي دبس
Memoirs of Lady Hester Stanhope, Vol. 3, P. 230

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٤٠ ومخطوطة ابي دبس

من الاسرى واستولوا على ما كان في حوزتهم من المدافع والذخائر وغيرها [١] اما الفرقة التي كانت معتصمة بالقلعة فاشتد بها الضيق لان الدروز حالوا دون وصول المؤن اليها ففرت ذات ليلة نحو البقاع ولما شعر الدروز بفرارها تعقبوها وفتكوا بها واستولوا على اسلحتها وامتعتها [٢]

فالانتصارات التي حازها شبلي العريان والدعوة التي بثها في وادي التيم وجبل لبنان حملت عدداً كبيراً من دروز وادي التيم على الالتحاق به [٣] وانضم اليهم ما يزيد على الف رجل من لبنان بقيادة الشيخ حسن جنبلاط والشيخ ناصر الدين العماد وبلغ ابراهيم باشا تحرج الاحوال في وادي التيم فنهض من حوران في ١٩ حزيران عائداً الى دمشق ومنها انتقل الى جهات [٤] راشيا وامر مصطفى باشا ان يوافيه الى وادي التيم عن طريق الديماس [٥] وكتب الى الامير بشير شهاب حاكم جبل لبنان ليجمع اربعة الاف مقاتل من نصارى الجبل ويسلمهم اسلحة ويوجههم الى حاصبيا بقيادة ولده الامير خليل [٦]. وصل ابرهيم باشا بجنوده الى بلاد راشيا فنزل في سهل قرية عيحا وتحصن الدروز في غابة واقعة تجاه معسكره فجرى بين الفريقين قتال لم يأت بنتيجة حاسمة [٧]

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٤٠ و ١٤١ ومخطوطة المجري
(٢) مخطوطة ابي دبس ومخطوطة المجري
(٣) مذكرات تاريخية ص ١٣٩
(٤) مذكرات تاريخية ص ١٤٣
(٥) مذكرات تاريخية ص ١٤٦
(٦) اخبار الاعيان ص ٥٨٥
(٧) اخبار الاعيان ص ٥٨٥ ومخطوطة المجري

وفي ذات يوم بلغ الدروز ان مقادير عظيمة من الذخائر واردة على العسكر عن طريق وادي بكا[1] وكان ارسال هذه الذخيرة شركاً نصبه ابراهيم باشا للدروز ثم دس اليهم خبرها بواسطة جواسيسه فانطلت حيلته عليهم وانفذ الشيخان حسن جنبلاط وناصر الدين العماد ثلثماية مقاتل من رجالهما ليرابطوا في الطريق المذكور وكان مصطفى باشا قد وصل الى الديماس فمكث فيها ليستعد لمقابلة العدو فاستبطأه ابراهيم باشا وارسل فرقة كشافه لتبحث عنه وتستقدمه اليه · اما هو فتقدم ببعض عسكره الى قرية حلوى فظهر الثوار في مكان وعر ما بين ينطا وحلوى فنشب القتال بينه وبينهم[2] فبادر الشيخ ناصر الدين عماد بثلثماية مقاتل وتبعه الشيخ حسن جنبلاط باربعماية وخمسين مقاتلاً[3] لنجدة اخوانهم فكانت بين الفريقين معركة هائلة استمرت اربع ساعات وصل بعدها مصطفى باشا بجنوده الالبانيين واصبح الدروز بين نارين[4] غير ان ذلك لم يزدهم الا استبسالاً فقاتلوا قتال المستميت حتى اوشك الجنود ان يركنوا الى الفرار غير ان قوادهم استلوا سيوفهم واخذوا في[5] تحريضهم وتشجيعهم على القتال واصلوا الدروز ناراً دائمة فصمد الدروز في مكان منيع حتى فرغت ذخيرتهم فعمدوا الى رشق اعدائهم بالحجارة

---

(١) اخبار الاعيان ص ٥٨٥ ومخطوطة المعجري
(٢) مذكرات تاريخية ص ١٤٧
(٣) اخبار الاعيان ص ٥٨٦
(٤) مذكرات تاريخية ص ١٤٧
(٥) اخبار الاعيان ص ٥٨٦

ومهاجتهم بالاسلحة الحادة [١] وكان الشيخ ناصر الدين عماد في مقدمة رجاله يجول في الاعداء بسيفه واخيراً خرَّ صريعاً بعد ان اثخن بالجراح ولم ينج من رجاله سوى نحو خمسين رجلاً [٢] شقوا صفوف الاعداء بسيوفهم ورأى الشيخ حسن جنبلاط ان لافائدة ترجى من زيادة التغرير برجاله الذين كان قد قتل منهم مابة وثلاثون رجلاً ففر بالباقين الى قرية شبعا [٣] عند جبل الشيخ . وكان سرور ابراهيم باشا عظيماً للانتصار في هذه الموقعة رغماً عن الخسائر الجسيمة التي اصابت جنوده فيها لانها تعتبر موقعة حاسمة مهدت السبيل لاستسلام دروز وادي التيم وثوار اللجاة .

وقعة جنعم واستسلام دروز وادي التيم : ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٨

احتشد الدروز بعد وقعة وادي بكا في ارض جنعم الواقعة في مكان مرتفع بقرب بلدة شبعا ما بين جبل الشيخ والجبل الوسطاني الذي يفصلهما عن حاصبيا [٤] وكان ابراهيم باشا قد عاد بجيشه الى سهل عيحا ومعه مصطفى باشا . وكان الامير خليل نازلاً برجاله اللبنانيين في حاصبيا . ومتولي شؤون ايالة صيدا والعساكر النابلسية نزلوا في قمة بانياس [٥] جنوبي موقع الدروز بينما كان جبل الشيخ واقفاً سداً في وجههم من

---

(١) مخطوطة مشاقة ص ٢٦٣
(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٦٣ واخبار الاعيان ص ٥٨٦ و ٥٨٧
(٣) اخبار الاعيان ٥٨٧
(٤) مخطوطة مشاقة ص ٢٦٣ مخطوطة ابي دبس
(٥) مخطوطة ابي دبس

الجهة الشرقية فعزم ابراهيم باشا على مهاجمة موقع الدروز صباحاً بهذه الفرق من ثلاث جهات وارسل اوامره الى النابلسيين واللبنانيين ان ينتقلوا ليلاً الى قرب جنعم لتزحف جميع القوات على الدروز في ساعة معينة صباحاً ودرى شبلي آغا العريان بتأهب ابراهيم باشا لمهاجمتهم فرتب رجاله للقتال واقام الرقباء في الجهات المعرضة للهجوم · وفي الصباح تقدمت فرقة الامير خليل للهجوم فأمهل الدروز طلائعها حتى صعدت الجبل وفاجأوها بهجوم شديد فانهزمت من امامهم وهزمت اصحابها القادمين على اثرهم فارتدوا الى قرب حاصبيا[1] كذلك الدروز المرابطون امام النابلسيين فانهم ردوا مهاجميهم على اعقابهم الى قرب بانياس[2] اما الجنود التي كان يقودها ابراهيم باشا ومصطفى باشا فتغلبت على الدروز بعد قتال عنيف استمر الى صباح اليوم التالي ٢٤ تموز سنة ١٨٣٨[3] اذ اوفد دروز بلاد حاصبيا وراشيا الشيخ حسن البيطار من عقال راشيا يعرضون على ابراهيم باشا استعدادهم للتسليم فعفا ابراهيم باشا عنهم على ان يسلموا اسلحتهم فسلموا نحو اربعماية بندقية وأذن لهم بالرجوع الى اوطانهم[4] وعاد ابراهيم باشا بعسكره الى قطنا · اما دروز لبنان وشبلي آغا العريان و بعض اقاربه فأبوا التسليم[5] وانضم بعضهم الى ثوار

---

(١) مخطوطه ابي دبس ومخطوطه مشاقه ص ٢٦٤

(٢) مخطوطه ابي دبس واخبار الاعيان ص ٥٨٧

(٣) مخطوطة ابي ذبس و Laurent, T. I, PP. 7-8

(٤) مخطوطه مشاقه ص٢٦٥ ومخطوطه ابي دبس

(٥) مخطوطه الهجري

اللجاة . وكان ابراهيم باشا يعلم ان لا سبيل الى استقرار السكينة والامن في البلاد الا باستسلام شبلي العريان او القبض عليه فبث الجنود للبحث عنه ومطاردته فكانوا كلما تعقبوه الى مكان معلوم وظنوا انه اصبح في قبضة ايديهم يفلت منهم وينتقل الى مكان آخر[1] واخيراً رأى شبلي العريان ان لا فائدة ترجى من تماديه على العصيان وعلم ان ابراهيم باشا راغب في العفو عنه فتقدم اليه طائعاً في ٩ آب سنة ١٨٣٨ فعامله ابراهيم باشا بكل اكرام[2] وابقى له سلاحه وعينه قائداً لفرقة غير نظامية .

تسليم دروز حوران : بعد تسليم دروز وادي التيم انحصرت الثورة في اللجاة وكان ثوار اللجاة بعد انتقال ابراهيم باشا بفريق كبير من جنوده الى وادي التيم والتحاق مصطفى باشا به قد خف الضغط عليهم فاشتد بأسهم وعادوا الى شن الغارات على ما جاورهم من قرى حوران فغزوا قريتي اذرع ومحجة ونهبوا مقادير كبيرة من الحنطة[3] وهددوا ابناء السبيل ففقد الامن وصار خط مواصلات الجيش معرضاً للاخطار . وكانت حركات الجيش العثماني بجوار الحدود السورية الشمالية محاطة بالشكوك والابهام منذرة بتجدد النزاع ما بين السلطان محمود ومحمد علي

---

(١) مذكرات تاريخية ص ١٥٨ — ١٦٠

(٢) مذكرات تاريخية ص ١٦١ — ١٦٢ ومخطوطه مشاقه ص ٢٧٠ و ٢٧١
Laurent T.1, P 7
و Nezib & Beyrout, P. 152 ومخطوطه ابي دبس

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٦٠

كما ان السوريين في جميع انحاء البلاد ضعف اخلاصهم لحكومة محمد علي لما انزلت بهم من المحن فصاروا يفضلون عود الحكم العثماني لانه اهون الشرّين . فالخطر الذي كان يهدد ابراهيم باشا في داخل البلاد وخارجها جعله راغباً في تسوية المسألة الحورانية سريعاً وهذا ما جعله كثير التسامح مع دروز وادي التيم فلم يكلفهم سوى تسليم السلاح واكرم قائدهم شبلي اغا العريان وعمد الى اتباع الخطة نفسها في معاملة دروز حوران فاصدر امره بالعفو عنهم ولم يكلفهم سوى تقديم قسم من السلاح الذي استولوا عليه . وكان حينئذ شريف باشا في حوران فأنفذ اليه ابراهيم باشا الشيخ حسن البيطار الذي توسط قبلاً في تسليم دروز وادي التيم والشيخ جرجس ابي دبس من رجال الامير بشير الذي كان مرافقاً لابراهيم باشا . فذهب المذكوران الى مقر شريف باشا ليكونا وسيطين ما بينه وبين دروز اللجاة[1] . وكان هؤلاء راغبين في المسالمة لما اصابهم من الضنك بسبب قلة المياه وطول امد القتال فجرت مفاوضات التسليم بسهولة وسرعة وقدم زعماء الدروز مع الوسيطين الى معسكر شريف باشا مظهرين خضوعهم وقدموا له سبعماية بندقية من سلاحهم والفي بندقية مما استولوا عليه من سلاح جيش ابراهيم باشا[2] . وتعهدت الحكومة بان تعفيهم من التجنيد والسخرة والضرائب واذنت لهم بحمل السلاح وبان يكون لهم حق انتخاب شيوخهم

(١) مخطوطة جرجس ابي دبس (٢) مخطوطة جرجس ابي دبس

كما انها وعدت بعدم اقامة تحصينات في بلادهم"[١] .

هكذا انتهت الثورة الدرزية في ٢٢ آب (اغسطس) سنة ١٨٣٨ بعد مضي تسعة شهور من نشوبها ولم يبلغ ابراهيم باشا الغاية التي حارب من اجلها بل كانت عواقبها على غير ما يريد من الوجهتين العسكرية والسياسية .

Deux Années de l'Histoire d'Orient T. P. 139 (١).

بين اتفاق كوتاهية وموقعة نزب

ان السلطان محمود رضي مكرهاً بمعاهدة كوتاهية المنعقدة ١٨٣٣ التي قضت بوضع سوريا ومنطقة ادنة تحت حكم محمد علي وبقيت نفسه تحدثه بوجوب استرجاعها نظراً لعظم اهميتها للسلطنة العثمانية ولان انتصارات ابرهيم باشا على جنوده حطت من هيبته وسطوة جيشه فعمد في ربيع سنة ١٨٣٤ الى حشد جيش في سيواس [1] تأهباً لغزو سوريا متى سنحت له الفرصة وأنس في نفسه القدرة على ذلك · وكان يقوم بتدريب هذا الجيش ضباط بروسيون وهم ملباخ (Mulbech) وفشر (Fisher) وفون ونك (Von Winke) والبارون فون مولتك (Von Moltke) وتسلم قيادته محمد رشيد باشا الذي قاد الجيش العثماني في موقعة قونية ووقع اسيراً في اثنائها فبقي صدره يغلي حقداً على ابراهيم باشا فاستعداداً للطوارىء حصن ابراهيم باشا الحدود الشمالية واقام حاميات في الرقة ولورفا [2] لاجل مراقبة حركات العثمانيين وحشد معظم جيشه في شمالي سوريا وجعل انطاكية مقره العام ليكون قريباً من موقع الخطر · مرت السنون وكل من الجيشين واقف بازاء الآخر [3] ولم يقم العثمانيون

(١) Mouriez, T. 3, P. 263 و Gouin, P. 426

(٢) Soliman Pacha, P. 265

(٣) Mouriez, T. 3, P. 263

بحركات عدائية رغماً عن شدة رغبتهم في الانتقام لانهم كانوا يشعرون بالعجز عن منازلة جيش ابراهيم باشا غير ان السلطان محمود لم يفتر عن العمل سراً على اثارة اهالي البلاد السورية وصادفت تحريضات دعاته آذاناً صاغية لان حكومة محمد علي كانت قد احرجت السوريين لما فرضته عليهم من التكاليف الفادحة فثاروا عليها وبقي ابراهيم باشا من سنة ١٨٣٤ الى ١٨٣٩ مشتغلاً بتسكين الاضطرابات واخماد نار الثورات [1] وكان من الجهة العثمانية ان الاكراد القاطنين في المنطقة العثمانية بقرب الحدود السورية ثاروا على السلطان محمود وكانت الحكومة العثمانية تتهم حكومة محمد علي بتحريضهم على الثورة وامدادهم بالذخيرة والسلاح [2] فتولى رشيد باشا امر اخضاعهم لكنه توفي [3] في كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٣٧ قبل ان يتمكن من القضاء على ثورتهم فخلفه محمد حافظ باشا [4] في الشهر التالي وبعد وقائع عديدة تغلب عليهم في شهر آب من تلك السنة

وفي السنة عينها أوفد صارم افندي [5] احد رجال الوزارة الخارجية العثمانية من الاستانة الى مصر لمفاوضة محمد علي وعقد اتفاق معه فاخفق في ما انتدب اليه وقيل ان سبب اخفاقه تجاوزه الشروط المفوض اليه

---

(١) Clot-Bey. T. I, P. LXXVI
(٢) B. Poujoulat. T. I, P. 493
(٣) المؤلف والجزء نفسه ص ٣٧٥
(٤) المؤلف والجزء نفسه ص ٣٨٤
(٥) Gouin, P. 425 و Soliman Pacha, PP. 278-279

الاتفاق عليها مع محمد علي فرضي بمنحه الحكم الوراثي على البلاد التي تحتلها جنوده وان تكون جبال طوروس الحد الفاصل بينه وبين تركيا[١] مع انه لم يفوض اليه التنازل عن اي شيء من البلاد الواقعة ما وراء ايالتي صيدا وطرابلس الشام · فبعد عودة صارهم افندي الى عاصمة السلطنة واستئناف المخابرة ما بين محمد علي ورجال الاستانة لم يوافق هؤلاء على التخلي له عما سوى ايالتي صيدا وطرابلس وهذا يحرمه حدوداً طبيعية صالحة للدفاع عن بلاده[٢] فاتخذ محمد علي موقف رجال السلطنة دليلاً على اصرار السلطان محمود على معاداته لا سيما وانه رغماً عن تغلب حافظ باشا على الثوار الاكراد بقرب الحدود السورية استمر على امداده بالجنود التي لم تكن ثمة حاجة اليها الا لمقصد عدائي نحو البلاد السورية · وقيل ان اللورد بونسونبي سفير انكلترا في الاستانة الذي كان يظهر للسفراء زملائه رغبته في السلام كان يحرض[٣] السلطان محمود سراً على محاربة محمد علي ويمتدح كفاءة الجنود العثمانية واقتدارهم على سحق قوات محمد علي · الا ان السلطان احجم في بادىء الرأي عن فتح باب النزاع واقتصر على الاستعداد والمرجح انه لم يكن واثقاً من مقدرة جيشه على الانتصار ولا من وقوف الدول الاوربية بجانبه اذا اصابه الفشل · وثار في اثناء ذلك دروز حوران على حكومة محمد

(١) Soliman Pacha P. 270

(٢) Soliman Pacha, P. 279

(٣) Deux Années de l'Histoire d'Orient, Vol. I, P. 120 , Mouriez, T. 3, P. 355

علي واستمرت ثورتهم تسعة شهور انتهت في آب سنة ١٨٣٨ فكانت هــذه الثورة من انسب الفرص لهجوم الاتراك على سوريا لان عدداً كبيراً من جنود ابراهيم باشا كان مشتغلاً باخمادها وقتـــل في اثنائها كثيرون من قوادهم وضباطهم ونحو عشرة[1] الاف من خيرة الجنود وجرح احمد منيكلي باشا جراحاً خطرة فاضطر اخيراً سليمان باشا وابرهيم باشا ان يتوليا قيــادة جنود الحملة بانفسهم وملأ الخوف قلوب جنودهم بسبب الانكسارات الهائلة التي اصابتهم . وانتشرت الاخبار المشجعة على الانتقاض على حكومة محمد علي في جميع انحاء سوريا فلو هاجم الاتراك جيش ابراهيم باشا في ذلك الوقت لوجدوه على جانب من الضعف ولتلقاهم كثيرون من السوريين بالترحاب واتحدوا معهم على مقاتلة الجنود المصرية . غير ان الجيش العثماني لم يكن مستعداً حينئذٍ لخوض غمــار حرب كهذه لان فصل الشتاء في تلك السنة كان برده قارساً وكسوة الجنود العثمانية كانت خفيفة فتفشت الدوسنطاريا والتيفوس[2] ففتكت بصفوفهم فتكاً ذريعاً وشح ورود المؤن عليهم بسبب الثلوج والجليـــد فاضطر حافظ باشا الى توزيع جنوده في اماكن متباعدة ليتمكنوا من الحصول على ما يحتاجون اليـــه من المؤن من الجهات التي نزلوا فيها او القريبة منها زد على ذلك ان الحكومة العثمانية لم تكن واثقة حينئذٍ من مساعدة انكلترا لها فيما لو انتصرت جنود ابراهيم باشا على جنودها . انما

---

(١) Deux Années Etc. Vol. I, P. 139 و Gouin, P. 426

(٢) Gouin. P. 426

المفاوضات كانت دائرة بين الدولتين لوضع خطة لمقاومة محمد علي . وفي ١٧ آب ١٨٣٨ وهو نفس الشهر الذي انتهت فيه ثورة الدروز في حوران ووادي التيم عقدت معاهدة بين الدولة العثمانية وانكلترا تقضي بالغاء الاحتكار [1] من جميع البلاد العثمانية وغيرها من البلاد الواقعة تحت حكم عزيز مصر . والذي وضع اساس هذه المعاهدة هو المستر اركوهارت [2] (Urquhart) من رجال السفارة الانكليزية في الاستانة وكان واسع الخبرة بالشؤون العثمانية عظيم التأثير على اللورد بونسونبي سفير دولته وكان الغرض الاهم من هذه المعاهدة اقامة الصعوبات في وجه [3] محمد علي لانه كان محتكراً الاتجار بمحصولات ومصنوعات البلاد الواقعة تحت حكمه وبما ان الغاء الاحتكار يفيد رعايا الدول الاوربية وافقت فرنسا في ٢٣ تشرين ثاني (نوفبر) سنة ١٨٣٨ على هذه المعاهدة [4] التي جاءت كسيف ذي حدين اذا خضع لها محمد علي اضاع مبلغاً جسيماً من دخل خزينته واذا رفض العمل بمقتضاها خسر عطف ومعونة صديقته فرنسا ووجدت تركيا وانكلترا ومن انضم اليهما من الدول مبرراً للاتحاد على مقاومته بكل وسيلة ممكنة اما محمد علي وهو الرجل الواسع الحيلة فلم يحرم وسيلة لاجتناب عواقب هذه المعاهدة ولو الى

---

(١) Mouriez, T. 3, PP. 344-347

(٢) Deux Années de l'Histoire d'Orient, T. I, P. 96

(٣) Clot-Bey, T. I, P. LXXVI

(٤) Mouriez, T. 3, P. 359

حين . فحتى يثبت للملاء رغبته في السلام ويلقي تبعة تكديره على سواه قام برحلة الى السودان لتدبير شؤونه ونفقد معادن الذهب في بلاد النوبة وفيزوغلي فغاب عن القاهرة من ١٥ تشرين اول سنة ١٨٣٨ [١] الى ١٥ اذار سنة ١٨٣٩ [٢] واجتنب في اثناء ذلك مطالبته بالجزية السنوية التي كان قد امتنع عن دفعها . ويروى ان اهم ما حمله على السفر الى السودان هو امله بالحصول على الذهب الذي كان يرى فيه افضل وسيلة لحل المشكلات . فقد كان يعتقد اعتقاداً مبنياً على الاختبار ان الذهب افعل من السحر في دوائر الاستانة . ومما يروى عنه انه قال مرة لبعض المقربين منه : « اني اذا ظفرت بالذهب استطيع ازالة اسباب النزاع مع الباب العالي بلا وساطة احد وبدون استخدام الاساطيل والجنود [٣] » . غير انه عاد من السودان وقد خابت آماله في معادن الذهب لان نفقات العمل كانت توازي قيمة ما يستخرجونه من الذهب [٤] كما انه وجد الموقف السياسي قد ازداد خطورة لان السلطان لم يفتر عن تجهيز معدات الحرب استعداداً لمهاجمة سوريا فكان على اتصال دائم بحافظ باشا قائد جيشه على الحدود السورية يرسل [٥] اليه التعليمات مباشرة . ويتلقى منه المعلومات عن حالة الجيش وموقف اهل البلاد

---

(١) Mouriez, T. 3, P. 352

(٢) Deux Années de l'Histoire d'Orient, T. I, P. 78

(٣) Soliman Pacha P. 281

(٤) Deux Années de l'Histoire d'Orient, T. I, P. 121

(٥) المؤلف والجزء نفسه ص ٢٧٩

القريبين من الحدود وقد وجد ابراهيم باشا بين اوراق حافظ باشا بعد الانتصار في موقعة نزيب والاستيلاء على مضارب الجيش العثماني التعليمات الخاصة بالخطة التي رسمها السلطان محمود لاجل استمالة الزعماء السوريين وضباط الجيش المصري الى جانب الحكومة العثمانية وعن التأهبات لغزو[1] سوريا ومصر · وكان حافظ باشا قد صار شديد الثقة بجيشه موقناً ان السوريين سيثورون على حكومة محمد علي — فهذه الاسباب وتشجيع سفير انكلترا في الاستانة سراً وشدة ميل السلطان محمود الى الانتقام حملته على فتح باب النزاع الذي ادى الى موقعة نزيب · وبازاء تأهبات السلطان للقتال اخذ محمد علي يرسل الامداد تلو الامداد لجيشه في سوريا وسداً لنفقات الجيش جمع فريضة الروس عن سنتين دفعة واحدة وزاد[2] قيمتها · وحوّل لاجل النفقات الحربية ثلاثة ملايين قرش كانت قد جُمعت لاجل انشاء بنك اهلي ونقل بعض النفقات التي كانت مقررة لاجل ارباب الوظائف الى ما يلزم لنفقات الجيش[3] — وكان ابرهيم باشا مطمئن البال من الوجهة الحربية لان تفوق جيشه في الدربة والنظام يرجع كفته على كفة الجيوش العثمانية التي كانت اقل منه دربة ولم يكن يخشى انتقاض السوريين لان الامير بشير ورجاله اللبنانيين كانوا في جانبه يساعدون على حفظ خط المواصلات ودروز حوران ووادي

---

(١) Napier, C, Vol. 2 PP. 299-302

(٢) Deux Années de l'Histoire d'Orient, P. 121

(٣) المؤلف نفسه ص ١٢٢

التيم اخلدوا الى السكينة لانه عاملهم بمنتهى التسامح واللين واكرم شبلي العريان احد قوادهم غاية الاكرام وعينه قائداً لفرقة من المتطوعين وصار يقاتل في صفوفه واكدت قبائل عنزة اخلاصها له وتعهدت بصد هجوم عربان بني جربة من جهة العراق لانه كان بينها و بينهم عداء قديم [1] -

اما حافظ باشا الذي كان قد جعل ملطية مقره العام بعد اخماد ثورة الاكراد وفرق جيشه في اماكن متعددة لتسهيل امر تموينها فانه اخذ في جمعها عند حلول فصل الربيع وحشدها في بلدة سميساط [2] وكانت احدى بوادر العدوان من جانبه منع سير القوافل والمعاملات التجارية مع البلاد الواقعة تحت حكم محمد علي فقابل ابراهيم باشا عمل حافظ باشا بمثله [3] واثار دعاة حافظ باشا الاهالي المسيحيين القاطنين في البلاد الجبلية في مقاطعة بياس بقرب الاسكندرونه فوجه ابراهيم باشا عليهم قوة [4] مؤلفة من سبعة الاف مقاتل فاقتصت منهم واخمدت ثورتهم

وتقدمت فرقة من الجيش العثماني مؤلفة من ثلاث ألايات يقودها اسماعيل باشا فاجتازت نهر الفرات الى البيرة الواقعة على ضفته اليمنى وحفر فيها الخنادق [5] فاتصل خبر ذلك بابراهيم باشا في ٢٣ نيسان

---

(١) Soliman Pacha P. 306
(٢) المؤلف نفسه ص ٢٩٦
(٣) Deux Années de l'histoire d'Orient T. I, PP. 126-127
(٤) Gouin P. 456
(٥) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, P. 127

سنة ١٨٣٩ والبيرة واقعة على مسيرة بضع ساعات من الحدود التركية السورية فلم يبق عنده ريب في قرب شبوب نار القتال فاسرع الى تبليغ والده عن حركات الجنود العثمانية وحشد جيشه في حلب. وكانت قوة من جيشه مرابطة في قولاق بوغاز وحامية صغيرة في قلعة عينتاب لمراقبة حركات العدو[1]. وحفظاً لمواصلاته مع جنوبي سوريا وضع في حماة ألا يين من الخيالة واربعة وعشرين مدفعاً والفي مقاتل من عرب المنادي يقودهم قفطان بك من مماليك ابراهيم باشا المخلصين وبعضد هذه القوة الامير بشير حاكم جبل لبنان الذي نزل برجاله اللبنانيين بجوار حمص ومعهم ستماية مقاتل من الالبانيين[2] ورمم اسوار عكا وتأهب تأهباً تاماً للقاء العدو

تدخل السفراء والقناصل الاوربيين : بعد ظهور بوادر العداء من الجانبين تدخل سفراء الدول الاوربية في الاستانة وقناصلهم في مصر لمنع وقوع الحرب بين السلطان وعزيز مصر فكان كل منهما يؤكد للوسطاء ان نواياه سلمية حتى ان الاميرال روسان (Roussin) سفير فرنسا في الاستانة اقنع ان السلطان محمود سيجتنب فتح باب النزاع فكتب الى قنصل دولته في مصر يخبره انه حصل على وعد من السلطان انه سيحافظ على السلام ومما قاله في كتابه : « ان فرنسا قد قالت كلمتها

---

(١) Gouin P. 426

(٢) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, PP. 120-121

فوجدت اذناً صاغية »[١] وكان محمد علي لما بلغه تقدم الجنود العثمانية نحو الحدود واجتياز بعضها نهر الفرات الى ضفته اليمنى قد عوّل على انفاذ احمد منكلي باشا ناظر حربيته الى سوريا لينضم الى ابراهيم باشا فلما اتصل هذا الخبر بقنصل فرنسا في مصر اسرع الى مقابلة محمد علي والاحتجاج على ارسال احمد منكلي باشا الى سوريا لان ارسال ناظر الحربية يدل على نية عدائية فأجاب محمد علي انه مستعد لابقاء احمد منكلي باشا في مصر بل لاستدعاء ابراهيم باشا من حلب اذا كان القنصل يكفل له عدم تقدم جنود السلطان نحو الحدود فلم يتردد القنصل في الاجابة انه يكفل ذلك وابرز له كتاب السفير الذي يقول فيه ان السلطان وعده بالمحافظة على السلم · فالتفت محمد علي الى قنصل النمسا الذي كان حاضراً عندئذٍ وسأله عما اذا كان هو ايضاً يؤيد ما قاله قنصل فرنسا فأجاب القنصل النمساوي بالنفي لان المعلومات التي بلغته من سفارة دولته في الاستانة تخالف المعلومات التي تلقاها قنصل فرنسا وكان لدى محمد علي انباء سرّية تتفق مع ما ورد على قنصل النمسا فعلى اثر ذلك فضّ محمد علي الاجتماع قائلاً ان تناقض الاخبار الواردة على القنصلين وما بلغه عما هو جار في الاستانة يوجبان عليه اتخاذ وسائل الاحتياط وارسل من فوره احمد منكلي باشا الى حلب[٢] · على ان قناصل الدول لم يكفوا عن مراجعة محمد علي والالحاح عليه بوجوب

---

(١) Soliman Pacha P. 297

(٢) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, pp. 123-124

المحافظة على السلم والدخول في طاعة السلطان ودفع الجزية السنوية وابعاد جنوده عن الحدود . واخيراً كتب اليهم في ١٦ ايار (مايو) سنة ١٨٣٩ متعهداً ان اذا ارتدت جنود السلطان عن البيرة الى ضفة الفرات اليسرى تنسحب جنوده الى الوراء ويعود ابراهيم باشا الى دمشق واذا أتبعت هذه الخطوة السلمية بتقهقر جيش حافظ باشا الى ما وراء ملطية فهو يعيد ابراهيم باشا الى مصر . وزاد على ذلك ان اذا رضيت الدول الاربع العظمى ان تضمن له السلم وتساعده على جعل الحكم وراثياً في سلالته فانه يسحب قسماً من جيشه من سوريا ويكون مستعداً للاتفاق على وضع خطة نهائية تقر السكينة وتناسب حاجات البلاد[1] . على ان كل المفاوضات التي دارت في الاستانة ومصر لم تأت بنتيجة سلمية ولو كانت جميع الدول الاوربية التي تدخلت في الامر صادقة النية والعزيمة على منع الحرب لما عجزت عنه . ذكرنا قبلاً ان حافظ باشا حشد جيشه في سمياط وكان ذلك مقدمة لزحفه جنوباً نحو الحدود السورية فعبر الفرات في ١٧ ايار سنة ١٨٣٩ وخيم في نزيب في ٢٢ منه[2] .

ان نزيب واقعة في الاراضي العثمانية لكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية وموقعها الطبيعي منيع جداً فتقدم قائد الجيش العام اليها وارتكازه فيها بجيش عظيم ليس مما تخفى غايته

---

(١) Soliman Pacha pp. 301-303

(٢) Gouin P. 427

العدائية ولا هو يقبل التأويل . بل ان حافظ باشا لم يكتم مقاصده بعد ذلك اذ ارسل الف خيال الى قرية مزار الواقعة تجاه نزب وعلى مسيرة ساعتين منها وهي قريبة من الحدود السورية وتقدم قسم من الخيالة ايضاً الى بلدة أورول الواقعة على الحدود فاحتلها [1] وتقدم سليمان باشا حاكم مرعش العثماني الى عينتاب التي كانت في قلعتها كتيبة من جيش ابراهيم باشا واحتلت الجنود العثمانية قرى عديدة ما حول عينتاب منها قزل حصار وكلس في البلاد السورية واخذوا في استمالة الاهالي بتوزيع الهدايا والاموال وتحريضهم على الانتقاض على حكومة محمد علي [2]

اتصل خبر هذه الحركات العدائية بابراهيم باشا وهو في حلب فلم يرَ بداً من المبادرة الى صدّ تقدم الاتراك في الاراضي السورية فبارح حلب في ٢٩ ايار سنة ١٨٣٩ بقسم من جيشه مؤلف من سبع فرق خيالة واثنتي عشرة بطارية من المدفعية السيارة [3] ولم يبتعد في سيره الا قليلاً حتى بلغه وقوع اعتداء جديد على الحدود السورية اذ اجتازت قوة تركية مؤلفة من خمس مفرزات خيالة نهر الساجور وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا من الجهة الشمالية الشرقية وهاجمت قرية تل باشر الواقعة على الضفة اليمنى وكانت تؤيد هذه الخيالة قوة من

---

(١) Mouriez; T. 3, P. 384 & Deux Années Etc. T. I. pp. 158-159

(٢) Gouin PP. 454-455

(٣) Soliman Pacha P. 306

المشاة فتغلبوا على الحامية المؤلفة من خمسماية من عرب المنادي بقيادة معجون محمد بك فانهزم المنادي تاركين وراءهم سبعين اسيراً وعدداً من القتلى واحتل العدو قرية تل باشر وغيرها من القرى السورية المجاورة[١] فارسل ابراهيم باشا امراً الى سليمان باشا الفرنساوي ليبادر بسائر الجيش النازل في حلب الى الالتحاق به وكان قوام هذه القوة من الجيش ثلاث عشرة فرقة من المشاة وخمس عشرة بطارية مدافع فصدع سليمان باشا بالامر ولم يبق في حلب سوى مدفع واحد[٢] لان ابراهيم باشا كان واثقاً من اخلاص الحلبيين

وفي ٣ حزيران سنة ١٨٣٩ تقدم ابراهيم باشا بخياله الى تل باشر فاخلاها الاتراك بدون قتال واخلوا غيرها من القرى السورية فاكتفى ابراهيم باشا بذلك ولم يتعقبهم الى الاراضي التركية طوعاً لاوامر والده التي كانت تحتم عليه التزام خطة الدفاع مراعاة لمشيئة الدول الاوربية التي كان ممثلوها يلحون عليه باجتناب كل ما يكدر صفو السلم[٣]

وفي ٤ حزيران كتب ابراهيم باشا الى والده يخبره مفصلاً عن اعتداآت الاتراك على الاراضي السورية وتسليحهم الاهالي وتحريضهم اياهم على الثورة وطلب منه التعليمات[٤] كما انه كتب الى حافظ باشا في ٨ حزيران محتجاً على تكرار الدسائس ضد الحكومة السورية والاعتداء

---

(١) Soliman Pacha, p. 306

(٢) المؤلف نفسه ص ٣٠٧

(٣) Soliman Pacha p. 307

(٤) المؤلف نفسه ص ٣٠٩

على الحدود · ومما قاله في ختام كتابه انه اذا كانت لديه اوامر بفتح باب العدوان فليتقدم علانية الى ساحة القتال لكنه يجب ان يعلم انه يهاجم رجالاً لا يعرفون الخوف ولا يصبرون على دسائسه طويلاً · فكان جواب حافظ باشا شيق العبارة غير ان اقواله لم تكن مطابقة لاعماله[١] اما محمد علي فلما بلغه اعتداء العثمانيين رفع عنه قناع الحذر والمداراة وكتب الى ابراهيم باشا في ٩ حزيران سنة ١٨٣٩ يأمره بالمبادرة الى طرد الجنود التركية من الاراضي السورية وان يتقدم الى منازلة جيشهم الاكبر واذا انتصر عليه يواصل الزحف على ملطية وخربوط واورفه وديار بكر[٢] وعندما تلقى ابراهيم باشا اوامر والده كان سليمان باشا قد سار بجيشه من حلب وخيم على بعد اربعة وعشرين ميلاً منها لتأخذ جنوده نصيباً من الراحة فامره ابراهيم باشا بالمبادرة الى الالتحاق به فاستأنف السير في ١٨ حزيران واجتمع بابراهيم باشا على ضفاف نهر الساجور[٣]

---

(١) Gouin P. 427

(٢) Soliman Pacha pp. 309-310

(٣) Soliman Pacha p. 310

موقعة نزب

٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩

يتبين من الفصل السابق ان المفاوضات والمناورات التي قام بها السفراء والقناصل في الاستانة ومصر تركت لحافظ باشا الحرية التامة في حركاته العسكرية وفي اختيار ساحة القتال دون ان يخشى تعرضاً من خصمه لان ابراهيم باشا كان مقيداً باوامر والده التي كانت في اثناء ذلك قاضية عليه بالتزام خطة الدفاع وعدم اجتياز الحدود لان محمد علي كان مضطراً الى مراعاة مشيئة الدول الاوربية حتى لا يُبقي عندهم شكاً بمحافظته على السلم ما استطاع اليه سبيلاً · ولولا ذلك لما مكن ابراهيم باشا خصمه من التقدم الى نِزب بدون مقاومة بل كان في وسعه اعتراضه عند اجتياز نهر الفرات بينما كان الجيش العثماني منقسماً الى شطرين على ضفتي الفرات ولاقى صعوبة عظمى في العبور · اما وقد كان لحافظ باشا ما اراد فانه اجتاز الفرات على مَهل وتقدم الى نِزب بدون معارضة لانها من البلاد التركية وقضى في تحصينها شهراً كاملاً · فلما تمادى العثمانيون في حركاتهم العدائية وورد على ابرهيم باشا امر والده بمهاجمتهم كان حافظ باشا قد فرغ من حفر الخنادق واقامة الاستحكامات في

على الحدود . ومما قاله في ختام كتابه انه اذا كانت لديه اوامر بفتح باب العدوان فليتقدم علانية الى ساحة القتال لكنه يجب ان يعلم انه يهاجم رجالاً لا يعرفون الخوف ولا يصبرون على دمائه طويلاً . فكان جواب حافظ باشا شيق العبارة غير ان اقواله لم تكن مطابقة لاعماله[١] اما محمد علي فلما بلغه اعتداء العثمانيين رفع عنه قناع الحذر والمداراة وكتب الى ابراهيم باشا في ٩ حزيران سنة ١٨٣٩ يأمره بالمبادرة الى طرد الجنود التركية من الاراضي السورية وان يتقدم الى منازلة جيشهم الاكبر واذا انتصر عليه يواصل الزحف على ملطية وخربوط واورفه وديار بكر[٢] وعندما تلقى ابراهيم باشا اوامر والده كان سليمان باشا قد سار بجيشه من حلب وخيم على بعد اربعة وعشرين ميلاً منها لتأخذ جنوده نصيباً من الراحة فامره ابراهيم باشا بالمبادرة الى الالتحاق به فاستأنف السير في ١٨ حزيران واجتمع بابراهيم باشا على ضفاف نهر الساجور[٣]

---

(١) Gouin P. 427

(٢) Soliman Pacha pp. 309-310

(٣) Soliman Pacha p. 310

موقعة نزب

٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩

يتبين من الفصل السابق ان المفاوضات والمشاورات التي قام بها السفراء والقناصل في الاستانة ومصر تركت لحافظ باشا الحرية التامة في حركاته العسكرية وفي اختيار ساحة القتال دون ان يخشى تعرضاً من خصمه لان ابراهيم باشا كان مقيداً باوامر والده التي كانت في اثناء ذلك قاضية عليه بالتزام خطة الدفاع وعدم اجتياز الحدود لان محمد علي كان مضطراً الى مراعاة مشيئة الدول الاوربية حتى لا يُبقي عندهم شكاً بمحافظته على السلم ما استطاع اليه سبيلاً . ولولا ذلك لما مكن ابراهيم باشا خصمه من التقدم الى نزب بدون مقاومة بل كان في وسعه اعتراضه عند اجتياز نهر الفرات بينما كان الجيش العثماني منقسماً الى شطرين على ضفتي الفرات ولاقى صعوبة عظمى في العبور . اما وقد كان لحافظ باشا ما اراد فانه اجتاز الفرات على مهل وتقدم الى نزب بدون معارضة لانها من البلاد التركية وقضى في تحصينها شهراً كاملاً . فلما تمادى العثمانيون في حركاتهم العدائية وورد على ابرهيم باشا امر والده بمهاجمتهم كان حافظ باشا قد فرغ من حفر الخنادق واقامة الاستحكامات في

نزب واطلق خيالته نحو الحدود اما هو فبقي متربصاً في نزب مع الجيش الذي هيأه للموقعة الكبرى ليستدرج ابراهيم باشا الى مهاجمته داخل حصونه ٠

موازنة بين الجيشين : ان احوال الجيشين العثماني والمصري كانت متشابهة من بعض الوجوه مختلفة من البعض الآخر ٠ فالجيشان اللذان تصادما في نزب كان عددهما متقاربا [1] ٠ فكان عدد رجال الجيش العثماني واحداً وثلاثين ألفاً من الجنود النظامية ونحو اربعة آلاف من الجنود الغير النظامية [2] بينما كان عدد رجال الجيش المصري نحو ثلاثين الفاً من النظاميين ونحو الفين غير نظاميين ٠ وهذا بيان القوات التي كان يتألف منها الجيشان [3] :

	جيش حافظ باشا	جيش ابراهيم باشا
مشاة	١٧ فرقة	١٤ فرقة
خيالة	٩ فرق	٨ فرق
مدفعية	٣٠٠ رجل	٤ فرق
مدافع	١٤٦	١٦٠
غير نظاميين	٤٠٠٠	٢٠٠٠

---

(١) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, P. 258

(٢) B. Poujoulot, T. I, p. 487 (تقرير المسيو Petit)

(٣) تقرير المسيو Petit في المؤلف نفسه وتقرير الـكابتان Caillé المنشور في كتاب « Cadalvene & Barrault » جزء ١ ص ٢٧٥ — ٢٨١
ان كدلفان وبارو قد جعلا الجيش العثماني في موقعة نزب ثمانية وثلاثين الفاً وجعلا جيش

وكان في الجيشين ضباط اوربيون ممتازون كسليمان باشا الفرنساوي (الكولونل ساف) في جيش ابراهيم باشا والبارون فون مولتك الشهير في جيش حافظ باشا · وبينما كان في جيش ابراهيم باشا عدد كبير من الجنود المجرّبة كان في جيش حافظ باشا جنود مشهورون بالبسالة · وكان الجيشان مسلحين تسليحاً جيداً ·

اما الفوارق بين الجيشين عند ابتداء الحركات العدائية فهي ان حافظ باشا كان قد اختار محل الموقعة · فمن الوجهة النظرية صار خصمه مكلفاً بمهاجمته في موقع منيع طبيعياً وازداد منعة باتقان تحصينه ودقة ترتيب الجيش المتأهب للقتال فيه · اما مزايا جيش ابراهيم باشا على جيش حافظ باشا فهي ان ضباط وجنود ابراهيم باشا كانوا ادق تدريباً من خصومهم كما انهم كانوا اكثر منهم تمرساً بالحروب ومعرفة بفنونها واعتياداً على تحمل المشقات[1] وكان ابراهيم باشا ومساعده سليمان باشا اشد اتفاقاً على خططهم الحربية وتنفيذها من حافظ باشا والبارون فون مولتك وغيره من الضباط الاوربيين · ومع ان حافظ باشا كان مقداماً وذا مقدرة لا تنكر فان ابراهيم باشا كان يفوقه حزماً واقداماً

ابرهيم باشا نحو اربعين الفاً — على ان بعض الرواة قد قدروا الجيش الشاني اكثر من ضعفي جيش ابرهيم باشا على ان هذا التقدير لا يصح على الجنود الشانية التي شهدت موقعة نزب وربما عنوا به الجيش الشاني والذي كان في الولايات الشانية من الاناضول الى بنداد لان خطة الشانيين كانت تقضي بمهاجمة سوريا من جهات مختلفة غير ان موقعة نزب احبطت تلك الخطة .

(1) Deux Années de l'histoire d'Orient, Vol, I, P. 259

وكان ارسخ منه قدماً في الفنون الحربية والادارة العسكرية · زد على ذلك ان تفوق ابراهيم باشا في ميادين القتال وامتياز مقامه السياسي والادبي جعل له في نفوس قواد جيشه مهابة واحتراماً لا يدانيه فيهما حافظ باشا الذي كان اكثر قواد جيشه صنائع كبار رجال الدولة العثمانية ولا يقدرون النظام العسكري حق قدره[1] وقد روى بعضهم حكاية تبين حالة الروح العسكرية في الجيشين وهي ان حافظ باشا سأل اسيراً من جنود ابراهيم باشا عما رآه في المعسكرين والح عليه بان يصدقه القول وبعد ان استوثق الاسير من حافظ باشا انه لا يمسه باذى اذا ذكر الحقيقة ولو كانت مؤلمة قال: ان معسكر ابراهيم باشا معسكر جنود اما معسكركم فهو كضارب الحجاج · فقد شاهدت في معسكر ابراهيم باشا البنادق والجنود بازائها والمدافع والى جانبها رجالها والخيول وبقربها فرسانها فلا تجد هناك سوى الجنود والسلاح وكل جندي ملازم محله اما معسكركم فقد رأيت اليهود والتجار والائمة والعلما منتشرين فيه · رأيت بعضهم منهمكاً بالبيع والشراء والبعض الآخر مشتغلاً بالتسبيح والدعاء وهذا الذي جعل معسكركم كضارب الحجاج[2]» — فسواء كانت هذه الحكاية حقيقية ام موضوعة فالشواهد التاريخية تدلنا على انها تمثل حالة الجيشين تمثيلاً صحيحاً —

ابراهيم باشا يجتاز الحدود : اجتمع سليمان باشا بابراهيم باشا على

---

(١) Deux Années Etc. pp. 261-262

(٢) Soliman Pacha pp. 207-308

ضفاف نهر الساجور فاكتمل باجتماعهما تجمع الجيش المعد لمهاجمة حافظ باشا · ونهر الساجور هو الحد الفاصل بين الاراضي السورية والاراضي التركية من الجهة الشمالية الشرقية فتقدما منه في ٢٠ حزيران بجيشهما نحو قرية مزار[١] وهي نقطة امامية من نقاط جيش حافظ باشا واقعة بازاء معسكره العام في نزّب وعلى مسيرة نحو ساعتين الى الجنوب الشرقي منها — كانت القوة التركية في مزار مؤلفة من فرقتين من الخيالة وعدد كبير من الجنود غير النظامية وثلاث مدافع · وموقع مزار يسهل الدفاع عنه لان الجيش الذي يهاجمه لا بدّ له من المرور في واد وعر تستطيع قوة صغيرة ان تمنعه من اجتيازه او تكبده خسائر جسيمة قبل ان يجتازه — غير ان حامية مزار لم تدافع عنها بل ارسلت بعض طلقات نارية ثم انهزمت مذعورة تاركة وراءها خيامها وامتعتها وخزينتها العسكرية فاستولى عليها ابراهيم باشا واحتل البلد بدون قتال[٢] · وفي اليوم التالي (٢١ حزيران) توجه ابراهيم باشا وسليمان باشا لاستكشاف مواقع العدو في نزّب[٣] مستصحبين الف وخمسماية من البدو واربع فرق خيالة وبطاريتين من المدافع السيارة · فبرزت لهم من الجيش التركي المدفعية الخفيفة والخيالة النظامية وبعض الباشبوزوق وبينما كان الفريقان يتبادلان الطلقات النارية اقترب ابراهيم باشا وسليمان باشا من

---

(١) Gouin P. 457, Soliman pacha, p. 310

(٢) Deux Années de l'histoire d'Orien, Vol. I, p. 248

(٣) المؤلف نفسه والجزء والصفحة عينهما ·

معسكر حافظ باشا وتفقداه بدقة فوجه العدو اليهما بعض طلقات نارية اصابت احداها جواد امير اللواء محمد بك احد رجال الاركان حرب وقتلته غير ان ذلك لم يمنعها من مواصلة الاستكشاف حتى وقفا على حالة معسكر العدو وقوفاً تاماً وعادا مقتنعين انه منيع جداً لا تمكن مهاجمته من الجناحين او الامام فعولا على القيام بحركة التفاف توصل جيشهما الى ما وراء موقع العدو فيضطر هذا الى مغادرة موقعه المحصن الى موقع جديد خالٍ من التحصين"[1]

فعند طلوع فجر ٢٢ حزيران عاد ابراهيم باشا بجيشه فعبر نهر مزار الى الضفة اليمنى وسار شرقاً على موازاة ذلك النهر فلما ابصر جنود الاتراك تقهقره الى ماوراء نهر مزار اقاموا الافراح وتوهموا انهم قد قهروه بدون قتال · اما الضباط البروسيون فادركوا غرضه واقترحوا على حافظ باشا الانسحاب من نزب والارتداد الى البيرة الى موقع يمتد على ضفة الفرات اليمنى ليكونوا بمأمن من قيام العدو بحركة التفاف · فكان اعتراضه على هذا الاقتراح ان الارتداد يكون صفحة سوداء في تاريخه · ومن رأي بعضهم ان الارتداد الى الوراء كان مخالفاً لارادة السلطان محمود ولم يكن في استطاعة حافظ باشا مخالفة مشيئة مولاه · فرأى اولئك الضباط عندئذ وجوب احباط سعي العدو ومهاجمته في اثناء السير عند مروره في المضايق وعبوره نهر الكرزين على ان حافظ باشا اغفل القيام

---

(١) Deux Années de l'histoire Etc. T. I. pp. 249-251

بذلك ايضاً"[١] وهكذا خلا الجو لابراهيم باشا فقاد طليعة جيشه المؤلفة من فرقتين من الخيالة النظامية ومن فرسان المنادي واربع بطاريات سيارة وسار متجها الى الشرق على موازاة نهر مزار ثم نهر كرزين بعد ملتقاه بنهر مزار ثم ارتد الى الشمال الشرقي حتى بلغ الطريق الممتد من حلب الى البيرة والمؤدي الى ما وراء موقع العدو في نزب فسار في ذلك الطريق الى ان بلغ جسر هركون القائم فوق نهر كرزين فظهرت عندئذ حركة خفيفة من جانب العدو غير ان ابراهيم باشا لم يحفل بها بل قال لخيالته « اغرسوا رماحكم في الارض واضرموا نيرانكم فاذا ما رآها العدو يلتزم السكون » . ثم امرهم ان يأتوه بسجادة ففرشها ونام وقد كان صادقاً في حدسه لان العدو لم يأت بحركة ما"[٢]

بقي ابرهيم باشا عند جسر هركون الى ان التحق به سليمان باشا مع بقية الجيش نحو الساعة العاشرة ليلاً . ورغماً عن صعوبة عبور النهر في مثل ذلك الوقت من الليل مع وجود مرتفعات في الجانب الآخر تجعل جيشه في خطر من هجوم العدو منها بادر ابراهيم باشا الى اجتيازه[٣] فكانت عندئذ الفرصة سانحة لحافظ باشا ليهاجم جيش عدوه وهو مشطور بين الضفتين في هذا الموقع الحرج غير ان هذه الفرصة مرّت كما مر غيرها دون ان يستفيد منها فاستأنف ابراهيم باشا السير بكامل

---

(١) Deux Années de l'histoire Etc. T. I. pp. 251-254

(٢) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, pp. 254-255

(٣) المؤلف نفسه ص ٢٥٥

جيشه الى ان نفذ به الى ما وراء معسكر حافظ واضطره الى الخروج من معاقله الحصينة في ترتيب وتغيير واجهة جيشه تاركاً الاستحكامات المنيعة وراء ظهره حيث لا ينتفع بها وقد شبه بعضهم حركة حافظ باشا هذه بمن يواجه خصمه وهو حامل درعه على ظهره بدلاً من ان يلبسه على صدره فيتقي به وقع سلاح عدوه [1] ٠

انقضى نهار ٢٣ حزيران والجيشان يتأهبان للّقاء في اليوم التالي واتصل بحافظ باشا ان بعض جنود العدو ترغب الانضمام الى عسكره فعوّل على تمهيد السبيل لفرارهم باحداث اضطراب في صفوف عدوه ٠ وعند الساعة الحادية عشرة ليلاً وجه اربع بطاريات مدافع يعضدها لواء من جنود الحرس وبعض مفرزات من الخيالة فتقدموا الى موقع يبعد الف متر عن معسكر ابراهيم باشا بدون ان يشعر بهم احد وبادروه باطلاق المدافع فسقطت اكثر قنابلها حول خيمة سليمان باشا لان ضباط اركان حرب الجيش العثماني كانوا قد اخذوا رسمها ورسم خيمة ابراهيم باشا في عصر ذلك النهار وبما ان هذا الهجوم حصل مفاجاة في ساعة متأخرة من الليل اوقع الذعر والاضطراب في معسكر ابراهيم باشا فسهل فرار الناقمين ٠ غير ان ابراهيم باشا وسليمان باشا بادرا الى امتطاء جواديهما واسرع سليمان باشا الى النقط الامامية ليمنع خروج الجنود من المعسكر كما ان ابراهيم باشا دعا الجيش الى تقلد سلاحه والاستعداد للقتال وهبت المدفعية المصرية

(١) Deux Années Etc. P. 250

الى مجاوبة المدفعية التركية بشدة اما هذه فبدلاً من مواصلة اطلاق قنابلها عادت الى السكوت وعلى اثر ذلك ثاب السكون الى معسكر المصريين فعمد ابراهيم باشا الى تفقد صفوف جيشه وكان قد فر منه نحو مائة جندي او اكثر كما ان كتيبتين من الجنود السورية غابتا عن موقعهما فمضى ومعه بعض كبار ضباطه للبحث عنهما فاذا هما لا تزالان على مقربة من المعسكر لكنهما كانتا متجهتين نحو خيام العدو وكان عذرهما عن ذلك انهما ضلتا الطريق فاعيدتا الى المعسكر واستبدل ضباطهما بضباط آخرين وقبض عرب المنادي على بعض الفارين وارجعوهم الى المعسكر . وكانت اصابات الجيش المصري بسبب هذه المفاجأة اقل من عشرة قتلى ونحو ثلاثين جريحاً وامضى ابراهيم باشا وجيشه بقية ليلتهم مستيقظين ومستعدين للقاء العدو في موقعة فاصلة[1] فعندما طلع النهار اتخذ الجيشان مواقعهما وكانت امام قلب الجيش التركي رابية عالية تبعد عنه نحو ثمانماية متر فات حافظ باشا احتلالها مع انها في نظر الخبراء الحربيين كانت تعد مفتاح الموقع كله[2] اما ابراهيم باشا فحالاً ادرك اهميتها وبادر الى احتلالها ونصب المدافع الكبيرة العيار عليها فكان لها شأن عظيم في نتيجة الموقعة . وعند الساعة الثامنة صباحاً افتتح ابراهيم باشا القتال باطلاق المدافع وتسلط نار ميمنته على ميسرة العدو فتلقاها الاتراك بثبات مدهش وقابلوها بنار حامية من افواه

(١) Deux Années Etc. Etc. T. I, pp. 264-266

(٢) المؤلف نفسه ص ٢٦٩ و B. Poujoulat, T. I, p. 450

مدافعهم وبنادقهم واستمر اطلاق القذائف من نحو ثلثماية مدفع من الجانبين نحو ساعة ونصف[1] — وفي اثناء ذلك فرغت ذخيرة مدافع المصريين واقاموا ينتظرون ورود سواها من الذخائر الاحتياطية[2] بينما كان الاتراك يصبون عليهم ناراً دائمة فتقلقلت مشاة الميمنة المصرية من مراكزها وبدأت بالتقهقر فصدر الامر للخيالة بالهجوم فتقدمت اولاً غير ان الاتراك قابلوها بوابل من الرصاص والجأوها الى الارتداد وانهزم معها المشاة فسنحت الفرصة حينئذ للجيش العثماني لمهاجمة عدوه المنهزم بالحراب وأشار رجال الاركان حرب على حافظ باشا بذلك فتردد في قبول المشورة[3] وفي اثناء تردده تمكن ابراهيم باشا وسليمان باشا بعد عناء شديد من وقف تيار الانهزام واعادوا جنود الميمنة وثبتوها في مراكزها وكانت الذخائر قد وردت على رجال المدفعية فاشتركت المدفعية والمشاة والخيالة في القتال على بعد خمساية متر من[4] خط العدو فلم يقوَ الاتراك على تحمل نيرانهم الحامية وظهر الضعف في اطلاق مدافعهم فأخذت جنودهم غير النظامية في التقهقر ثم تبعتها جنودهم النظامية اما خيالتهم فلم تقم بعمل يذكر وعندئذٍ شدد ابراهيم باشا الهجوم على هذه الصفوف المتقلقلة في ميسرة عدوه واصدر امراً الى عثمان باشا واحمد منكلي باشا قائدي قلب وميسرة جيشه ليشتركا في الهجوم فلم يستطع العثمانيون

(١) تقرير الكابيتان كايي (Caillé)
(٢) تقرير الموسيو Petit B. Poujoulat, T. I, P. 449.
(٣) المؤلف نفسه والصفحة عينها .
(٤) « « «

الوقوف في وجه هذا الهجوم العام الذي جاءهم على غير انتظار[١] ولجأوا الى الفرار تاركين بنادقهم وذخائرهم وعبثاً حاول حافظ باشا وقواد جيشه وقف الانهزام فجد عدوهم في اثرهم واحتل مواقعهم واستولى على جميع خيامهم وامتعتهم وذخائرهم ومؤنهم التي لم يستطيعوا حمل شيء منها حتى ان حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة وفيها وساماته واوراقه[٢] فكان دخول ضباط وجنود ابراهيم باشا الى معسكر حافظ باشا كدخول الضيوف منازلاً أعدت لاستقبالهم

الغنائم والخسائر : واستولى الجيش المصري على نحو عشرين الف بندقية ومائة واربعة واربعين مدفعاً مع ذخائرها كما انه استولى في ثاني يوم الموقعة على خمسة وثلاثين مدفعاً في حصن البيرة[٣] وبلغت خسائر الاتراك في الرجال نحو اربعة الاف وخمسماية بين قتيل وجريح[٤] وكان من قتلاهم باشاوات وضباط عديدون من رتبة امير لواء وامير الاي واسر منهم بين اثني عشر الف وخمسة عشر الف رجل[٥] وترك الجيش العثماني خزينته وفيها خمسة واربعون الف كيس اي نحو ستة ملايين فرنك ومضاربه باكملها مع كل ما حوت من المعدات[٦] اما خسائر

---

(١) Deux Années Etc. Etc. T. I, pp. 373 375

(٢) المؤلف نفسه ص ٢٧٦ و Poujoulat B, T. I. p. 450

(٣) Gouin, p. 460

(٤) Poujoulat, T. I, p. 450

(٥) Gouin, p. 461 وحروب ابرهيم باشا في سوريا والاناضول ج ١ ص ٦١ — ٦٣

(٦) Poujoulat, T. I, P. 450 و Gouin, pp. 460-461

جيش ابراهيم باشا فبلغت نحو ثلاثة الاف ما بين قتيل وجريح [1] ولم يكن بين القتلى من كبار الضباط سوى الميرالاي ابراهيم بك قائد احدى فرق الحرس · هكذا قضى ابراهيم باشا على آخر جيش جرّده السلطان محمود للانتقام من محمد علي وعلى سمعة آخر قائد من كبار قواده فكل من حسين باشا ومحمد رشيد باشا ومحمد حافظ باشا كان في وقته اكبر القواد العثمانيين وابعدهم صيتاً اكتسبوا شهرتهم في انتصاراتهم العديدة على الثائرين على الحكومة العثمانية غير ان ما كسبوه في وقائع غير نظامية افقدهم اياه ابراهيم باشا بتفوقه في حسن القيادة وامتياز جيشه على الجيش العثماني بدقة النظام الذي كان له القول الفصل في نزّب وقونية وبيلان ·

وفي اول تموز سنة ١٨٣٩ توفي السلطان محمود قبلما بلغه خبر انكسار جيشه في نزّب وبوفاة هذا السلطان الحسن النية العاثر الجد ختمت صفحة محزنة من تاريخ الدولة العثمانية ·

(١) Poujoulat, T. I, p. 450

بين موقعة نزب وثورة لبنان

اشرنا قبلاً الى النشاط الذي اظهره قناصل الدول في مصر وسفراؤهم في الاستانة ليحولوا دون تجدد الحرب بين السلطان محمود ومحمد علي لان حكومات الدول العظمى جميعها كانت تبدي رغبتها في السلم وكان اشدها تحمساً للعمل في سبيل منع الحرب الحكومة الفرنسوية وممثلوها في الاستانة ومصر. فانتدب الماريشال سولت وزير الخارجية الفرنسوية ورئيس مجلس الوزراء اثنين من حجابه[1] وهما الموسيو كاياي (Caillé) والموسيو فولتز (Foltz). انتدب اولهما للذهاب الى الاسكندرية ليقابل محمد علي ثم ينتقل منها الى معسكر ابراهيم باشا في سوريا وامر الثاني بالتوجه الى الاستانة ومنها الى معسكر حافظ باشا على الحدود العثمانية السورية وزوّد هذين المندوبين بالتعليمات التي يجب ان يعملا بموجبها في الاستانة والاسكندرية ولدى قائدي الجيوش العثمانية والمصرية لاجل منع تصادم جيشيهما على انه ما كاد يصل الموسيو فولتز الى الاستانة حتى غادرها طيار باشا على جناح السرعة موفداً من قبل السلطان محمود الى حافظ باشا حاملاً مبلغاً من المال لاجل الجيش وامراً جازماً من السلطان نفسه[2] بفتح باب العدوان وهكذا خاب كل رجاء

---

(١) Soliman Pacha, P. 338

(٢) المؤلف نفسه ٢٢٩ و٢٣٨ Deux Années de l'Histoire Etc. T. I, p. 128

بوصول مندوبي المارشال سولت الى مركز قيادة الجيشين قبل وقوع القتال لكن انتداب المسيو كاياي لم يذهب بدون جدوى لانه على اثر وصوله الى الاسكندرية تمكن بعد جهد كثير من الحصول على كتاب محمد علي الى ابراهيم باشا يأمره فيه بالتزام جانب السلم اذا بلغه الكتاب قبل وقوع القتال وان لا يجتاز جبال طوروس اذا كان قد وقع القتال وخرج منه منصوراً"[1]

غادر المسيو كاياي الاسكندرية بحراً وادرك ابراهيم باشا في ٢٩ حزيران وهو في طريقه من عينتاب الى مرعش وكان بعد انتصاره في نزب قد استولى على البيرة واورفا ووجه كبار قواده وهم احمد منكلي باشا وسليمان باشا لغزو بلاد الاناضول فبعد مفاوضات عديدة وجدال طويل بين المسيو كاياي وابراهيم باشا رضي الاخير ان يوقف جيشه عن اجتياز جبال طوروس[2] اما الدولة العثمانية فكان انكسار جيشها في نزب ذلك الانكسار الشنيع جزاء حقاً لتسرعها في فتح باب القتال وتبعت هذه الكارثة وفاة السلطان محمود ذلك العاهل المصلح الذي لو صافاه الزمان لنهض بامته الى مستوى رفيع . وكانت ثالثة الاثافي انتقاض رجال الاسطول العثماني على الحكومة الجديدة فذهب بهم قائدهم الى الاسكندرية وقدموا الاسطول هدية الى محمد علي اما السبب الظاهر لهذه الخيانة فهو ان احمد فوزي باشا قائد الاسطول كان من

---

(١) Soliman Pacha, P. 330

(٢) المؤلف نفسه ص ٣٤١

اقرب المقربين من السلطان محمود ولما بدأت الحركات العدائية بين الجيشين صدر اليه الامر بالاشتراك فيها بحراً · فبعد وفاة السلطان محمود ارتقى ابنه عبد المجيد الى عرش السلطنة وهو في السادسة عشر من عمره وولى خسرو باشا منصب الصدارة العظمى وكان بين خسرو باشا واحمد فوزي باشا عداء شديد ونظراً لحداثة سن السلطان عبد المجيد وعدم تمرسه بشؤون الملك كان خسرو باشا صاحب الامر والنهي في الدولة فاصدر امره الى فوزي باشا ليعود الى الاستانة فايقن هذا انه اذا اطاع الامر فهو هالك لا محالة عن يد عدو لا يعرف الشفقة فاختار الفرار باسطوله الى الاسكندرية وتسليمه الى محمد علي حيث كانت تجمعه به جامعة العداء لخسرو باشا

فبعدما اصيبت تركيا بسلطانها المخلص الخبير وبجيشها واسطولها فقدت العوامل والوسائل التي تمكنها من استرجاع سوريا بقوة السلاح ورأى السلطان الجديد ورجاله ان مصلحة الدولة تقضي بحسم النزاع مع محمد علي سلمياً وبينما هم على وشك الاتفاق فاجأتهم الدول الخمس وهي انكلترا وفرنسا والروسيا والنمسا وبروسيا بمذكرة مضمونها انهن متفقات في امر المسألة الشرقية ولفتت نظر الباب العالي الى عدم بت اي امر يتعلق بتلك المسألة بدون موافقتهن عليه [1] فبعد هذه المذكرة اصبح مصير سوريا معلقاً بمشيئة الدول الاوربية وكانت الدول العظمى

---

(1) Soliman Pacha P. 247-348

ماعدا فرنسا ترى وجوب اعادة الحكم العثماني الى سوريا · وكانت انكلترا اكثرهن تشدداً في وجوب ذلك لانه لم يكن من مصلحتها ان تقوم في طريقها الى الهند دولة قوية تجعل مواصلاتها مع مستعمرتها الغنية في خطر [1] ومحمد علي كان في وسعه انشاء تلك الدولة القوية لانه كان ثاقب الرأي قوي الارادة محب النظام آخذ باسباب التقدم والبلاد التي كان يحكمها او يطمع في الاستيلاء عليها غنية بالرجال وبطبيعة ارضها ممتازة على سواها بموقعها الجغرافي من وجوه عديدة · ومن مبادئ السياسة الانكليزية ان لا تكون سوريا في قبضة دولة قوية بذاتها كما ذكرنا قبلاً او يحتمل اتحادها مع دولة اوربية مزاحمة لانكلترا · ومحمد علي كان صديقاً صدوقاً لفرنسا وفرنسا كما هو مشهور كانت تزاحم انكلترا في السياسة الاستعمارية بوجه عام وفي التفوق في البحر المتوسط بنوع خاص [2] وقد كان العهد غير بعيد بنزول نابوليون بونابرت بجيشه في مصر وسوريا ومبادرة انكلترا الى اخراجه منها بقوة السلاح ومن مبادئ سياستها ايضاً منع روسيا من النزول في بر الاناضول او على خط الدانيوب حتى لا تنفذ منها الى البحر المتوسط [3] وبقاء محمد علي في سوريا ومناوأته الدولة العثمانية على حدود الاناضول ربما اتخذتهما الروسية حجة لدخول

---

(١) Poujoulat, T. III. pp. 592-593 و Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, pp. 90-91

(٢) Rustom's Syria Under Mehemet Ali p. 55

(٣) Deux Années de l'histoire d'Orient, T. I, pp. 90-91

البلاد العثمانية للدفاع عنها واتصلت منها الى البحر المتوسط فتصبح انكلترا بازاء عقبتين في طريقها الهندية وهما محمد علي في سوريا وهو والروسية في شرقي البحر المتوسط · فالهند كانت بيت القصيد وليس ذلك بالامر العجيب لان قوة انكلترا وعظمتها في ثروتها وصناعتها والهند من اهم ان لم نقل اهم مصادر تلك الثروة واكبر عامل في تنمية الصناعة البريطانية ·
واذا ارسلنا نظرة عامة الى سياسة انكلترا الخارجية نجد ان معظم منازعاتها واتفاقاتها مع سائر الدول منذ اواخر القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا كانت تدور حول محور الهند — فنزاعها في الشرق مع فرنسا وروسيا والعجم وحربها مع الافغان ومسألة الكويت وسكة حديد بغداد التي عدّت من اسباب الحرب الكبرى نشأت عن المسألة الهندية · وتأييد نفوذ انكلترا في خليج العجم وجنوبي تلك البلاد واحتلال قبرس وعدن اهم اغراضها تأمين طريقها الى الهند [١] · هذا الذي حمل انكلترا على مقاومة مطامع محمد علي في التوسع واصرارها على انسحابه من سوريا الا انها عادت فرضيت بابقاء جنوبي سوريا تحت سيطرته مدة حياته وبمنحه الحكم الوراثي على مصر وخالفتها فرنسا في ما يختص بجنوبي سوريا اذ طلبت منح محمد علي واعقابه الحكم الوراثي على ايالة عكا ايضاً·
اما النمسا فاتفقت مع انكلترا لا لمصلحة هامة لها في سوريا بل لاتفاق نظريتها السياسية نحو روسيا مع النظرية الانكليزية [٢] · وانضمت

Deux Années de l'Histoire d'Orient, T. I, pp. 90-91 و Poujoulat, (١)
T. 2, p. 597

Paton, Vol. 2, 152 (٢)

بروسيا الى جانبها · اما الروسية فرغماً عن اختلاف اغراضها السياسية عن اغراض انكلترا والنمسا فانها كانت تحسب ان بقاء سوريا تحت حكم محمد علي واعقابه يؤدي الى سريان روح التجدد الى الاناضول وغيرها من البلاد العثمانية · وهي انما كانت تبغي اضعاف الدولة العثمانية لتكون لقمة سائغة لها متى سنحت الفرصة لابتلاعها · وبعد مفاوضات ومناورات كثيرة بين الدول العظمى انتهت بانفراد فرنسا اجتمع مندوبو سائر الدول الاوروبية العظمى ومندوب الدولة العثمانية في لندن وعقدوا اتفاقاً في ١٥ تموز ١٨٤٠ كان اهم مشتملاته ما يلي[1] :—

١ — منح محمد علي واعقابه من بعده الحكم الوراثي على مصر ويكون له فقط مدة حياته حكم ولاية عكا التي جعلت حدودها من راس الناقورة الى راس نهر السيسبان في شمالي بحيرة طبريا ومنه خط يمتد على جانب البحيرة الغربي وضفة نهر الاردن اليمنى فشاطىء بحر الميت الغربي ومنه خط مستقيم يمتد الى نقطة في شمالي خليج العقبة على البحر الاحمر ثم تتبع الشاطىء من خليج العقبة فخليج السويس حتى بلدة السويس نفسها · ومنح ذلك شرط ان يقبل المنحة في مدة لا تتجاوز عشرة ايام من تاريخ تبليغه هذا القرار وان يشفع قبوله باصدار اوامره لسحب جنوده من جزيرة كريت والبلاد العربية ومنطقتي ادنه وطرسوس ومن سائر البلاد العثمانية ما عدا مصر وايالة عكا كما حددت

(١) The War in Syria Vol. I, pp. 287-300.

اعلاه . وان يرجع ايضاً الى السلطان الاسطول العثماني الذي كان قد فرّ به قائده احمد فوزي باشا الى الاسكندرية .

٢ — اذا لم يقبل هذه المنحة وشروطها في مدة عشرة ايام يحرم الحكم على ايالة عكا ويمهل عشرة ايام ثانية لقبول الحكم الوراثي في مصر وصدور اوامره بسحب جنوده من سائر البلدان العثمانية ورد الاسطول العثماني الى السلطان . فاذا مضت هذه المهلة دون قبول المنحة والشروط السابق ذكرها يصبح للسلطان الخيار في حرمانه الحكم الوراثي في مصر واتخاذ الاجراآت التي تنطبق على مصالح السلطنة ونصائح حلفائه .

٣ — اذا رفض محمد علي قبول الشروط التي فرضها السلطان تتعهد دولتا انكلترا والنمسا ان تتخذا باسم الحلفاء بناءً على طلب السلطان ما لديهم من الوسائل لقطع خط مواصلات الجنود المصرية ما بين مصر وسوريا وان تعضدا الرعايا العثمانيين الذين يظهرون الاخلاص اليهم ويمدوهم بكل ما في وسعهم من المساعدات . واذا لم يقبل محمد علي الشروط المار ذكرها ووجه قواته البرية والبحرية الى الاستانة فيتعهد الحلفاء ان يتخذوا بناء على طلب السلطان الوسائل اللازمة لصيانة الاستانة والبواغيز من كل اعتداء .

جرى تبليغ هذا الاتفاق الى محمد علي في ١٧ اب[١] سنة ١٨٤٠ ومضت المدة القانونية ولم يعلن رضوخه له بل انه ابلغ قناصل الدول

(١) Soliman Pacha, P. 391

شفاهاً عندما مثلوا امامه بعد انتهاء المهلة الاولى انه يرفض قبوله رفضاً باتّاً وطلب منهم ان ينسحبوا من مصر [1]. وفي ١١ ايلول اجتمع مندوب من قبل الباب العالي بسفراء الدول المتحالفة وقرروا تجريد محمد علي حتى من ولاية مصر [2] وبعد تبليغه هذا القرار انسحب قناصل الدول الاوروبية المتحالفة من القطر المصري وكان مندوب الباب العالي قد سبقهم الى مغادرة الاسكندرية عائداً الى الاستانة فصار محمد علي في حالة حرب مع الدولة العثمانية وحلفائها ·

ويؤخذ من مختلف الروايات ان الذي ادى الى عزل فرنسا عن المجتمع الدولي في هذه المسألة والى تصلُّب محمد علي في رفض شروط الدولة العثمانية وحلفائها هو تحيز الحكومة الفرنسوية له وبنوع خاص السياسة التي انتهجها الموسيو تيارس (Thiers) في المسألة الشرقية فانه حاول التوفيق ما بين تركيا ومحمد علي منفرداً عن سائر الحكومات الاوروبية وكان يحرّض محمد علي على رفض طلب الانسحاب من سوريا واعداً اياه ان اذا اقتضت الحال ففرنسا تؤيده بقوة السلاح [3]

---

(١) المؤلف نفسه ص ٣٩٢ Soliman Pacha p. 392

(٢) « « ص ٣٩٢

(١) « « ص ٣٧٦

ثورة اللبنانيين

سنة ١٨٤٠

لما علم محمد علي بعد موقعة نزّب باصرار الحلفاء على حرمانه ثمرات انتصار جنوده على الجيش العثماني واكراهه على الجلاء عن سوريا اخذ يستعد للمقاومة فامر بتحصين المواقع المهمة على الشواطيء المصرية والسورية وانشاء حرساً وطنياً من المصريين وسحب جنوده من البلاد العربية ليستعين بها على الدفاع عن مصر وسوريا وامد جيشه في سوريا بمائة مدفع كبيرة العيار[1] واصدر امره الى ابرهيم باشا بجمع الحاميات المتفرقة في انحاء سوريا وحشدها في الاماكن الاكثر اهمية وبان يعاقب كل من ينقض على حكومته بمنتهى الشدة · وكانت انكلترا بنوع خاص تراقب احوال سوريا في اثناء ذلك مراقبة دقيقة وتزرع بذور الثورة بين اهلها · ونظراً لبعد مراميها السياسية كانت في ما مضى قد ارسلت الى لبنان مستر رتشرد وُوُد (Richard Wood) ترجمان سفارتها في الاستانة لاجل درس اللغة العربية فتلقى دروس هذه اللغة على الخوري ارسانيوس فاخوري وتعرف الى كبار رجال الاكليروس الماروني واستمالهم اليه كما استمال الدروز وبعض زعماء واعيان الموارنة[2]

---

(١) Soliman Pacha pp. 364-365

(٢) مذكرات تاريخية ص ٢١ و ٢١١ ومخطوطة مشاقة ص ٢٨٨

ثم عاد الى الاستانة · ولما بلغت المسألة السورية دورها الاخير وتحرج الموقف ما بين الدولة العثمانية ومحمد علي ثار اللبنانيون على حكومة محمد علي وكان للتحريض الخارجي تأثير عظيم في اثارتهم [1] كما ان ما لاقوه من جور تلك الحكومة وتلوُّن سياستها نحوهم كان مبررا لانتقاضهم عليها ·

فالسوريون كانوا قد رحبوا بامتداد سلطة محمد علي الى سوريا لما كانوا يعانونه من فوضى الاحكام وجور الحكام في العهد العثماني ولما منّاهم به ابرهيم باشا من الوعود الخلابة وما شاهدوه من حسن سيرة جنوده في البلاد وعدم تعرضهم لمس كرامة واموال اهلها [2] · لكن بعد ما تم له فتح سوريا انكشف ثوب السياسة عما تحته فعمد الى استثمار مصادر ثروة البلاد السورية واضعاف قوة اهلها فشرع في جمع السلاح وتجنيد الرجال واحتكار التجارة بالمحصولات الوطنية وفرض الضرائب الثقيلة وتسخير الناس للقيام بمشاريع الحكومة · وكل هذه التكاليف لم يتعودها السوريون في الازمنة السالفة فشبت بسببها نيران الثورة في اكثر انحاء سوريا ما عدا لبنان لان حكومة محمد علي تمكنت من تفريق كلمة اهله بمساعدة الامير بشير شهاب اذ اوقعوا الشقاق ما بين المسيحيين والدروز [3] بل وفي صفوف الدروز ايضاً واضعفوا هؤلاء بادخال شبانهم

---

(١) Urquhart, Vol. I, p. 171 و Poujoulat, B. T. 2, pp. 592-593 Perrier pp. 365-379

(٢) Perrier, F, p. 319

(٣) المؤلف نفسه ص ٢٥٩ و ٢٦٠

في سلك الجندية واظهروا من التحيز للمسيحيين ما ضمن لهم ولاءهم ·
وبعد ان كان قد نُزع منهم سلاحهم وُزّع عليهم السلاح في سنة ١٨٣٨
للاستعانة بهم على اخماد ثورة الدروز [١] عند امتدادها من حوران الى
وادي التيم · لكن بعد انتصار ابرهيم باشا في موقعة نزّب وتضارب
السياسات في المسألة السورية ايقن محمد علي ان لا بد له من خوض
غمار حرب جديدة للدفاع عن مصر وسوريا فعوّل على زيادة جيشه
البري والبحري الى اربعماية الف مقاتل [٢] وكان في ما عزم عليه تجنيد
اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم وجمع مال « الفرده » منهم مقدماً عن
سبع سنين · وادرك ان اللبنانيين سيقاومون هذه المطالب الثقيلة نظراً
لما كانوا عليه من البؤس فامر بنزع سلاحهم اولاً ليحرمهم وسائل
الدفاع [٣] · وكان قد انتشر في البلاد في اوائل سنة ١٨٤٠ بعض
الاوربيين زاعمين انهم قدموا للاتجار او لتوزيع الاعانات على المعوزين
والمنكوبين ليخففوا عنهم ما لاقوه من الحاجة والخسائر بسبب توالي
الحروب والثورات وذاعت في الوقت نفسه الاشاعات عن عزم ابرهيم
باشا على تجنيد السوريين مرة اخرى لاجل تعويض النقص في صفوف
جيشه واعداده لحرب جديدة وتناقلت الالسن اشاعة عن قرب قدوم
جنود افرنجية الى سوريا لتنقذ اهلها من البؤس وترفع عن عواتقهم

(١) Perrier P. 363
(٢) Laurent, T. I, p. 15
(٣) Perrier, pp. واخبار الاعيان ص ٥٨٩ و Laurent, T. I, pp. 18-19 366-368

مغارم حكومة محمد علي فكان لهذه الاشاعات تأثيرها في النفوس لما كان يخامرها من اليأس والاضطراب · ومن العبارات التي كثر ترددادها حينئذ على السنة اللبنانيين « يا رب فرجك والا فرنجك »[1] وصارت كل حركة من جهة حكومة محمد علي يحسب لها الناس الف حساب · من ذلك ان سليمان باشا الفرنساوي انتقل من مقره في صيدا الى بيروت فشاع انه قادم لاجل تجنيد البيروتيين واهل البلاد التي تجاورهم فدب الذعر في قلوبهم وفر كثيرون من المسلمين بعائلاتهم من بيروت وسافر بعضهم بحراً الى قبرص والجزر اليونانية[2] · وحدث ان محمد علي امر بتجنيد شبان المسلمين في مصر فكان في عداد الذين قبض عليهم التلاميذ النصارى اللبنانيون الذين كانوا يتلقون العلوم الطبية في مصر واتصل هذا الخبر بنصارى البلاد السورية فاعتقدوا انهم سيجندون كالمسلمين[3] واتفق انه وصل الى بيروت في ذلك الاثناء مركب مشحون ملابس عسكرية فأشيع انها معدة لشبان النصارى اللبنانيين فاشتدت مخاوفهم من التجنيد[4] · فدارت المفاوضة بين المسيحيين والدروز في لبنان وعقد زعماؤهم اجتماعاً في دير القمر وتعاهدوا على مقاومة ابرهيم باشا بكل قواهم اذا حاول اخذ جندي واحد من لبنان وانشئت صناديق لجمع

---

(١) Perrier, F. p. 366

(٢) المؤلف نفسه والصفحة ذاتها

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٨٨ و Laurent, T. I, P. 20

(٤) اخبار الاعيان ص ٥٨٩

الاموال لاجل مشترى السلاح والذخائر عند الحاجة اليها [١] . وقد روى خبر هذا الاجتماع كاتب معاصر يرجح انه كان مقيماً في دير القمر حيث قال : « في ٢٧ ايار الاربعا انتخبوا اهل الدير اثني عشر [٢] انسان للتدبير (من الدروز حمد الشعاري وخزوع خبيص من الموارنة نادر ابو عكر وابرهيم عيد فارس ثابت سعد باز يوسف ابو شمعون غندور الكك بشاره الجلخ منصور مرهج من الكواتلة سلوم الحداد وحنا عيسى داود الجاويش حبيب الصوصه) وتحالفوا ان كل شيء يدبروه يحفظوه سراً لحد وقت العمل وفي هذا النهار حضر البعض من المقاطعات اثنين اثنين بالوكالة عن كل مقاطعة واجتمعوا مع الاثني عشر في الخلوة وتحالفوا على الرأي والقلب والكلمة واحدة . ثم بثوا الدعوة الى العصيان في انحاء البلاد وقد عثرنا على نشرة منها هذا نصها حرفياً :*

« من بعد الترجمة انه قبله تقدم منا لجنابكم خلافه [٣] على البابين لم »

---

(١) Perrier, F., p. 366-7

(٢) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج٢ ص ١٢ — عدد المنتخبين ١٤ شخصاً لا ١٢

* اصل خبر هذه النشرة بالامير بشير فكتب يحذر الناس منها وهذه نص كتاب ارسله الى اهالي بحكتا

« بعد الشوق بلغنا ان جهال دير القمر قد ارسلوا لكم مكاتيب لاجل يغشوكم كما غشوا ذواتهم لكي يرموكم تحت اضرار الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتوهم ولكن رأفة بكم وخشية لئلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار هذا الامر اليكم تحذركم وتنصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الاثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالاً اطردوهم وارموا عليهم الاقص وارسلوهم لطرفنا يكون معلومكم

في ٢٨ ر ١ سنة ٥٦ (مجموعة جامعة بيروت الاميركية)

(٣) اشار الى النشرة الاولى صاحب كتاب « حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول » في الجزء الثاني صفحه ١٢ حيث قال : « في هذا النهار [٢٤ ايار سنه

« وصل ولربما يكون بلغ لديكم وانما نعيد على حضرتكم التعريف وهو »
« انه نهار السبت الواقع في ٢٢ [1] شهره صدر امر شريف على كافة »
« البلاد من لدن سعادة افندينا ولي النعم ايده الله بطلب السلاح الذي »
« بيدنا من بوار يد العسكرية فحالاً قدمنا بساط الرجا اول وثاني وثالث »
« في ابقى السلاح بيدنا فما صار قبول بذلك وبحيث متحقق عندنا »
« طلب السلاح ينتج منه اولاً سبع [2] فرد ثانياً طلب اولادنا من »
« جميع الطوائف ليتقدموا الى النظام فحيث ان هذا امر ليس به شبهاً »
« لزم انا اظهرنا العصاوه من بعد الاتكال على الله وعتمدنا على محاربة »
« هذه الغدارة وتقديم الطاعة لسعادة افندينا الامير المعظم ونهار الاربعه »
« المبارك امس تاريخه حضر لنا علم من صيده بانه متوجه علينا عسكر »
« فحالاً في النهار نفسه توجه من هذا الطرف عسكر وصحبته جناب »
« المشايخ بيت ابو نكد وساعة تاريخه نهار الخميس حضر لنا بشاره »
« سنية بانهم ظفروا بهؤلاء الخارجين واخذوا منهم ماية وثمانين بارودة »
« ولا زالوا مقيمين على جسر صيدا باستنظار العساكر الذي تمر لجهتنا »
« نرغب بان تكونوا كما نحن متيقظين سهرارين (كذا) واعين لكلما »
« يجد نواحي بيروت وجهة الشمالية وكلما جد عليكم شي عرفونا حالاً »

١٨٤٠] ارسلوا اختيارية الدير الى جميع المقاطعات مكاتيب ليحضروا من كل مقاطعة اثنين لكي يصعدوا معاً ويقدموا الرجا لسعادته في ابقا السلاح »

(١) صحته ٢٢ لا ٢٣ . ورد في ص ١٢ ج ٢ من « حروب ابرهيم باشا المصري الخ » « انه في ٢٣ ايار سنة ٤٠ يوم السبت حضر مرسوم من سعادة الامير الى نظارة دير القمر عن امر الصاري عسكر في جمع السلاح الذي قلعموه لكي ينقله الى عسكر الرديف »

(٢) اي استيفاء مال « الفردة » وهي « فريضة الرؤوس » عن سبع سنين دفعة واحدة مقدماً

« صحبة مخصوص وبحوله تعالى انتم الظافرون ولا يلزم نحثكم على التيقظ»
« كون هذا صالح عايده للجميع نسأله تعالى نسمع عنكم كما يسر الخواطر»
« حسب عوايدكم السابقة هذا ما لزم افادتكم والله يحفظكم »

اخوتكم

اهالي دير القمر

نصاره ودروز

مما تقدم يمكن ان نعتبر ان الثورة اللبنانية ابتدأت في ٢٧ ايار[١] سنة ١٨٤٠ وكان آل ابي نكد واهل دير القمر اول القائمين بها والداعين اليها رغمًا عن قرب بلدتهم من بيت الدين مقر الامير بشير الشهابي حاكم البلاد ليقينهم بان اللبنانيين بوجه عام كانوا شديدي النقمة على حكومة محمد علي والامير بشير وممن نفخ في بوق الثورة وقاد رجالها بعض الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ آل خازن وحبيش والدحداح لان الامير بشير سلبهم ما كانوا يتمتعون به من السلطة الاقطاعية لا رفقًا باهل البلاد بل لينقلها الى اهله ومريديه كاولاده وحفدته والمقربين اليه من ذويه وغيرهم فكانوا اشد وطأة على الاهلين من حكامهم السابقين[٢] وممن اشترك في قيادة الثوار الامير خنجر الحرفوش وابو سمرا غانم واحمد داغر ويوسف الشنتيري[٣]

---

(١) انظر ايضاً Perrier, p. 369

(٢) Perrier, p. 311

(٣) اخبار الاعيان ص ٥٩٠ و ٥٩٢ و ٥٩٤

فتح باب القتال مع الجنود المصرية اهل جنوبي لبنان وكان في اول الامر جميع الثائرين تقريباً من دير القمر والمناصف والشحار وساحل صيدا فحصلت مناوشات عند جسر الاوّلي وحول صيدا وضيقوا الخناق على المدينة وقطعوا عنها الماء وحالوا بينها و بين المطاحن الكائنة على نهر الاوّلي فوجه سليمان باشا الفرنساوي الذي كان مقيماً في صيدا الايام الجند لحراسة المطاحن وقناة الماء وحفظ خط المواصلات بينها وبين المدينة لكنه اصدر امره الى الجنود ان تجتنب مصادمة الثوار وكتب الى هؤلاء يخبرهم ان أمر محمد علي لا يقصد به نزع سلاحهم بل استرجاع السلاح الذي وزعه عليهم سابقاً لانه لازم لتسليح الرديف وتعهد لهم بانه يحمل الحكومة على استبقاء سلاحهم في ايديهم واكد لهم انه لم يخطر ببالها تجنيدهم[1] وبينما كان سليمان باشا يخاطب الثوار بهذه اللهجة المعتدلة كان الامير بشير يزرع بذور الشقاق في صفوفهم و بعد مفاوضات اشترك فيها ولداه الامير قاسم والامير امين والمطران عبد الله البستاني واختيارية دير القمر اصدر الامير بشير مرسوماً بتطمين افكار الثائرين وفي ٤ حزيران (يونيو) توجه وفد من قبل الامير قاسم واهل دير القمر على اختلاف مذاهبهم الى معسكر الثوار بجوار صيدا وتلا عليهم مرسوم الامير بشير فاطمأنت خواطرهم وعادوا الى اوطانهم[2] بسلام · وبعد بضعة ايام ورد مرسوم ابراهيم باشا بالعفو عنهم والتأكيد

---

(١) Perrier, p. 370

(٢) Perrier, p. 37-54 وحروب ابرهيم باشا في سوريا والاناضول ج ٢ ص ٣٠

لم ان الحكومة لا تنوي تجنيدهم[1]

اما بجوار بيروت فنشرت راية العصيان في اول حزيران (يونيو) وكان اول من شق عصا الطاعة احمد داغر وابو سمرا غانم مع عدد قليل من الرجال وكاتبوا اهل المتن ودير القمر[2] وانضم اليهم بعض اهل الساحل وهاجموا بيروت من جهة الكورنتينا فالتزمت حامية بيروت خطة الدفاع وقابلت الثائرين باطلاق المدافع فرجعوا عنها ·

ثم ثار اهل المتن من نصارى ودروز وتوجهوا في ٤ حزيران الى دير مار الياس انطلياس وتحالفوا على العمل يداً واحدة وانضموا الى سائر الثائرين[3] وفي ٥ حزيران لبى داعي الثورة بعض اهل كسروان بقيادة الشيخ فرنسيس الخازن والشيخ شمعين حبيش ونهب الثوار مخازن الحكومة الكائنة خارج المدينة وحرضوا اهل دير القمر على العودة الى العصيان فلم يفلحوا[4]

ثم ارسل الامير بشير وفداً من اختيارية دير القمر يصحبهم البلوكباشي جرجس ابو دبس الى ثوار ساحل بيروت ليدعوهم الى الطاعة فعادوا مخذولين فكرر الامير مفاوضتهم بواسطة ولده الامير امين ثم بواسطة سواه غير ان الثوار اصروا على العصيان الا اذا اجيبت مطالبهم التالية وهي :

---

(١) Laurent, T. I, pp. 32-33 وحروب ابرهيم باشا في سوريا والاناضول ج ٢ ص ٢١ و ٢٢ و ٢٤

(٢) حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠

(٣) المؤلف نفسه ص ٣٠ و ٣١ (٤) المؤلف نفسه ص ٣٠

١ — بقاء سلاحهم في ايديهم

٢ — عدم تجنيدهم

٣ — ان لا يدفعوا الفردة الا عن الاحياء فقط ولا يكلفوا دفع ما كان مرتبًا على الذين توفوا او قتلوا في اثناء الخدمة

٤ — ابطال السخرة والشغل في معدن الفحم الحجري في قرنايل .

وطلبوا من الامير بشير (١) انشاء ديوان مشورة في بيت الدين يؤلف من عضوين من كل طائفة (٢) ان يكون تحصيل «الميري» في عيد الصليب (٣) ان يكون معدل الفردة اي المال المفروض على كل رجل ثلاثين قرشًا (٤) ان «الحوالي» لا يكلف المديون شيئًا (٥) اذا عجز مديون عن وفاء دينه لا يجوز التحويل على اقربائه[1] . واضاف بعضهم الى هذه الشروط شرطًا آخر وهو ابعاد المعلم بطرس كرامه عن ديوان الامير .

ومما لوحظ في ذلك الاثناء اختلاط بعض الافرنسيين بالثوار وتشديد عزائمهم على القتال وشوهد رجل افرنسي يوزع عليهم اسلحة وذخائر ونقود[2] كما ان الموسيو بورًا (Bourré) قنصل فرنسا في بيروت عامل الحكومة المحلية بتشدد[3] يخالف خطة دولته الولائية نحو حكومة

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٢٥ واخبار الاعيان ص ٥٩١ و Perrier ص ٢٧٠ — ٢٧٤

(٢) « « « ج ٢ ص ٢٥ و ٣٢ و Perrier, ص ٢٧٩ — ٢٨١

(٣) Perrier ص ٢٨٠

محمد علي فادى ذلك الى نقله من بيروت وابداله بسواه ·

وفي اواسط حزيران اظهر الثوار نشاطًا عظيماً فتوجهت شراذم منهم الى جهات مختلفة لاثارة اهل البلاد كزحله وبعلبك حيث انضم اليهم الامير خنجر الحرفوش واهل شمالي لبنان وذهب فريق منهم الى جهة [1] صيدا ولاحظ محمود بك متسلم بيروت انه لم يبقَ الا القليل من الثوار في ظاهر المدينة فوجه عليهم كتيبتين من جهة الكورنتينا ومثلها من طريق بوابة يعقوب فحصلت موقعة استمرت نحو ثلاث ساعات [2] وكان قد اقترب الليل فرجعت الجنود الى اماكنها · وحصلت مواقع صغرى في جهات طرابلس وشمالي لبنان والبقاع واستولى الثوار على مقادير كبيرة من الذخائر والمؤن كانت مرسلة للعسكر المصري من الشام [3]

اتصل بمحمد علي ما يبديه الثوار اللبنانيون من النشاط فبادر الى ارسال حفيده عباس باشا الى سوريا ومعه قوة تبلغ نحو اثني عشر الف مقاتل فوصل الى بيروت في ٢٧ حزيران سنة ١٨٤٠ [4] وحضر عثمان باشا من شمالي سوريا الى بعلبك بنحو اثني عشر الف مقاتل وكان سليمان باشا يتولى قيادة نحو عشرين الف جندي مرابطة في المدن الساحلية من صيدا الى طرابلس فاضحى لبنان بين نارين هذا عدا اضطراب الافكار

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٣٣

(٢) المؤلف نفسه » » ص ٣٣

(٣) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٣٣ و ٣٤

(٤) ج ١ ص ١٤ من كتاب Laurent, T. I, P. 66, The War in Syria

واختلاف المشارب في داخله · فاللبنانيون بوجه عام كانوا متذمرين من حكومة محمد علي غير ان عوامل مختلفة قسمتهم الى ثلاثة اقسام · فالقسم الاكبر وقف موقف الحياد او التذبذب من هؤلاء اكثر الدروز نظراً لتجردهم من السلاح ولان المئات من ابنائهم كانوا مجندين وبعض زعمائهم كانوا رهائن عند محمد علي اضف الى ذلك حنقهم من المسيحيين لانهم فيما مضى كانوا ممالئين لحكومة محمد علي والامير بشير عليهم والسلاح الذي كان مطلوباً من المسيحيين اللبنانيين هو ذلك السلاح الذي وزعته الحكومة عليهم سنة ١٨٣٨ ليقاتلوا به الدروز

وكان حزب الامير بشير الموالي لحكومة محمد علي مؤلفاً من ابناء الامير وحفدته وبعض المقربين اليه من ذويه الشهابيين والامير امين ارسلان والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك ودروز بعقلين وعنبال [1] وفريق من جميع الطوائف في مختلف انحاء لبنان

اما حزب الثورة فكان اكثره مؤلفاً من اهل دير القمر والمناصف والشحار والمتن وكسروان والسواحل بزعامة من ذكرناهم قبلاً من الناقمين على الامير بشير من الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ الخوازنة والنكديين والحبيشيين والدحادحة وكان يبث في الثورة روح النشاط بعض المحرضين الاجانب · ولولا هذا الانقسام لنجا اللبنانيون اولاً واخيراً من مظالم ومغارم ابراهيم باشا والامير بشير لان سكان لبنان

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٣٩ و ٤٧ و ٥٧ و ٦٠

كانوا حينئذٍ نحو ثلثمائة الف نفس وبلادهم شديدة الوعورة كثيرة المياه. وقد رأينا ما لاتحاد الكلمة من التأثير في ثورة حوران حيث تمكنت فئة قليلة من مقاومة الالوف الكثيرة تسعة شهور ونجت مما اصاب اللبنانيين وهي موفورة الكرامة مرفوعة الرأس . واللبنانيون لا يقلون بسالة عن الحورانيين غير ان الشقاق الداخلي اضعفهم عن دفع الاعتداء الخارجي

فبعد وصول عباس باشا الى بيروت بجنوده اخذت عوامل الارهاب والترغيب تعمل بين اللبنانيين . فحدث قتال بين عثمان باشا واللبنانيين في البقاع ابلى اللبنانيون فيه بلاءً حسناً في اول الامر [1] ثم عاد العسكر فنهب الفرزل والمعلقة . وحدثت موقعة مابين جنود عباس باشا والثائرين المرابطين في ظاهر بيروت في اواخر حزيران استمرت من الظهر الى المغيب رجحت فيها كفة اهل البلاد [2] وجرت موقعة ثالثة في سن الفيل تغلب فيها الجيش على الثوار وتبعهم الى المكلّس [3] وحدث قتال شديد بجوار صيدا استبسل فيه الثوار وكان اكثرهم من الدروز الذين كانوا قد عادوا الى العصيان . وفي الوقت نفسه كان الامير بشير مجداً في مفاوضة اهل البلاد المحايدين ليتعرف موقفهم الحقيقي وفي مخابرة الثوار ليثني عزمهم عن المقاومة ويلقي بذور التخاذل في صفوفهم .

---

(١) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ص ٣٦ و ٣٧
(٢) المؤلف نفسه ص ٣٩
(٣) « « ص ٤٣

فدعا اهل الشوف الى اجتماع في مرج بعقلين وطلب منهم ايضاح موقفهم بازاء الحكومة والثائرين فاجابوا :[1]

« ١ً — انهم بقلب واحد درزي ونصراني
« ٢ً — ان لا يعطوا سلاح
« ٣ً — ولا يقدموا نظام
« ٤ً — لا يعطوا فرده
« ٥ً — لا يعطوا ميري سوى مال واحد
« ٦ً — لا يدعوا نظام تدخل البلاد
« ٧ً — لا يحاربوا احد من البلاد الا اذا كان قصده يحارب سعادته

غير ان كثرة الوعود وضغط الجنود من جهات مختلفة ادى الى وقف رحى القتال في جهات صيدا وتفرق الثوار الى اوطانهم فتشتت المرابطون في ظاهر بيروت وتفرّق زعماؤهم[2] . ودخل عثمان باشا مقاطعة المتن من جهة البقاع وانحدر قسم من جيشه الى حمانا ونهبها فحصل بين العسكر والثوار قتال شديد انجلى عن بضع مئات من القتلى من الجانبين . وكانت خاتمة الاعمال الارهابية في اواسط تموز اذ هاجمت عساكر عباس باشا القرى الواقعة بجوار بيروت وهي المكلس والمنصورية وبيت مري وبطشيه ووادي شحرور فنهبوها واعملوا فيها السيف

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٣٦ و ٣٧
(٢) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥

والنار[1] . وانقطع الثوار عن مواصلة القتال[2] .

ثم ذهب عباس باشا بعسكره الى بيت الدين وعاد منها الى بيروت فلم يلاقِ ادنى مقاومة وشرع الامير بشير في جمع السلاح من انحاء لبنان ومطاردة زعماء الثوار والقبض عليهم . وفي ٧ آب سنة ١٨٤٠ أرسل الذين قبض عليهم من زعماء وغيرهم الى الاسكندرية بحراً وكان عددهم سبعة وخمسين شخصاً بينهم اربعة من الامراء الشهابيين وهم الامراء فاعور قعدان من عيه وفارس حسن من كفرشيما ويوسف سلمان من الحدث ومحمود سلمان من الحدث ايضاً واربعة من الامراء اللمعيين وهم الامير حيدر من صليما وعبدالله شديد مراد من فالوغا وعلي منصور قائد بيه من برمانا وعلي فارس من بسكنتا . والشيخ نقولا الخازن . والمشايخ حمود ابو نكد وولده قاسم وعباس ناصيف ابو نكد[3] وابرهيم الشامي وغالب الشدياق ويوسف الشتيري وطنوس عبد النور[4]

وبعد وصولهم الى الاسكندرية أُبعدوا الى سنار في بلاد السودان .

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٤٣ و ٤٥
(٢) ج ١ ص ٢٦ من كتاب The War in Syria
(٣) ج ٢ ص ٢٥٩ و ٢٦٠ من The War in Syria واخبار الاعيان ٦٠٠ و٦٠٣
(٤) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ٢ ص ٤٧

تدخل الدول الاوروبية

في المسألة السورية

بينما كانت نار الثورة متقدة في لبنان وابراهيم باشا مجداً في اخمادها وصل المستر ريتشرد وود على سفينة حربية ونزل خلسة على الشطوط اللبنانية بقرب طرابلس واتصل بالثائرين لكنه لم يستطع التأثير في نتيجة الاعمال العسكرية لان حدة الثورة كانت قد اخذت في الانكسار بازاء القوات الهائلة التي سلطت عليها · غير انه دفع اللبنانيين الى رفع عرائض الشكوى والاسترحام الى الباب العالي والى سفارتي انكلترا وفرنسا في الاستانة لينقذهم من مظالم ومغارم حكومة محمد علي ويعيدوا اليهم الحكم العثماني[1] وابلغ سفارة دولته في الاستانة اخباراً مجسمة عن خطورة امر الثورة اللبنانية والمظنون ان مغالاته ومغالاة المستر مور في امرها كانت من الاسباب التي دفعت الدول المتحالفة الى التعجيل في استعمال الشدة لحل المشكلة السورية[2]

وكانت قد ظهرت نوايا انكلترا الحربية من الخطة التي اتبعها قنصلها العام في الاسكندرية حيث اخذ يسهل سبل الفرار لرجال الاسطول

---

(١) The War in Syria ج ١ ص ١٨ وج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٩ و ٣١٠

(٢) « « « « ج ١ ص ٢٤

العثماني الذي سلم خيانة الى محمد علي وللجنود التركية التي كان يقلها ذلك الاسطول . وصرح اللورد بالمرستون رئيس الوزارة الانكليزية في احدى جلسات البرلمان انه موافق كل الموافقة على كل وسيلة من شأنها عودة رعايا السلطان الى حظيرة ولاهم [1] وكان محمد علي في اثناء الثورة اللبنانية قد وجه نجدة قوية الى سوريا بينها اربعة الاف جندي عثماني واستخدم لنقلها سفناً بعضها من سفن الاسطول العثماني [2] فبلغ قائد الاسطول الانكليزي في البحر المتوسط خبر ثورة اللبنانيين والنجدة التي وجهها محمد علي فبعث بعض سفن اسطوله الى بيروت لاجل المحافظة على الرعايا الانكليز دون التعرض للاسطول المصري باي وجه من الوجوه . اما الكومودور السر تشارلس نابيار Sir Charles Napier قائد السفن التي وجهت الى بيروت فكان من رأيه بناءً على تصريح اللورد بالمرستون الذي سبقت الاشارة اليه ان يسرع الاسطول الانكليزي في الذهاب الى الشواطئ السورية ويقبض على السفن والجنود العثمانية التي وجهها محمد علي الى سوريا واما يسوقها الى جزيرة رودس و يبقيها هناك حتى يتلقى اوامر جديدة بشأنها او يترك الجنود على الشواطئ السورية لمساعدة الثوار الا ان اوامر القائد العام كانت تمنع اي عمل عدائي من هذا النوع منعاً باتاً [3]

---

(١) The War in Syria Vol. I, P. 14

(٢) The War in Syria ج ١ ص ١٤

(٣) « « « ج ١ ص ١٤ و ١٥

وكان الاسطول الفرنسوي في ذلك الاثناء يراقب حركات الاسطول الانكليزي فلما شعر بالعزم على انفاذ بعض السفن الانكليزية نحو الشواطيء السورية ارسل بأخرة الى بيروت تنبيء رجال السلطة المصرية عما شعر به ويحسن لهم ارجاع الاسطول المصري الى الاسكندرية فعمل هؤلاء بالنصيحة مسرعين واقلعت سفن اسطولهم من بيروت [1] في ٥ تموز اما سفن الاسطول الانكليزي فوصلت الى بيروت في ٧ منه [2] على انها لو وصلت الى ميناء بيروت قبلما بارحها الاسطول المصري لما استطاعت القيام بعمل عدائي نظراً للاوامر الصادرة من قائدها الاعلى

مكث السر تشارلس نابيار على الشواطيء اللبنانية الى اوائل آب سنة ١٨٤٠ فوقف على الدور الاخير من ادوار الثورة اللبنانية وزار بعض انحاء الجبل وحصل على معلومات ذات قيمة عن احوال البلاد واهلها وحكومتها استفاد منها في الاعمال الحربية التي قام بها بعد ذلك بقليل وفي ٣ آب غادر ميناء بيروت بسفنه بناء على امر ورد عليه وبينما هو في الطريق تلقى تعليمات جديدة تقضي برجوعه الى بيروت وزيد عدد السفن التي وضعت تحت قيادته · وتسلم ايضاً نسخة من اتفاق ١٥ تموز الذي عقد بين الدولة العثمانية وحلفائها لاخراج حكومة محمد علي من سوريا · وبموجب ذلك الاتفاق اعطي محمد علي مهلة عشرين يوماً من تاريخ تبلغه مضمونها ليعلن قبول شروطها

---

(١) The War in Syria, Vol. P. 1 15

(٢) المؤلف نفسه والجزء والصفحة عينهما

وصلت السفن الانكليزية الى مياه بيروت ثانية في ١٢ آب ورأى الكومودور نابيار ان يقوم بمظاهرات وتأهبات تعد سفنه لفتح باب القتال حالما ينتهي الاجل المضروب لمحمد علي لقبول شروط الاتفاق او تستدرج المصريين الى القيام بعمل عدائي يبرر مقابلتهم بالمثل فنشر على قواد سفنه التعليمات التي يجب على كل منهم اتباعها في المظاهرة التي ينوي القيام بها وبعث بعد ذلك بالرسائل التالية :

١ً — بلاغ الى محمود بك[1] متسلم بيروت ان انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا قد قررت اعادة سوريا الى السلطان وطلب منه ان يضع تحت حمايته (نابيار) الجنود العثمانية التي ارسلها محمد علي مع جنوده الى بيروت وان يعيد الى اهل لبنان السلاح الذي نزع منهم ويحذره من القيام باية حركة عدائية[2]

٢ً — رسالة الى قنصل انكلترا في بيروت يطلب منه ان يبلغ قناصل الدول والتجار البريطانيين في بيروت ان الدول قد قررت رد سوريا الى السلطان ويخبره عن البلاغ الذي ارسله الى محمود بك متسلم بيروت[3]

٣ً —رسالة الى قائد الجنود التركية التي ارسلها محمد علي الى بيروت يخبره عن نشرة اذاعها على اهل البلاد والجنود العثمانية وينذر القائد

---

(١) هو جد سمو الدامادا احمد نامي بك

The War in Syria, Vol. I PP. 34-35 (٢)

« « « « P. 35 (٣)

المذكور انه اذا حاول الانتقال بجنوده من معسكرهم يبادر الى فتح باب القتال [١]

اما النشرة التي اشار اليها فملخصها تبليغ السوريين اتفاق الدول على رد سوريا للسلطان وان السلطان اصدر خطاً شريفاً لتأمين راحة رعاياه ويدعو اهل لبنان خاصة الى خلع نير محمد علي ويعدهم بقرب ورود الجنود والسلاح والذخائر من الاستانة ويطمئنهم ان سواحل بلادهم اصبحت بأمن من اعتداء المصريين ثم يدعو الجنود العثمانية الذين اوصلتهم خيانة قائدهم الى ارض مصر ومنها الى سوريا ان يعودوا الى طاعة السلطان ويعدهم بالتجاوز عما مضي وبدفع مرتباتهم المتأخرة [٢]

٤ً -- رسالة الى الامير بشير شهاب حاكم جبل لبنان يدعوه فيه الى طاعة السلطان و يرسل اليه نسخة من النشرة المشار اليها اعلاه [٣]

٥ً -- رسالة الى الامير بشير قاسم ملحم شهاب نــد الامير بشير قاسم عمر شهاب حاكم لبنان يحثه على الانحياز الى جانب السلطان و يعده بانه يؤيده و بان الباب العالي سيوافيه بالامدادات [٤] .

ثم اخذ في حجز السفن المصرية التي كان وفودها على ميناء بيروت متواصلاً ناقلة المؤن والمهمات الحربيـة للجيش وكتب الى سليمان باشا

---

(١) The War in Syria Vol. I, P. 36

(٢) « « « « P. 36-37

(٣) « « « « P. 37

(٤) The War in Syria Vol. 1, P. 38 المشهور انه متى قيل الامير بشير قاسم يكون المقصود به الامير بشير قاسم ملحم شهاب اما الامير بشير الكبير اي بشير قاسم عمر شهاب فكان يعرف باسم الامير بشير شهاب او الامير بشير عمر شهاب

الذي كان يتولى قيادة الجيش المصري في بيروت يخبره ان ما لديه من التعليمات يوجب عليه حجز السفن المتنقلة بين الموانيء المصرية والسورية حاملةً جنوداً ومؤناً وذخائر حربية ويقترح عليه اصدار أمره بوقف حركة هكذا سفن ما بين الموانئ الداخلة في دائرة اختصاصه اما سليمان باشا فاجاب معتذراً انه ليس لديه تعليمات من حكومته تنبئه بوقوع الحرب ما بين انكلترا ومصر حتى بوقف سير السفن ما بين القطرين او ما بين الموانئ السورية ·

وفي ذلك الاثناء وجد رجال الاسطول الانكليزي في احدى السفن القادمة من الموانئ المصرية كتاباً [1] من بوغوص بك الى سليمان باشا يؤكد فيه ان فرنسا ستساعد محمد علي عسكرياً وانها ستسحب الموسيو بوراً قنصلها في بيروت لانه خالف سياستها وان قناصل دول الحلفاء في مصر يجدُّون في ترجمة اتفاق لندن لينشروه في سوريا طمعاً في احداث ثورة فيها على حكومة محمد علي وان الدولة العثمانية سترسل الى سوريا اسلحة وذخائر وستة الاف جندي وانها قد ابلغت الامير بشير ان بمقتضى اتفاق لندن سيرتفع عنه حكم محمد علي · ثم كان ما كان من عدم رضوخ محمد علي لنصوص الاتفاق المشار اليه وازف وقت تنفيذه بقوة السلاح فوجهت الى بيروت قوات بحرية وبرية مختلطة من انكليز ونمساويين وعثمانيين يتولى قيادتها العامة الاميرال السر روبرت

---

(1) The war in Syria, Vol. I, PP. 43-44

ستوبفورد [1] (Admiral Sir Robert Stopford):

كانت قوات الحلفاء مؤلفة من نحو عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية يقودها الاميرال بنديرا (Bandeira) وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر (Captain Walker) الموظف في البحرية العثمانية والمعروف في تركيا باسم ياور باشا · وكانت القوات البرية مؤلفة من ٥٣٠٠ رجل من العثمانيين و ١٥٠٠ رجل انكليز ومائة من النمساويين وكان قائد القوات البرية جميعها الجنرال السر تشارلس سمث (General sir Charles Smith) وكان معها من القواد الاتراك محمد عزت باشا ومحمد سليم باشا وبما ان السر تشارلس سمث كان مريضاً عندئذٍ سلم القائد العام الى الكومودور نابيار قيادة الجنود البرية موقتاً وهو كان اقدر القواد المرافقين للحملة على القيام بهذه المهمة لانه فضلاً عما عرف به من علو الهمة والاقدام كان قد عرف عن طبيعة الاماكن التي ستكون ميداناً للقتال وعلم من احوال العدو واهل البلاد ما لم يعلمه غيره ·

اما القوات المصرية في سوريا فكانت مؤلفة من نحو ثمانين الف رجل منها في بيروت تحت قيادة سليمان باشا خمسة عشر الفاً وفي صيدا ثلاثة آلاف وفي طرابلس خمسة الاف ونحو عشرة الاف في بعلبك وما بين اربعين وخمسين الفاً في سائر البلاد السورية [2] اما الثغور البحرية

(١) The War in Syria Vol. I, P. 150

(٢) The War in Syria, Vol. I, P. 48

فاذا استثنينا عكا لم يكن فيها من التحصينات ما يستحق الذكر · فبيروت وهي اهم المدن الساحلية كانت محاطة بسور قديم عليه استحكامات ضعيفة متداعية الى الخراب ومدافع قليلة العدد لا تقوى على دفع غوائل الاعداء [1] على ان الجيش كان قوياً بعدده وعدده وبحسن نظام اكثر رجاله واقتدار قواده المحنكين وبيروت وان كانت تحصيناتها ضعيفة فان مرتفعات لبنان القريبة منها كانت في ايدي المصريين فاذا استولى العدو على المدينة بقي محصوراً فيها لان الجيش المصري يحول بينها وبين جبال لبنان · على انه كانت هنالك عوامل تضعف قوة الجيش المصري · فاساطيل الحلفاء تفوق الجنود البرية قوة اذا جرت الوقائع بقرب الشواطيء نظراً لبعد مرامي مدافع السفن الحربية وشدة تأثيرها · كما ان استيلاء الانكليز على خط المواصلات البحرية ما بين مصر وسوريا جعل الجيش المصري في سوريا تحت الحصار وفي ذلك مافيه من التأثير المادي والمعنوي في حالة الجيش · وكانت روح الاستياء منتشرة بين جنود ابراهيم باشا لان الحكومة لم تحسن معاملتهم بعد موقعة نزب اذ امسكت عنهم مرتباتهم مدداً تتراوح ما بين اربعة عشر وتسعة عشر شهراً · وكان بين هؤلاء الجنود كثيرون من السوريين التائقين الى التخلص من نير الحكومة المصرية وعدد غير قليل من الجنود المأجورين وهؤلاء انما يحاربون على قدر ما يؤجرون · وكان لا بد من حصول الوقائع

---

(1) The War in Syria, Vol. I, P. 31

في لبنان ومع ان اهل لبنان كانوا غير متحدي الكلمة فانهم كانوا شديدي النقمة على حكومة محمد علي والامير بشير ونار ثورتهم وان كانت قد اخمدت بحسب الظاهر فانها بقيت مخبوءة تحت الرماد ولا يصعب على عمال الحلفاء اضرامها· فوقف الجنود المصريين بين اللبنانيين مع وجود عدو خارجي بازائهم كان مستهدفاً للخطر مستوجباً لأشد الحذر · على ان الضربة القاصمة الظهر لم تأت من اعداء محمد علي بل من اصدقائه الفرنسويين فان الموسيو تيارس رئيس وزارتهم كان قد غرر به ودفعه الى رفض شروط الحلفاء ووعدته الحكومة الفرنسوية بان تمده بالمال وبماية الف جندي ومائة واربع سفن [1] والموسيو تيارس لم يغرر بمحمد علي وحده بل غرر بدولته وغامر بكرامة قومه لانه بنى سياسته على مقدمات غير صحيحة اذ كان مغالياً باعتقاده بقوة جيوش محمد علي وتوهم ان انكلترا لا تستغني عن مخالفة فرنسا وانها لن تقوم بعمل حازم لمقاومة محمد علي الا بعد اتفاق الدولتين عليه وظن ان مبادئ سياسة الدولتين ومصالحها متفقة [2] وجهل او تجاهل البون الشاسع ما بين مرامي سياستيهما في ما اختص بمصر وسوريا وما وراءهما من البلاد الشرقية فلما ظهر خطاء تقديره وصارت فرنسا منعزلة عن الدول العظمى واصبحت الحرب على قاب قوسين او ادنى عمد الى التضليل والتهويل فاستصدر الاوامر بتعبئة وتقوية الجيش والاسطول وارسل التعليمات

The War in Syria, Vol. I, P. 44 (١)

Soliman Pacha p. 376 (٢)

الى الاميرال لالاند (Laland) قائد الاسطول الافرنسي في مياه الشرق الادنى ليكون على قدم الاستعداد لمقابلة الطوارىء ونادى بان مصر لا تنال بضيم وهي في ظل العلم الافرنسي الظليل [1] لكنه لم يلبث ان وجد فرق الجيش غير مجهزة التجهيز اللازم وعددها اقل من المطلوب وعتادها الحربي ناقصاً ودور الصناعة لا تفي بالمرام وان الاسطول رغماً عن حسن استعداده لمقتضيات السلم لم تكن به الكفاءة لخوض غمار حرب طاحنة ومنازلة اساطيل الانكليز [2] . حينئذٍ وحينئذٍ فقط ادرك الاخطار التي جرها على بلاده وعلى محمد علي وعلى السلام العام بمغامرته السياسية المبنية على الهوس وخطاء التقدير فعول على اتباع سياسة التقهقر فابعد اسطول الشرق الادنى عن مجرى الحوادث الخطيرة ثم استبدل قائده وزوّد الخلف بتعليمات سلمية واخيراً استرجع الاسطول الى الموانئ الافرنسية [3] كما ان الملك لويس فيليب ادرك خطورة موقف فرنسا بازاء المجتمع الدولي فاقال وزارة تيارس وخلفتها وزارة « جيزو » (Guizot) فاحجمت هذه عن امداد محمد علي بالمساعدات التي كان يرجوها من الوزارة السابقة

وهكذا اصبح محمد علي في عزلة تامة بعد ان صار في حالة حرب مع خمس من اعظم دول الارض

---

(١) Soliman Pacha, P. 393

(٢) « « P. 394

(٣) « « P. 394

في هذه العزلة التامة وفي هذه الحالة من خيبة الامل وجد محمد علي نفسه في ساعة الخطر · وفي الساعة التي كانت فيها خيرة جنوده واكابر قواد جيشه ضمن نطاق الحصار وبات حكمه وسعادته وسعادة اعقابه من بعده مهددة بالزوال · ومحمد علي كان رابط الجأش في مواجهة الاخطار واسع الحيلة في حل المشكلات ومع شدة عناده وصلابة عوده كان مرن السياسة عند مسيس الحاجة غير انه في هذا الدور الاخير من ادوار المسألة السورية ظل منقاداً لمواعيد الموسيو تيارس الغرارة الى ان اوصلته الى شفير الهاوية فلم يبق لديه متسع من الوقت لحل الاشكال سريعاً على وجه يحفظ كرامته ويرضي الحلفاء لان عزة نفسه أبت عليه التضاؤل فجأة امام دول الحلفاء بعد ان كان قد اظهر ما اظهر من الشدة والحدة في مخاطبة مندوبيهم عندما عرضوا عليه شروطهم ورفضها كما انه حذر الاستماتة في مقاتلتهم لانه لو كسر جنودهم كسرة شائنة لحفر بينه وبينهم هوة عميقة [1] واطال امد الحرب فجردوا عليه حملات جديدة ووسعوا دائرة القتال وهاجموه في الاسكندرية نفسها فينقطع الرجاء بمصالحتهم على شروط تحقق آماله · فاذا تذكرنا كل ذلك علمنا سبب الضعف الذي ابداه ابراهيم باشا في مقاومة الحلفاء في المدن والجهات الساحلية كما سترى

وصل الاميرال السر روبرت ستوبفورد القائد العام لقوات الحلفاء

---

(١) Soliman Pacha, p. 396

الى بيروت في ٩ ايلول سبتمبر سنة ١٨٤٠ وقرر بدء الحركات الحربية بالنزول في جونية حيث يسهل فيها الاتصال باللبنانيين وتوزيع الاسلحة عليهم كما انها واقعة على الطريق المؤدية من طرابلس الى بيروت فاصلة بين حاميتي المدينتين ولو جرى احتلال بيروت اولاً لبقي الجيش المصري حاجزاً بينها وبين لبنان ففي مساء ٩ ايلول (سبتمبر) استعد الاسطول لانزال الجنود الى البر وفي صباح ١٠ منه قام قسم منه بمناورة امام راس بيروت ليوهم العدو انه يبغي مهاجمته وانزال الجنود الى البر في تلك الجهة ثم اقلعت السفن متجهة نحو جونية ومصب نهر الكلب وانزلت الجنود فيهما فاخذ اللبنانيون يفدون عليهم لتسلم السلاح وممن حضر بعد ايام قليلة الامير عبد الله حسن شهاب حاكم كسروان وهو ابن اخي الامير بشير شهاب حاكم جبل لبنان فكان لتسليمه مغزى عظيم لاسيما وان عثمان باشا احد كبار قواد ابراهيم باشا كان مرابطاً في كسروان[1] مع قوة كبيرة من جنوده · واحتلت الجنود العثمانية غزير وحريصة وزوق ميكائيل من البلاد الكسروانية ولم يتصد عثمان باشا لها كما انه لم يحاول منع نزولها في جونية غير انه في ذلك الاثناء كان ابراهيم باشا يتنقل ما بين القاطع وكسروان · ثم حصل قتال مع الثوار في بقعاتا وميروبا ووطا الجوز وأحرقت حراجل وفاريا ووطا الجوز وبعض بيوت من فيترون · وحدثت موقعة في عين عار بين الجنود العثمانية الامير

---

(١) The War in Syria, Vol. I, PP. 51-55

مسعود شهاب ومعه جنود الباتية ونظامية ودروز فالعسكر النظامي انضم الى العثمانيين اما الالبانيون والدروز فانهزموا مع الامير مسعود[١] فجرأ هذا الانتصار كثيرين من اهل القاطع على الانضمام الى عسكر السلطان وحضر اهل بيت شباب الى المعسكر العثماني وتسلموا الاسلحة لمحاربة ابراهيم باشا وعلى اثر ذلك حصلت موقعة بين رجال ابراهيم باشا والثوار في بيت شباب وعين العلق وجوارها فتغلب العسكر على الثوار ونهب البلدة والكنائس والاديار وحرقوا بعض البيوت[٢]

وبعد ان ثبتت عساكر السلطان أقدامها في جونية وجوارها شرع الاسطول في اتخاذ التدابير لاحتلال المدن الساحلية · ففي ١١ ايلول طلب قائد الاسطولين الانكليزي والنمساوي من سليمان باشا ان يسلمهما مدينة بيروت ليحتلاها باسم السلطان فماطلهم في الجواب فقابلوا المماطلة باطلاق المدافع على قلاع المدينة وابراجها فاحتج سليمان باشا على ذلك احتجاجاً شديداً زاعماً ان عدداً من النساء والاطفال والعاجزين ومن الفلاحين الساكنين الذين لاشأن لهم في النزاع ذهبوا ضحية نيرانهم وانهم اذا كانوا حقيقة يرغبون في سلامة الابرياء فما عليهم الا ان يوجهوا خطابهم بشأن تسليم المدينة الى محمد علي اما هو فالاوامر الصادرة اليه

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٥٢

(٢) حروب ابرهيم باشا المصري الخ ج ٢ ص ٥٣ وقد اخبرنا ثقة ان العسكر لم يتعرض لبكفيا القريبة من بيت شباب لان اهلها كانوا قد اظهروا خضوعهم لابرهيم باشا بواسطة الشيخين حردان الجبلي وفياض علوان اللذين ذهبا الى مقر ابرهيم باشا حينئذ عند سنديانات المروج

من مولاه توجب عليه الدفاع عنها لا تسليمها وعليه فهو عازم على الدفاع عنها بكل قواه . فقواد الحلفاء لم يشددوا الحصار على بيروت بل كانت سفنهم تمطرها وابلاً من قنابلها من حين الى حين . ووجهوا بعض سفنهم الى جهات اخرى [1]

الاستيلاء على جبيل ١٢ و ١٣ ايلول سنة ١٨٤٠ : في ١٢ ايلول هاجم الحلفاء قلعة جبيل بحراً وبعد اطلاق المدافع عليها بشدة ساعة كاملة انزلت الجنود البرية للاستيلاء عليها ولما اقتربت منها امطرتها الحامية ناراً آكلة واضطرتها الى الانسحاب لان الحامية كانت معتصمة بحصن منيع مستور عن السفن فلم تصبه مدافعها ولم يكن في امكان الفصيلة البرية اقتحامه لوجود خندق عميق امامه وحائط رفيع لا باب فيه ولا يمكن تسلقه والحامية مستترة وراء الاستحكامات . لكن في اثناء الليل تمكن اللبنانيون الموالون للحلفاء من احتلال البلدة كما ان الحامية الالبانية التي كانت في القلعة انسحبت منها تحت ستار الليل فاستولى عليها الحلفاء في الصباح [2]

فالاستيلاء على جبيل سهل اتصال الحلفاء باهل البلاد المجاورة فاقبل كثيرون منهم على تسلم السلاح والمحاربة الى جانب الحلفاء

البترون : وتقدم الحلفاء من جبيل الى البترون فطردوا الالبانيين

---

(١) The War in Syria, Vol. I, PP. 56-60

(٢) The War in Syria, Vol. I, PP 62-65

الذين كانوا نازلين في جوارها ووزعوا السلاح على رجال تلك المقاطعة[1] الذين انضموا الى الحلفاء فثبتوا اقدام هؤلاء في شمالي لبنان

الاستيلاء على حيفا ١٧ و ١٨ ايلول سنة ١٨٤٠ : وفي ١٧ و ١٨ ايلول هاجمت السفن مدينة حيفا ففرقت حاميتها التي كانت مؤلفة من خمسماية مقاتل واتلفت عدة مدافع ودكت حصناً واستولت على مدفعين وعلى كمية من الاسلحة والمؤن · قامت بكل ذلك دون ان تصاب باقل خسارة سوى جرح رجلين اثنين من انفجار احد مدافع العدو بينما كانا يعملان على اتلافه[2]

الاستيلاء على صور ٢٤ و ٢٥ ايلول سنة ١٨٤٠ :انتقلت السفن الى صور في ٢٤ ايلول فاطلقت النار على حاميتها وشتت شملها وانزلت جنوداً الى البر في اليوم التالي فاتلفت المدافع واستولت على مقدار كبير من الحبوب وعلى بعض الذخائر[3]

الاستيلاء على صيدا في ٢٦ ايلول سنة ١٨٤٠ : هذا ما قامت به السفن وكانت الجنود البرية قد وطدت مركزها في جونية وغيرها من قرى كسروان وانتصرت على الجنود المصرية في موقعة عين عار التي اشرنا اليها قبلاً واسرت منها ما بين ثلاثماية وار بعماية جندي وآنس الحلفاء من ابراهيم باشا الرغبة في التزام خطة الدفاع فقرروا مهاجمة صيدا بحراً

(١) The War in Syria, Vol. I, P. 61

(٢) « « « Vol. I, P. 97-99

(٣) « « « Vol. I, PP. 101-102

واحتلالها فتزداد قوة الحلفاء المعنوية وتتسع مناطق اتصالهم باللبنانيين الناقمين على ابراهيم باشا ·

وكانت القوة التي هاجمت صيدا مؤلفة من ثمان سفن حربية يقودها الكومودور نابيار ونحو الف مقاتل من الجنود البرية اما حامية المدينة فكانت تبلغ نحو ثلاثة الاف مقاتل · رست السفن في ميناء صيدا في ٢٦ ايلول وطلب قائدها من المتسلم تسليم المدينة فرفض فاطلقت السفن مدافعها على القلعة وثكنات الجنود ثم على المنازل لوجود الجنود فيها او مختندقين ورائها فخربت منازل كثيرة وفي جملتها منزل سليمان باشا ثم انزلت الجنود الى البر فقاومتها الحامية مقاومة عنيفة وقاتلتها مستبسلة عند اختراقها المدينة واخيراً سلمت بعدما قتل قائدها الباسل حسن بك وعدد كبير من رجالها · اما المهاجمون فخسروا اربعة قتلى و٣٣ جريحاً [١]

وبعد ان تم فتح المدينة وضعت فيها حامية عثمانية وأُنزل الاسرى الى السفن ونقلوا الى بيروت وبقيت بعض السفن الحربية تحت قيادة القبطان باركلي في ميناء صيدا وعاد الكومودور نابيار الى جونية [٢]

وقد كان لسقوط صيدا في ايدي الحلفاء وقع سيء عند ابراهيم باشا لقربها من جنوبي لبنان الذي يقيم فيه حاكم الجبل ولذهاب حاميتها كلها ما بين قتيل واسير فاشتد ساعد الثوار وانقطعت المواصلات

---

(١) Soliman Pacha, PP. 401-402 و The War in Syria, Vol. I, PP. 86-90

(٢) المؤلف نفسه ص ٩٢ و ٩٣

الساحلية ما بين الموانئ الباقية في ايدي المصريين وكان المستر وود واعوانه يحرضون اللبنانيين على الثورة والانحدار الى السواحل لتسلم الاسلحة والذخائر . وكانت قوة كبيرة من الجنود بقيادة عثمان باشا مرابطة في ميروبا من جرود كسروان وقوة اخرى بقياده سليمان باشا في ظاهر بيروت اما ابراهيم باشا فكان يتنقل ما بين المعسكرات المختلفة ومقاطعات المتن والشوف عاملاً على استبقاء من استطاع من اللبنانيين على موالاته ولما بلغه خبر سقوط صيدا في ايدي الحلفاء اسرع في الذهاب الى بيت الدين وعاد الى سياسة التفريق الطائفي التي مكنته قبلاً من رقاب اللبنانيين فدعا الامير بشير بعض مشايخ الدروز الى الاجتماع في بيت الدين في ٤ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ وحتى يغري الدروز بالمسيحيين « كتب لهم ابراهيم باشا حجة على نفسه بان كسروان تكون لهم ملكاً الى الى الابد بكامل ارزاقها وعمارها وتعهد لهم بانه يرجع النظام الذي اخذه منهم وانه لا يأخذ منهم لا فرده ولا ميري [1] » على ان تلك الحجة لم تكن اعظم قيمة من ذلك المرسوم الذي أصدر للمسيحيين في سنة ١٨٣٨ بالانعام عليهم بستة عشر الف بندقية لمقاتلة الدروز وبتخويلهم نقل السلاح « دائماً سرمداً » [2] وقد كانت اقل منه تأثيراً ونجاحاً لا سيما ان حكومة ابراهيم باشا والامير بشير في لبنان كانت قد بلغت دور الاحتضار ففي تلك الآونة غادر الامير بشير قاسم ملحم معسكر المصريين القريب

(١) حروب ابرهيم باشا ج ٢ ص ٥٧
(٢) مذكرات تاريخية ص ١٥١

من بيروت خلسة وانضم الى معسكر الحلفاء في جونية كما ان الامير بشير الكبير نفسه ابلغ الحلفاء سراً انه مستعد للانضمام الى صفوفهم طالباً ابقاءه حاكماً بضمانة الدول الاربع وان يعطى مهلة لاستدعاء اولاده وحفدته من معسكر ابراهيم باشا فلم يوافقوه على الضمانة لكن رضوا باعطائه مهلة مشترطين عليه التعجيل في اثبات حسن قصده بالعمل وقر الرأي على انه اذا لم ينضم الى الحلفاء في موعد ضربوه له يعزلوه ويولوا الامير بشير قاسم ملحم بدلاً منه · اما الامير بشير هذا فتلقاه الحلفاء بالاكرام عند وصوله الى جونية ثم صعد الى الجبل ليتولى قيادة اللبنانيين الذين كانوا يراقبون حركات ابراهيم باشا وعثمان باشا في ميروبا[1]

وعلى اثر ذلك فر احد ضباط جيش عثمان باشا وبعض الجنود الى معسكر اللبنانيين وابلغ الامير بشير قاسم ان عثمان باشا عازم على الرحيل بعسكره الى البقاع في فجر اليوم التالي بناء على امر ورد عليه من ابراهيم باشا فبادر الامير الى مهاجمته في الصباح فانهزم عثمان باشا واللبنانيون يقتفون اثره الى نبع صنين واخذوا من رجاله نحو ثلثماية اسير · وقد جرت هذه الوقعة في ٤ تشرين اول وهو اليوم الذي اجتمع فيه ابراهيم باشا بالدروز[2] في بيت الدين · فارتفع شأن الامير بشير قاسم في عيون قواد الحلفاء · وبعد فتح صيدا وانهزام عثمان باشا اتجهت

(١) The War in Syria, Vol. I, PP. 95-96
(٢) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص٨٥ و The War in Syria, Vol. I, PP. 116-118

الابصار الى مهاجمة سليمان باشا والاستيلاء على بيروت وداخل اليأس جنود سليمان باشا لخوفهم من قطع مواصلاتهم مع البلاد الداخلية كما قطعت ما بينهم وبين البلاد الساحلية من الجهتين الشمالية والجنوبية . وكانت خطة الحلفاء ان يهاجموا بيروت براً وبحراً فاخذت قوات الحلفاء البرية وانصارهم اللبنانيون في التقدم من جونية وجرد كسروان نحو بلاد القاطع على ان يكون الملتقى في بحر صاف ولعل سليمان باشا ادرك الخطر من هذه الحركة فاخلى بيروت في مساء ٩ تشرين اول[1] وبغتة في اليوم نفسه التقت طلائع جنود ابراهيم باشا بجنود الحلفاء المتقدمة نحو بحرصاف فردتها هذه على اعقابها وعرف بعد الاستكشاف ان ابراهيم باشا ومعه نحو ثلاثة الاف مقاتل يحتلون موقعاً منيعاً في بحرصاف فاحتل الحلفاء موقعاً آخر بازائهم لا يقل عن موقعهم مناعة وارسل الكومودور نابيار الى الامير بشير قاسم يستقدمه من بسكنتا الى بكفيا ليتقدم منها الى ما وراء موقع العدو في بحرصاف كما انه امر عمر بك ان يتوجه بكتيبتين الى مجلتون ثم يقطع نهر الكلب ليلاً ويتقدم الى بكفيا فيتحد مع اللبنانيين ويهاجموا جنود ابرهيم باشا من الوراء فاللبنانيون لم يتمكنوا من الوصول في الوقت المعين لكنهم منعوا فرقة مؤلفة من نحو الفي رجل من انجاد[2] ابرهيم باشا اما عمر بك فقام بالمهمة التي انتدب لها بكل دقة وفي ١٠ تشرين اول (اكتوبر) عند الساعة الثانية بعد الظهر شرع في

---

(١) حروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٤٨ و The War in Syria, Vol. I, P. 133

(٢) The War in Syria, Vol. I, P. 151

اطلاق الرصاص على مؤخرة المصريين [1] ولما سمع الكومودور نايار صوت الطلقات النارية امر جنوده وانصاره اللبنانيين بالتقدم لمهاجمة العدو من الامام وكان قد وجه كتيبة لمناوشة ميسرته فتقدم الاتراك للهجوم ببسالة بقيادة سليم باشا والجنرال جوكوس وتسلقوا الاكمة التي كانت تحتلها جنود ابرهيم باشا ولما بلغوا قمتها وواجهوا الجنود الواقفة في الخط الاول انقطع هؤلاء عن اطلاق رصاص بنادقهم والقوا سلاحهم مستسلمين لمهاجميهم [2] . وبعد شيء من التردد استأنفت جنود الحلفاء الهجوم على الخط الثاني فاستُقبلوا اولاً بنار حامية لكن لم يمض سوى نصف ساعة حتى انهزم رجال هذا الخط تاركين في ايدي العدو مؤنهم وذخائرهم وامتعتهم وبين ستماية وسبعماية اسير [3] وفصل الظلام بين المتحاربين اما ابرهيم باشا الذي تولى القيادة بنفسه في هذه الموقعة فانهزم بشرذمة من رجاله ومرَّ بهم في قرية صليما الى قرنايل . وفي الليلة نفسها انسحب سليمان باشا من الحازمية نحو البقاع تاركاً مدافعه والفي جندي بقيادة الميرالاي صادق بك اما خيامه وبعض المهمات العسكرية فكان قد ارسلها قبل يوم انسحابه [4] . والفرقة التي تركت في بيروت سلمت مع قائدها الى الحلفاء في ١١ تشرين اول [5] .

---

(١) The War in Syria, Vol. I, P. 147

(٢) « « « Vol. I, P. 148

(٣) « « « Vol. I, P. 149

(٤) « « « Vol. I, P. 155

(٥) مخطوطة نوفل ص ٥١٠ و The War in Syria, Vol. I, P. 156

ذكرنا قبلاً ان الحلفاء اعطوا الامير بشير الكبير مهلة للتسليم فهذه المهلة انتهت في ٩ تشرين اول وهو لم ينضم الى الحلفاء ففي ذلك التاريخ صدر فرمان بعزله وولي بدلاً منه على جبل لبنان الامير بشير قاسم ملحم شهاب [١] وهو الملقب «ابو طحين» . وتلا ذلك انكسار ابرهيم باشا في بحرصاف وانسحابه وانسحاب سليمان باشا نحو البقاع فظهر للامير بشير الكبير رجحان كفة الحلفاء وعوّل على النزول الى صيدا للتسليم اليهم وهو يأمل ان يبقوه في منصة الحكم وكان حينئذٍ حنا بحري بك في بيت الدين فلاحظ حصول حركة غير اعتيادية في دائرة الامير فادرك انه يتأهب للفرار الى معسكر العثمانيين وفي رواية ان الامير لما رأى اتفاق كلمة اهل البلاد على مقاومة ابرهيم باشا قال لبحري بك : « قوم روح لعند باشتك وقل له لم عاد فائدة . البلاد صارت جميعها صوت واحد » [٢] . وفي ١١ تشرين اول غادر الامير بشير بيت الدين مع حاشية كبيرة قاصداً الى صيدا فدخلها في ١٢ منه وتلقاه رجال الحكومة بالاكرام ومنها ارسلوه الى بيروت حيث تقرر ابعاده الى مالطه واذن له ان يستصحب عائلته واتباعه واستبقت الحكومة له املاكه في لبنان وحمل معه امواله وقيل انه كان لديه من النقود الذهبية ثمانية عشر الف كيس [٣]

---

(١) The War in Syria, Vol. I, P. 125

(٢) مذكرات تاريخية ص ٢١٤

(٣) مخطوطه نوفل ص ٥١٠ وفي رواية مشاقة ان مقدار النقود كان ثمانية آلاف وثلاثمائة وسبعين كيساً كما جاء في صفحة ٢٩٨ من مخطوطه .

وكان ابراهيم باشا على اثر انهزامه من بحرصاف قد عزم على الذهاب الى بيت الدين لكنه التقى في الطريق ببحري بك فاخبره ان الامير بشير قد نزل الى صيدا فعاد عن عزمه . اما الحاكم الجديد الامير بشير قاسم ملحم فتقدم الى حمانا وحشد هناك نحو ثلاثة الاف وخمساية مقاتل من اللبنانيين اما الجيش المصري فكان قد احتشد منه في زحلة والمعلقة نحو خمسة عشر الف رجل بقيادة ابراهيم باشا وسليمان باشا وارسل مرضى الجيش وهم نحو الالف عداً الى دمشق فاخذ الامير القلق حاسباً ان ابراهيم باشا ربما يعود الى مهاجمته فطلب من الحلفاء ان ينجدوه بثلاث كتائب عثمانية او بمدوه بعدد كبير من السلاح لتسليح الدروز فيستغني عن النجدة العثمانية ويكفيهم مؤونة ابراهيم باشا"[1]

بعد انسحاب ابراهيم باشا وسليمان باشا الى البقاع انجلت الحامية المصرية عن طرابلس واللاذقية وادنة بدون قتال"[2] ولم يبق على الحلفاء الا ان يستولوا على عكا وهي المدينة الوحيدة المحصنة على السواحل السورية

الاستيلاء على عكا ٢ و ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ :"[3] تلقى الاميرال السر روبرت ستوبفورد في اواخر تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٨٤٠ اوامر حكومته بالاستيلاء على عكا وفي ٢٩ منه استقر الرأي على حشد القوات البحرية وبعض الجنود البرية حولها فصدر الامر الى عمر بك

---

(١) The war in Syria, Vol. I, P. 177
(٢) The war in Syria, Vol. I, P. 172
(٣) The war in Syria, Vol. I. PP. 197-211-220-223

ان يتقدم براً من صيدا الى نقار عكا (الناقورة) بالفي مقاتل وفي ٣١ منه اقلع الاميرال من بيروت بسفنه ومعه ثلاثة الاف مقاتل من الاتراك تحت قيادة سليم باشا و بعض رجال المدفعية والهندسة وجنود الاحتلال البحريين فوصل عمر بك الى المكان المخصص له في نفس الوقت الذي اقبلت فيه سفن الاسطول على عكا في ٢ تشرين ثاني . لكن مجرى الرياح لم يكن ملائماً للسفن في ذلك اليوم فارجيء ضرب المدينة الى اليوم التالي وكانت قوات الحلفاء البحرية مؤلفة من واحد وعشرين سفينة حربية منها سبع عشرة سفينة انكليزية . اما حامية عكا فكانت مؤلفة من نحو خمسة الاف مقاتل وكان محمد علي قد اهتم بتحصينها تحصيناً محكماً من جهة البر بنوع خاص لان اكثر الذين حاصروا عكا في ما مضى جاؤها من جهة البر اما واجهة التحصينات البحرية الواقعة الى غربي البلد وجنوبيها فلم تنل ما تستحقه من الاعتناء ولعل تلك التحصينات كانت معدة لمقاومة الاتراك فقط وهو لم يكن ليخشى سطوة بحريتهم ويظهر انه لم يحسب حساباً لاتحادهم مع دولة بحرية قوية [1] ولتعرض الاسوار البحرية لقنابل مدافعها البعيدة المرمى الشديدة التأثير

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ٣ تشرين ثاني ابتدأ الهجوم على عكا فسلطت جميع السفن قذائف مدافعها على المدينة واسوارها فكان المشهد

---

(١) Laurent, T. I, P. 193

جهنمياً كما وصفه احد الشعراء بقوله :

قالوا بان جهنماً تحت الـثرى ما لي اراها فوق عـكة تضرمُ
لو لم تكن دار الشقاوة عكةٌ ما امطرتها بالشرار جهنمُ

ورغماً عن بسالة الحامية وقيام رجال المدفعية بدفاع مجيد لم يكن في طاقة احد من البشر الثبات طويلاً في وجه المقذوفات الهائلة ونيرانها الآكلة التي استمرت الى ان خيم الظلام وهي تنصب من افواه اربعماية وسبعين مدفعاً على موقع لا يزيد طوله عن ثلاثة الاف وثلاثماية قدم وعرضه عن الف وخمسماية قدم [1] . وقد روي ان احدى سفن الاسطول الانكليزي انفقت في هـذه الموقعة ماية وستين برميلاً من البارود . ومما زاد نكبة المدينة هولاً ان قذيفـة اصابت مخزن الذخائر فانفجر انفجاراً مريعاً فنسف ما فوقه نسفاً في طبقات الجو ودمر ما جاوره من الابنية وكان في ما اتلفه نحو الف وخمسماية من النفوس اكثرهم من جنود الحامية . اما حاكم المدينة فانسحب منها ليلاً مع بعض الجنود والاتباع على ان الحلفاء لم يدخلوها الا في صباح اليوم التالي . وقد انجلت الموقعة عن نحو الفين ما بين قتيل وجريح من حامية المدينـة وثلاثة الاف اسير ارسل بعضهم الى الاستانـة والبعض الاخر الى بيروت وكان في عـداد الاسرى رئيس المهندسين الكولونل شولتز البولوني المعروف في الجيش المصري باسم يوسف آغا . ووقع في

---

(1) La Guerre de Mehemet Ali Contre la Porte Ottomane PP.61,70-71

ايدي الحلفاء مقادير عظيمة من الاسلحة والذخائر والمؤن وحل بالمدينة وتحصيناتها ومدافعها من التدمير والتخريب والتعطيل ما يفوق وصف الواصفين . اما خسائر الحلفاء فبلغت نحو عشرين قتيلاً واربعين جريحاً ولم تصب الا بعض السفن باضرار بسيطة يسهل اصلاحها .

وبعد الاستيلاء على المدينة اقيمت فيها حامية عثمانية مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سليم باشا ومايتين وخمسين من رجال الاحتلال البحريين ثم انسحب الاسطول من الميناء تاركاً سفينتين اثنتين لمعاونة حامية المدينة عند اللزوم .

تسليم يافا والانقلاب العام على اثر سقوط عكا في ايدي الحلفاء سلمت حامية يافا[1] لفرقة من اسطول الحلفاء وقدم النابلسيون خضوعهم وصار الانقلاب عاماً على حكومة محمد علي فدخلت المسألة السورية في دورها الختامي واصبح ابرهيم باشا وجيشه غرباء في ارض اعداء ولم يبق امامهم سوى الاستشارا او التعرض للهلاك او الجلاء

(١) Laurent T. I, P. 197

انسحاب ابراهيم باشا من سوريا

ورجوع المبعدين اللبنانيين والجنود السوريين الى بلادهم

بعد ما تم للحلفاء فتح الموانئ السورية وقطع مواصلات الجيش المصري بحراً وجَّه القائد العام لقوات الحلفاء بعض السفن الحربية الكبرى بقيادة السر تشارلس نابيار الى المياه المصرية للقيام بمظاهرة تجاه الاسكندرية التي كانت حينئذٍ مقر[1] محمد علي وكان الغرض من هذه المناورة افهام محمد علي ان عدم خضوعه لارادة الحلفاء يجعل مقامه في القطر المصري نفسه معرضاً للخطر · اما السر تشارلس نابيار فرأى ان مجرد التظاهر البحري لا يأتي بنتيجة حاسمة لان الاسطول لم يرفق بجنود برية يمكن انزالها الى البر لاحتلال الثغور وكان اقتراب فصل الشتاء مما يحول دون مرابطة السفن بقرب الشواطئ المصرية والقيام باعمال حربية ذات شأن[2] كما ان التسويف في تسوية النزاع القائم بين الدولة العثمانية ومحمد علي ربما ادى الى حرب اوروبية لما بين فرنسا من جهة وانكلترا وحلفائها من جهة اخرى من اختلاف وجهة النظر في كيفية التسوية · وعدا هذه الاعتبارات كان السر تشارلس نابيار قد وقف

---

(١) The war in Syria, Vol. I, P. 248

(٢) « « « P. 249

على رسالة[1] من رئيس الوزارة الانكليزية الى سفير حكومته في الاستانة خلاصتها ان الخطة المثلى لحسم النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد علي هي ان يبادر محمد علي الى تقديم خضوعه للسلطان ويعيد الى مياه الاستانة الاسطول العثماني الذي كان قد فرّ به الى الاسكندرية قائده احمد فوزي باشا على اثر وفاة السلطان محمود وان يسحب جنوده من سوريا وكريت والبلاد العربية وانه متى فعل ذلك يمنحه السلطان الحكم الوراثي على مصر . على انه وان كان هذا مضمون رسالة رئيس الوزارة الانكليزية فانه لم يصدر الى السر تشارلس نابيار تفويض من اي مرجع عال بعقد اتفاق مع محمد علي باشا بحسب الرسالة المشار اليها . لكنه رغماً عن ذلك رأى ان الاعتبارات والمعلومات السابق ذكرها تبرر شروعه في مفاوضة محمد علي والاتفاق معه قبل الحصول على اذن دولته بذلك لاعتقاده ان حل المشكلة حلاً سريعاً سلمياً يقابل بالرضى من دولته وحلفائها لانه يؤدي الى تفريج الازمة السياسية والتخلص من موقف حربي محفوف بالشكوك . فنجح السر تشارلس في مفاوضاته مع محمد علي وعقد معه اتفاقاً في ٢٧ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٠ غير ان الحلفاء لم يوافقوا على جميع مواد الاتفاق[2] . فاعيدت المفاوضة على غير يده وأرسلت تعليمات الى قائد قوات الحلفاء ان يمضي في اجراءاته الحربية التي تؤدي الى اخراج المصريين من سوريا وان لا

---

(١) The war in Syria, PP. 249-252

(٢) « « Vol. I, PP. 282-285

يوقف تلك الاجراآت الا متى ورد عليه علم من الاستانة بحصول الاتفاق مع محمد علي ·

فبعد تجديد المفاوضة رضي محمد علي بشروط الحلفاء وهي ان يبادر الى طلب العفو من السلطان ويعلن استعداده لارجاع الاسطول العثماني الى مياه الاستانة ولسحب جنوده من سوريا وكريت والبلاد العربية وان يفوض امر مستقبله للمراحم السلطانية [1] رضي محمد علي بهذه الشروط التي لا تقيد السلطان بشيء لانه نظراً لما كان يعرفه عن نوايا الحلفاء تيقن ان على اثر تقديم خضوعه سيصدر السلطان ارادة سنية تعيد اليه حكم مصر الذي كان قد جرده منه وان يجعل الحكم وراثياً في اعقابه · اما السلطان فتلقى عريضة محمد علي بالقبول واصدر امره باعادة حكم مصر اليه لكن اغفل مسألة الحكم الوراثي وبعد تكرار المفاوضة والماطلة انصاع الباب العالي لنصيحة الحلفاء وصدر امر السلطان بمنح محمد علي واعقابه الحكم الوراثي على مصر وانتدب السر تشارلس نابيار لتنفيذ الاتفاق الذي كان قد صار في جوهره بعد المفاوضات المكررة كالاتفاق الذي عقده اولاً مع محمد علي [2] فشهد تسليم الاسطول العثماني للمندوبين العثمانيين وارسل مندوباً مصرياً واصحبه بضابط انكليزي الى سوريا لاجل تبليغ ابراهيم باشا امر والده بالجلاء عن سوريا وتبليغ قواد الحلفاء وجوب تسهيل امر الجلاء والاذن للنساء والاولاد ولمرضى

(١) The war in Syria, Vol. 2, PP. 29-31

(٢) « « « Vol. 2, pp. 61-63

الجيش وجرحاه بان يعودوا الى مصر بحراً مارين بينا حيفا او ميناء آخر اذا وجدوا ذلك اكثر مناسبة

ومن يمعن النظر في موقف الجيش المصري في سوريا بعد تخلي فرنسا عن محمد علي وتألب سائر الدول العظمى عليه يرَ من خلال الحوادث ان محمد علي عول على اخلاء سوريا حالما اضحى وحيداً بلا نصير من الدول الاوربية لانه لم يكن في وسعه مخاصمة ذلك الاتحاد الدولي العظيم لكن حيث كان لا بد لجنوده وسياسته ايضاً من التقهقر بشيء من الانتظام كانت الاعمال الحربية التي قام بها جيشه بازاء الحلفاء شبيهة بمناورات تحفظ كرامته وتستر غرض الانسحاب الذي كان يرمي اليه

فابرهيم باشا وسليمان باشا وضباطهم وجنودهم المجرَّبين لم يحاربوا في وقائعهم الاخيرة في لبنان بتلك البسالة والمهارة التي عرفوا بها في حروبهم السابقة · قارن مصادماتهم الضعيفة في لبنان بما ابدوه من الخبرة والشجاعة والثبات التي كللت هاماتهم بغار الانتصار مراراً في مقاتلة الوهابيين واخماد ثورة المورة ومحاربة العثمانيين في سوريا والاناضول تجد البون شاسعاً بين الحالين · ولما انسحب ابراهيم باشا الى زحلة لم يكن هنالك عدو قوي يطارده ولو شاء العودة الى لبنان لما وجد من يقف في وجهه لان جنود الحلفاء لم تبتعد عن السواحل ولم يكن على مقربة من زحلة من الاعداء سوى ثلاثة الاف وخمسماية مقاتل من

اللبنانين حشدهم الامير بشير قاسم في حمانا [1] على مسيرة نحو ساعتين من زحلة ولم تكن لديهم المؤونة والاسلحة والذخائر الكافية لمقاومة ابراهيم باشا . ومع هذا لم يتعرض ابراهيم باشا لهم بل شرع في اخلاء السواحل والبلاد الشمالية فسحب الحامية المصرية من طرابلس واتلف مخازن الذخيرة فيها واخلى منطقة ادنه واللاذقية ولم يمض الاشهر وبعض الشهر منذ نزول جنود الحلفاء في جونية حتى انجلت الجنود المصرية عن اعالي لبنان وسواحله وسوريا الشمالية وفرَّ اواُسر منها نحو عشرة الاف رجل وحشد معظم جيش ابراهيم باشا في زحلة والمعلقة تأهباً للانسحاب جنوباً [2] وكان عدده نحو ستين الف رجل عند الانسحاب مع ان جنود الحلفاء لم تتجاوز ثمانية الاف مقاتل [3] ولا يخفى ان كل ذلك جرى قبل بدء المفاوضة ما بين السر تشارلس نابيار ومحمد علي واصبح التقهقر من سوريا عاماً قبل انتهاء تلك المفاوضة

وقد كان الجيش في اثناء انسحابه من شمالي سوريا وفي المدة التي قضاها في دمشق محافظاً على النظام غير انه نهب بلدة المعرة لان اهلها رفضوا تقديم ما يلزمه من المؤن ونهب بعض المطاعم والمنازل في مدينة حمص لان المطاعم اقفلت ابوابها في وجوههم واهل المدينة ابوا ان يبيعوا الجنود ما يلزمهم من الاغذية غير ان قائد الجيش المنسحب عاقب

---

(١) The war in Syria, Vol. I, pp. 179-180

(٢) « « « Vol. I, p. 173

(٣) « « « pp. 173-253

بالقتل الجنود الذين ثبت عليهم جريمة النهب ورد بعض المنهوبات الى اصحابها [١]

وبعدما احتشد الجيش في دمشق وجوارها وقع مطر غزير واستمر وقوعه بضعة ايام وكان البرد قارساً فاضطر الجيش النازل في ضواحي دمشق الى الانتقال الى داخلها فاحتل عدداً كبيراً من الحوانيت وبعض الخانات وجميع المقاهي وبعض المنازل المحاذية الشارع الواقعة ما بين السنانية وبوابة الله · واحتل ايضاً جوامع المدينة ما عدا الجامع الاموي وجامع السنانية فارتفعت اسعار المأكولات في المدينة واحتكر الجيش المطاحن والافران ليعد الزاد الذي يلزمه للرحيل [٢] وسخر الدواب لنقل عائلات العساكر ولوازمهم فحدث بسبب ذلك ضيق شديد · وكان ابرهيم باشا في اثناء ذلك يعاقب بمنتهى الشدة الذين يحاولون التملص من تقديم ما يطلب منهم من المؤن وعلف الخيل · ولما دنا وقت الرحيل عن دمشق جدّ في تحصيل بواقي الاموال المطلوبة منها ومن القرى التي تجاورها ونهب القرى التي امتنعت عن دفع الضرائب المرتبة [٣] عليها · فكان كل ذلك من دواعي اشتداد العداء له ، معززاً حركات الانتقاض عليه ·

وظهرت بوادر الخيانة والتمرد في صفوف الجيش وبين الموظفين

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٢٢٥ و ٢٢٦

(٢) مذكرات تاريخية ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٣) مذكرات تاريخية ص ٢٣٠ — ٢٣١

واهل البلاد ففر كثيرون من الجنود السوريين وخصوصاً اللبنانيين في اثناء انسحاب الجيش من شمالي سوريا وعادوا الى اهلهم او انضموا الى المحاربين وكان بين هؤلاء شبلي اغا العريان الزعيم المشهور . وشعر ابرهيم باشا بحركات عدائية في دمشق وجوارها فاسرع الى التنكيل بعدد من الدمشقيين بينهم بعض الضباط واوقع ببعض شيوخ القرى واهاليها — وانتقض عليه بعض الدروز والعربان وغيرهم فاعترضوا قوافل الذخيرة عند سعسع ونهبوها وقاتلوا العساكر فتوجه اليهم ابرهيم باشا بنفسه بعدد كبير من المقاتلة وبعض المدافع فشتت شملهم وقتل واسر منهم واحضر الاسرى الى دمشق حيث قطع رؤوس بعضهم [1] .

ونسب الى شريف باشا اكبر رجال حكومة محمد علي في سوريا بعد ابرهيم باشا انه كان متواطئاً مع الحكومة العثمانية وانه كان يحاول التملص من الرجوع الى مصر ليبقى في سوريا ويتولى الحكم فيها من قبل العثمانيين غير ان ابرهيم باشا احبط سعيه [2] .

ولما عول ابرهيم باشا على مغادرة دمشق نهائياً عقد مجلساً دعا اليه اعيان البلد وكلفهم انتخاب متسلم لمدينتهم فوقع الانتخاب على حسن بك الكحالة [3] ثم نصحهم ان يلزموا السكينة ويحافظوا على الامن

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٢٢٦

(٢) « « ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٣١ و ٢٣٢ ومخطوطة مشاقة ص ٢٠٠ — ٢٠٤ و ٢٠٦ — ٢٠٨

(٣) بعد انسحاب ابرهيم باشا من دمشق عين محمد عزة باشا احد اغا اليوسف متسلماً عليها (الدمشقي ص ٥٥)

وهددهم بالعودة اليهم والانتقام منهم وتدمير بلدتهم فيما لو سمع انهم اساءوا معاملة اي كان من المسيحيين او اليهود او المسلمين [١] . وبعد انسحاب ابرهيم باشا من دمشق قدم اليها احمد اغا اليوسف منفذاً من رجال السلطة العثمانية لتولي الحكم في دمشق فشدد في المحافظة على الامن وانذر كل من يتعدى على النصارى بالعقاب الصارم .

وكان في غضون ذلك قد حدث تغيير في قيادة جنود الحلفاء فاقيل الجنرال سميث Smith وخلفه في ١٦ كانون اول (ديسمبر) سنة ١٨٤٠ الجنرال جوكوس (Jockmus) في ادارة الحركات الحربية براً وكان مركز القيادة في بيروت فنقله الجنرال جوكوس في ٢٢ كانون اول سنة ١٨٤٠ الى حاصبيا ليقترب من مقر الجيش المصري . ثم وجه ضابطاً من اركان حربه ليدير الحركات الحربية حول دمشق ودعا باسم السلطان رجال لبنان وغيرهم من رجال البلاد الواقعة جنوبي بيروت فبعلبك فدمشق ليحتشدوا ويطاردوا جنود ابرهيم باشا ويدفعوها نحو الصحراء فكان الامير خنجر الحرفوش وشبلي اغا العريان ورجالهما المتاولة والدروز في مقدمة الذين تعقبوا جيش ابرهيم باشا الى ضواحي دمشق واخذوا في مناوشة مخافره الامامية ثم أُرسل مندوب سري الى المدينة فنثر في انحائها نشرات تدعو الجنود الى الانضواء تحت لواء السلطان وتعدهم بالمكافاة وحسن المعاملة ففر على اثر ذلك الى جانب

(١) مذكرات تاريخية ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ومخطوطة مشاقة ص ٣٠٨ و ٣٠٩

العثمانيين نحو مائة ضابط وثمانماية جندي من جيش ابرهيم النظامي [1] .

وكان ابرهيم باشا عندئذٍ يتأهب للانسحاب من دمشق فأخلاها يوم الاثنين في ٥ ذي القعدة سنة ١٢٥٦ = ٢٩ ك١ (ديسمبر) سنة ١٨٤٠ م وكانت عدة جيشه حينئذٍ نحو خمسة وخمسين الف رجل يتبعهم نحو سبعة الاف نفس من العائلات وغيرها [2] .

فاتصل خبر الانسحاب بمندوب الجنرال جوكوس فتقدم والامير خنجر الحرفوش وشبلي اغا العريان الى الهامة القريبة من دمشق ومنها انفذ رسلاً كشافة الى المدينة فعادوا اليه مؤيدين خبر الجلاء فدخل دمشق مع اعوانه واعلن فيها حكم السلطان . ثم خرج متجهاً نحو الكسوة في اثر جيش ابراهيم باشا فادرك مؤخرة الجيش وحصلت بينه وبينها موقعة حامية الوطيس انضم بعدها اليهم نحو سبعماية من متخلفي الجيش المصري فذهبوا بهم الى معسكر الامير بشير قاسم في طبريا

وكان الجنرال جوكوس قد نقل مقره العام من حاصبيا الى صفد وبلغه ان ابراهيم باشا سيمر على جسر بنات يعقوب فامر بتدمير الجسر المذكور غير ان ابراهيم باشا عدل عن السير في تلك الطريق واتجه نحو المزيريب فوصلتها جنوده في ٢ و ٣ ك ٢ (يناير) سنة ١٨٤١ وكان الحورانيون يواصلون مناوشته في اثناء سيره وقاسى رجاله وعيالهم

---

(١) A. Laurent; T. I, pp. 214-216

(٢) مذكرات تاريخية ص ٢٣٢

Laurent, T. I, pp. 217-249-251

The war in Syria, Vol. 2, pp. 184-186

الشدائد بسبب ذلك ومن تأثير الامطار وبرد الشتاء القارس

مكث الجيش في المزيريب ثلاثة ايام تأهب فيها لسفره الشاق في البادية واخذ قسطاً من الراحة وتناول الزاد وعلف الخيول · ثم بارحها مقسماً الى ثلاثة فيالق وُلّيَ احمد منكلي باشا قيادة احدها وكان مؤلفاً من المشاة والخيالة النظامية ما عدا جنود الحرس وأُمر بان يدخل القطر المصري عن طريق غزة فالعريش · اما الفيلق الثاني فكان مؤلفاً من المدفعية يقودها سليمان باشا الفرنساوي وسار في طريق الحج الى معان ومنها الى العقبة فالنخل فالسويس · وتولى ابراهيم باشا قيادة الفيلق الذي كان مؤلفاً من جنود الحرس مشاة وخيالة وفرسان المنادي والباشبوزوق وجعل وجهته غزة ومنها بحراً الى القطر المصري

اما الجنرال جوكوس فانتقل من صفد الى جسر المجامع ومن هذا الى جنين وحشد جميع جنوده لمنازلة ابرهيم باشا في تلك الجهات حاسباً ان الانسحاب سيكون عن طريق جنين غير ان ابرهيم باشا افسد عليه خطته هذه بتقسيم جيشه وتوجيهه في طرق مختلفة واقعة كلها الى شرقي نهر الاردن وبحر الميت · فسار احمد منكلي باشا من المزيريب متجهاً جنوباً بشرق ماراً في حسبان فذيبان فالكرك ثم اجتاز بوغاز الخنزيرة ودار حول الطرف الجنوبي من البحر الميت ميمماً تل الملح واخترق السهل غرباً الى غزة · وقد لقي في طريقه الاهوال · فبعد قيامه من المزيريب ببضعة ايام شح الزاد والماء ولم يجد في الطريق منها الا اليسير فاخذت

جنوده تفر نحو البادية والجبال ووصل بوغاز الخنزيرة وهو مكان صعب المسالك يبعد عن المزيريب مسيرة عشرة أيام بعد ان فقد من رجاله عدداً كبيراً بسبب الجوع والعطش والاعياء . واجتيازهم بوغاز الخنزيرة وهم في اشد حالات الضنك والكلال زاد عدد الوفيات وهلك كثيرون منهم بسبب وعورة المسالك وزلات الاقدام . اما بعد اجتياز ذلك البوغاز فوجدوا ماء غزيراً واخذوا نصيباً من الراحة لكنهم لم يجدوا شيئاً من القوت فضطروا الى اكل لحوم الحيوانات الميتة واعشاب البرية . وعند مرورهم على مقربة من البحر الميت اوقعهم عدم الخبرة بالطريق في مستنقعات فقدوا في اجتيازها عدداً كبيراً من الرجال والنساء والاولاد والخيول كما ان شراذم العربان اخذت تهاجمهم ومن ذلك الوقت الى ان اقتربوا من غزة كانوا في صراع دائم مع الجوع والعطش والعربان . واخيراً وصل منيكلي باشا بفرق الخيالة الى غزة في ٢١ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٤١ ووصل بعده المشاة من رجاله في الخامس والعشرين والسادس والعشرين منه . وقد قدّرت خسارة هذا الفيلق ما بين المزيريب وغزة بما لا يقل عن نصف رجاله [١] .

اما الفيلق الثاني الذي كان يقوده سليمان باشا فكان اسعد حظاً من الفيلق الاول لانه اتبع طريق الحج من المزيريب الى معان فلم يصادف عقبة في طريقه وبلغوا معان والطقس صحو والمؤن وفيرة فيها واهلها

---

(١) Laurent, T. I, PP. 228-233 & Napier Vol. 2, PP. 163

مقيمون على الولاء لحكومة محمد علي فاستراحوا فيها خمسة ايام . غير انهم لم يحملوا معهم الزاد الكافي لسفر طويل لاعتقاد سليمان باشا ان ما يلزم لتموينهم في ما بقي من الطريق قد ارسل من مصر الى المحطات الواقعة بين العقبة والسويس . غير ان اعتقاده كان في غير موضعه فقاسى جيشه آلام الجوع والعطش ولو لم يوفق الى استخراج الماء لقيامهم في بعض الطريق ويبادر الى طلب الزاد ويتلقى شيئاً منه لهلك فريق كبير من رجاله . وقد كان عدد رجال فيلق سليمان باشا نحو تسعة آلاف وعدد مدافعه ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ وقدر ما فقد منه في الطريق موتاً وفراراً بنحو الف وخمساية رجل اما المدافع فاكثر الروايات على انه وصل منها الى القاهرة ماية وخمسون مدفعاً بخيولها [1]

اما الفيلق الثالث الذي كان يقوده ابراهيم باشا فسار من المزيريب الى السلط بدون ان يلاقي مشقة كبيرة في طريقه لكن وجد بعض العربان المعادين في قلعة السلط فطردهم منها وكانت البلدة خالية من مواد الغذاء لان اهلها كانوا قد نقلوها منها فلم يقم الجيش فيها الا يوماً واحداً ثم تقدم الى نهر الاردن واجتازه الى اريحا فمكث فيها نصف يوم ومنها اتجه جنوباً بشرق فعبر نهر الاردن ثانية الى الضفة اليسرى وشاع حينئذ انه عاد الى شرقي الاردن حذراً من الاصطدام بالجنود العثمانية التي كانت محتشدة لمقاومته في الخليل والحقيقة هي ان عبور ابراهيم

---

(١) Laurent. T. I, PP. 233-241 , Soliman Pacha. P. 423

باشا الاردن من الشرق الى الغرب ثم رجوعه الى الضفة الشرقية لم يكن الا مناورة دعاه الى القيام بها ما اتصل به من ان الجنرال جوكوس عول على مهاجمة غزة والبطش بحاميتها المصرية والاستيلاء على الميرة والذخيرة التي جمعت فيها لسدّ بعض حاجات الجيش المنسحب وكان قد شرع فعلاً في سوق الجنود نحوها فاحباطاً لهذا الهجوم تظاهر ابراهيم باشا بالعزم على مهاجمة القدس فاجتاز نهر الاردن من الشرق الى الضفة الغربية واوهم الجنرال جوكوس انه زاحف عليها فخدع العدو بهذه الحيلة وبعد ان كانت جنوده قد شرعت في الزحف على غزة ارتدت نحو القدس لاجل الدفاع عنها"[1]

اما ابراهيم باشا فبعد ما اجتاز الاردن الى ضفته اليسرى استأنف الزحف جنوباً فاجتاز جبل عجلون بشيء من المشقة ومر في اماكن خالية من الماء ومواد الغذاء مع شدة حاجة جيشه اليهما وكانت العربان تناوش جنوده الى ان بلغوا الكرك بعد عناء شديد . فاقام بجوارها اربعة ايام وهو يحاول عبثاً الحصول على المؤن التي يحتاج اليها لان الكركيين اتخذوا موقفاً عدائياً فارتحل عنها الى الطفيلة فوجد فيها الماء الغزير لكنها كانت خالية من المواد الغذائية لان الفيلق الاول كان قد مر فيها ونهبها وهكذا اخذت وطأة الجوع تشتد عليهم يوماً فيوماً وكانت في الوقت عينه هجمات العربان عليهم متواصلة الى ان بلغوا

(1) Napier Vol. 2, P. 330

غزة في ٣١ ك ٢ (يناير) سنة ١٨٤١ م وقد فقدوا عدداً كبيراً من الرجال والنساء والاطفال اما فراراً او قتلاً بايدي العربان او بالوفاة من تأثير الجوع والعطش والامراض

وعلى اثر وصول ابراهيم باشا الى غزه ابلغ والده خبر وصوله اليها وطلب لوازم الجيش فبادر الى امداده بالمؤن والملابس والاموال وبلغه امر الانسحاب نهائياً من سوريا والعودة الى مصر [1]

اما عدد الجنود الذين عادوا الى القطر المصري فبلغ ما بين خمسة وثلاثين واربعين الفاً منهم نحو ثلاثين الفاً عادوا عن طريق غزةوالباقون عادوا عن طريق العقبة فالسويس بقيادة سليمان باشا والذين احتشدوا منهم في غزة عاد بعضهم الى مصر براً بطريق الصحراء والبعض الآخر عاد مع ابراهيم باشا بحراً وكان انتهاء انسحابهم من غزة في ١٩ شباط (فبراير) سنة ١٨٤١ وبه تم جلاء الجنود المصرية عن سوريا [2]

بقي للسوريين ان يسترجعوا ابناءهم المشتتين في مصر والسودان فبعض اللبنانيين الذين كانوا قد ذهبوا الى القطر المصري بعد ما استولى ابراهيم باشا على سوريا واشهرهم نعمان بك جنبلاط وخطار بك عماد وناصيف بك ابو نكد اعادهم محمد علي الى لبنان بعد ان انعم على كل منهم برتبة الميرالاي آملاً بان يكونوا اعواناً لابراهيم باشا بعد ان ظهرت علامات التذبذب على الامير بشير لكن لم يصلوا الى سوريا الا

(1) Laurent, T. I, PP. 241-248 & Soliman Pacha, pp. 426-427

(2) Napier, Vol. 2, pp. 183-186

وقد انقطع الرجاء من بقاء حكومة محمد علي فيها فانصرفوا الى اوطانهم [1]

اما باقي اللبنانيين وهم الذين ابعدوا الى السودان بعد ثورة سنة ١٨٤٠ وسبق ان اتينا على ذكرهم في الكلام على تلك الثورة فهؤلاء كان السر تشارلس نايار قد اتفق مع حكومة محمد علي على اعادتهم الى اوطانهم ثم انتدب ولده الكولونل نايار للذهاب الى مصر لارجاعهم الى اوطانهم وبعد مفاوضات ومماطلات عديدة عاد بهم الى بيروت في اواسط اذار سنة ١٨٤١ ما عدا الامير يوسف سليمان شهاب من بلدة الحدث فانه كان قد توفي في صعيد مصر وهو عائد من بلاد السودان [2] .

اما الجنود السوريون الذين كانوا في القطر المصري فكان قد تم الاتفاق مابين السر تشارلس نايار وبوغوص بك بالنيابة عن محمد علي باشا

---

(١) ان المراسيم الاصلية الصادرة من محمد علي بترجيه رتبة الاميرالاي الى نعمان بك جنبلاط وناصيف بك ابو نكد لا تزال محفوظة عند ذويهم وهذا نص احدهما باسم نعمان بك جنبلاط :

« افتخار الاماجد الكرام ذوي الاحترام نعمان بك جنبلاط ننهي اليكم ان من حيث »
« وقع ما وقع من الامير بشير بارتكاب عار الفرار وذهابه الى بئس القرار ورأينا »
« فيكم الاهلية والصلاحية باقامتكم في خدامتنا العلية اقتضت ارادتنا نصبكم رئيساً على عشيرتكم »
« وقد انعمنا عليكم الرتبة الميرالاية وزينا صدركم بالنشان المخصوص الى هذه الرتبة »
« السنية شرفاً لكم وليكن من لدنا فاعلموا قدرها واسعوا الى اصلاح بيتكم ووطنكم ورفع »
« المضرة عن ارضكم وعشيرتكم من المفاسد التي اظهرها اهل البغي والفساد في تلك »
« البلاد تنالون انتظام الحال ورفاه البال انتم واهل بلادكم وهذا الامر فرض مبن على »
« من عنده غيرة على الوطن ومحبة المأوى والسكن فبناء على ذلك اصدرنا هذا تشريفاً »
« وتكريماً اليكم فبادروا بما تقتضيه الانسانية بتحصيل رضا الاله وحسن توجهات رسول »
« الله لعلكم تفلحون . »

في سنة ١٢٥٦ انظر ايضاً مخطوطة مشاقة ص ٢١٢

(٢) The War in Syria, Vol. 2, P. 261

على اعادتهم جميعاً الى اوطانهم حالما يتم الجلاء عن سوريا [١] . لكن رغماً عن ذلك الاتفاق اقيمت العقبات في سبيل ارجاعهم واخيراً بناء على الحاح الكولونل نايار (ابن السر تشارلس نايار) الذي انتدب للمطالبة بارجاعهم وتأييد المعتمد الانكليزي في مصر له امر محمد علي بارجاعهم فوصلت اول فرقة منهم الى بيروت في اواسط ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٤١ ثم تبعها الباقون فبلغت جملتهم نحو عشرة الاف جندي [٢] . وبرجوعهم انتهت العلائق الرسمية ما بين مصر وسوريا لكن عقبتها علائق جديدة بين القطرين مبنية على تبادل المنافع والاخلاص الخالي من الشوائب -

---

(١) The War in Syria, Vol. 2, P. 262

(٢) المؤلف والجزء نفسه ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

تأثير حكومة محمد علي في سوريا

زالت حكومة محمد علي من سوريا بانسحاب جنوده منها اما تأثيرها فلم يزل مع ذلك الانسحاب لانها احدثت في نظام الاحكام انقلاباً عظيماً فادخلت انظمة جديدة للادارة والقضاء والمالية والجندية وانفذت في السوريين سلطة العزيز المقتدر فكان لذلك تأثيرات جمة في حياة البلاد الاجتماعية والادبية والاقتصادية والادارية والسياسية منها ما كان بعيد المدى فاتصل تأثيره بوقتنا الحاضر ·

التأثير الاجتماعي : من التغييرات الاجتماعية التي نشأت عن حكم محمد علي في سوريا اطلاق الحرية الدينية ونشر روح الديموقراطية بالضرب على ايدي الزعماء والمتغلبين [1] ونزع السلطة من ايديهم وانشاء العلاقة ما بين افراد الشعب وحكامه مباشرة وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر في الشؤون المحلية بعد ان كان النظر في جميع الشؤون منوطاً بحكام مستبدين ·

وقد كان لوجود ابرهيم باشا في سوريا تأثير في بساطة [2] المظهر بعد ان كان كبار البلاد يباهون بالملابس الفاخرة والمظاهر الخلابة

---

(١) مشهد العيان (طبع) ص ١١١ — ١١٢

(٢) Guys, T. 2, P. 168

وكثرة الاتباع وانما كانوا يقلدون في ذلك الحكام العثمانين · اما ابرهيم باشا فكان ميالاً بفطرته الى بساطة المظهر والتخشن في[1] المعيشة ولعل حياته الجندية زادته استمساكاً بذلك لان احوال الجندية تقتضي التخشن وملابس رجالها بسيطة متماثلة لا تميز فيها بين ملابس كبار الضباط وصغارهم الا بما عليها من العلامات الفارقة · ويروى انه لما جاء ابراهيم باشا بجيشه الى لبنان وحلّ في دير القمر اقام في منزل حقير[2] لا ينزل فيه امثاله من الوزراء · وذهب ذات ليلة لزيارة الامير بشير زيارة غير رسمية فلم يستصحب احداً من رجال حاشيته بل كان يصحبه احد خدمه فقضى السهرة عند الامير في المسامرة والتدخين · وكان الامير قبل ذلك لا يعهد في الوزراء سوى مظاهر الابهة والترفع عن الناس فلا تتحرك ركابهم من مكان الى اخر الا وهم مرتدون الملابس الفاخرة محاطون بالجند والعظماء · وكان الامير نفسه بل من دونه من الزعماء يجرون على الخطة نفسها كل حسب مكنته ومكانته · اما بعد ان تلقى هذه الزيارة الودية من ابراهيم باشا الخالية من التكلف البعيدة عن الفخفخة لم يسعه الا ان يحذو حذوه وبما ان ابراهيم باشا وهو ابن عزيز مصر ورأس الحكومة السورية وقائد الجيش العام زاره مستصحباً خادماً واحداً فقط يحفظ النسبة ما بين مقامه ومقام مولاه وهما نازلان

---

(١) Clot-Bey, T. I, p. LXXVII و Guys, T. 2 و P. 150
(٢) Carne, John, Vol. 3. p. 53

حينئذٍ في مكانين متقاربين ردّ له الزيارة منفرداً "[1]

وفي عهد ابراهيم باشا في سوريا طرح الامير بشير واولاده العمائم واستبدلوها بالطربوش المغربي اقتداءً بمحمد علي وابراهيم باشا ورجالهما فتبعهم في ذلك كبار رجال البلاد وغيرهم [2]

واظهر ما قامت به حكومة محمد علي من التغييرات الاجتماعية المساواة بين رعاياها على اختلاف الاديان والمذاهب . فقبل دخول ابرهيم باشا الى سوريا لم يكن مباحاً للمسيحيين ان يتعمموا بالعمائم البيضاء او الخضراء او الحمراء وكانت محظورة عليهم بعض امور غير هذه وكانت تولية المسيحيين مناصب الحكومة قليلة الوقوع . فحكومة محمد علي ازالت كل هذه الفوارق [3] واباحت للمسيحيين ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية وقلّدت كثيرين من المسيحيين الوطنيين والافرنج الوظائف في الجيش والحكومة الملكية ومنحتهم الرتب والالقاب — ويروى عن حنا بك بحري الذي كان يتولى منصباً رفيعاً في حكومة سوريا ان زملاءه المسلمين كانوا لا يعاملونه بالاكرام الذي يستحقه منصبه وكان محمد علي قد منحه رتبة مير ميران فشكا امره الى ابرهيم باشا فهذا لم يحدث احداً عن هذه الشكوى لكنه دخل مرّة الى مجتمع ضم كبار رجال مجلسه وبينهم حنا

---

(١) Guys, H. T. 2, pp. 168-171

(٢) المؤلف نفسه ج ٢ ص ١٦٩ واخبار الاعيان ص ٥٨٨

(٣) Poujoulat. B.; T. 2, pp. 166 167, Perrier, pp. 107-108

بك بحري فنهضوا واقفين · فقال ابرهيم باشا : « يا بك تقدم نحوي »· دون ان يذكر اسم البك الذي طلب تقدمه ولم يخطر ببال احد انه يقصد بحري بك دون غيره من البكوات الواقفين امامه فتقدم موظف آخر اسمه حافظ بك فقال له ابرهيم باشا : « اني انادي بحري بك »· فرجع حافظ بك الى مكانه وتقدم بحري بك ولما دنا منه قال له : « تفضل » واجلسه على مقربة منه · اما سائر رجال المجلس فبقوا في اماكنهم وقال لهم « اجلسوا » [1] · فبعد هذا الحادث صار كبار رجال الحكومة يعاملون حنا بحري بك المعاملة اللائقة بمقامه ·

وكان قبل قيام حكومة محمد علي في سوريا لا يقاس المسلم بالذمي اما حكومة محمد علي فسوّت في ذلك بين رعاياها المختلفي الاديان والمذاهب كما سوت بينهم في دفع الضرائب ولم تفرق بينهم في شيء سوى تكليف المسيحيين دون المسلمين دفع الخراج لكنها كلفت المسلمين القيام بالخدمة العسكرية ولم تكلف بها المسيحيين [2] · وقد تجاوزت حكومة محمد علي في سوريا حد المساواة بين المسلمين والمسيحيين في امر التسليح فبعد ان كانت قد جمعت او فرضت جمع السلاح من جميع البلاد السورية عادت في سنة ١٨٣٨ فسلحت النصارى لتستعين بهم على مقاتلة الدروز [3] · وكان التضييق على المسيحيين الافرنج [4] قبل

---

(١) Paton, Vol. 2, p. 113 (٢) Perrier, p. 108

(٣) المؤلف نفسه ص ٢٦٣

(٤) Memoirs of Lady Hester Stanhope, Vol. I, pp. 216-217

و Paton, Vol. 2, p. 113 & Robinson, G., pp. 135-138

عهد ابرهيم باشا مثله على المسيحيين الوطنيين فكان الوافدون منهم على سوريا قليلي العدد ولا يستطيعون التجوُّل فيها الا وهم مرتدون الملابس الوطنية [1] او تحت حراسة الجند · فلما ساح بركرت « Burkhardt » في سوريا في اوائل القرن التاسع عشر ارتدى الملابس الوطنيـة واتخذ لنفسه اسم « الشيخ ابرهيم » — وعينت انكلترا قنصلاً لها في دمشق المستر فَرَن Farren سنة ١٨٢٩ فلم يستطع دخول دمشق بل بقي في بيروت مدة طويلة اي الى ان احتل ابرهيم باشا مدينة دمشق في سنة ١٨٣٢ فأُذن حينئذٍ للقنصل الجديد بالذهاب اليها فدخل المدينة باحتفال مهيب ولم يجرأ [2] احد من الاهالي ان يبدي اي تذمر او اعتراض لان ابرهيم باشا كان يحكم البلاد بيد من حديد ·

التأثير العلمي والادبي : لم تقم حكومة محمد علي في سوريا باعمال علمية وادبية ذات شأن فالمدارس التي انشأتها كانت قليلة العدد والتأثير وكانت في معظم الاوقات مشتغلة بالفتح وتسكين الاضطرابات واخماد الثورات ومقاومة الدسائس والاعتداات الداخلية والخارجية · على ان قيامها في سوريا مهد السبيل لنهضة علمية ادبية لان تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية والمالية والكتابية وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم

---

(١) Letters From The East p. 375

(٢) مذكرات تاريخية ص ٩٢ الى ٩٥ . Robinson, G. p. 394 Poujoulat, T. II, pp. 166-167

فانشئت بواسطتهم المدارس[1] كما ان ارسال بعض الشبان لدرس الطب في القطر المصري واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي باشا انشأ صلة ادبية دائمة بين القطرين فامتدت تلك الصلة ونتائجها الى وقتنا الحاضر وادخلت حكومة محمد علي روحاً علمية الى البلاد في اعمالها فانشأت محجراً صحياً في بيروت وبذلت اهتماماً يذكر في الامور الصحية وكانت تجري فيها حسب مشورة الاطباء كما فعلت في دمشق بانشاء مصارف للمياه الراكده[2] واستخدام المهندسين في ذلك وفي الانشاآت التي تحتاج الى معرفة فنية

التأثير الاقتصادي : لو قدر لحكومة محمد علي الثبات في سوريا لأثرت في حالة البلاد الاقتصادية افضل تأثير لان محمد علي كان رجلا عمرانياً طامحاً الى توطيد دعائم ملكه عالماً ان العمران دعامة الملك الكبرى فمما قامت به حكومة محمد علي من الاعمال الاقتصادية تنشيط زراعة الكرمة والتوت والزيتون واستخرجت المعادن واشهرها معدن الفحم الحجري في قرنايل وقيل في بزبدين ايضاً في مكان يدعى عين بوقة كما انها استخرجت الحديد من مرجبا في قاطع المتن في لبنان . وقد كان لحكومة محمد علي تأثير خاص في نهضة بيروت الاقتصادية لان اقامة المحجر الصحي فيها اوجب على جميع البواخر القادمة الى الشواطىء السورية ان ترسو في مياه بيروت واجرت تجارب في زراعة السكر والنيلة وشجر

---

(١) Perrier, F. p. 394

(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٧٨ و ٢٨٨

البن [1] وتربية دود القرمز غير انها لم تتمكن من مواصلة هذه الاعمال والتوسع فيها لان البلاد كانت في حالة حرب والحرب والعمران لا يجتمعان فبعد فتح البلاد بزمن قصير قامت الثورات في مختلف انحاء البلاد وما كادت تخمد هذه الثورات حتى تجددت الحرب مع الاتراك ثم تلتها محاربة الحلفاء فالانسحاب من سوريا وكان اهل سوريا ومواردها الاقتصادية مقيدين في اثناء تلك الحوادث بمشيئة الحكومة تتصرف بهم في التجنيد والتسخير والاحتكار وفرض الضرائب الثقيلة الوطأة حسبما اقتضته الحاجة ومكنت القوة من تنفيذه · فاشتغل من اشتغل من رجال البلاد في الجندية او الثورة او السخرة وفرّ الى البادية او البلاد المجاورة من استطاع الى الفرار سبيلاً [2] فحرمت الاراضي الواسعة من ايديهم العاملة كما ان ثقل وطأة الضرائب والاحتكار ثبطا عزائم من بقي من القادرين على الانتاج وفي اثناء الحروب والثورات دمرت قرى [3] عديدة واهملت الزراعة فقل الانتاج وارتفعت اسعار لوازم المعيشة [4] ولا سيما انها كانت محتكرة وقسم كبير منها مطلوب لاعالة الجيش المرابط في البلاد واصبح الاهلون في ضيق شديد · وبعد ان كانت قد ظهرت بوادر النشاط في اسواق التجارة بسبب تأمين طرق المواصلات الداخلية

---

(١) Soliman Pacha p. 224 , Napier, Vol. 2, P. XXXI

(٢) Perrier, p. 123

(٣) Condar, Tent Work in Palestine Vol. 1 p. 172, Mouriez, T. III, p. 275, Guys, II. T. 2, pp. 228-2319

(٤) Paton, Vol. 2. p. 123 , Perrier, p. 109

وتسهيل المعاملات مع البلدان الخارجية كسدت التجارة ووقف دولاب الاعمال الصناعية ايضاً ولا سيما ان البضائع الاجنبية اخذت تزاحم المصنوعات الوطنية واقبل الناس على شرائها لانها كانت ارخص ثمناً من مصنوعات البلاد واجمل منها منظراً — ورغماً عما عرف عن محمد علي من الرغبة الشديدة في تنشيط الصناعة لم تتمكن حكومته من تنفيذ رغبته هذه في سوريا [1] نظراً لما سبقت الاشارة اليه من اضطراب الاحوال واشتغالها بالحروب واخماد الثورات ·

التأثير الاداري والسياسي : من حسنات حكومة محمد علي ان مبادئها كانت نظامية ومع ان النظام لم يطبق دائماً تطبيقاً عادلاً نظراً لما تخلل ادارة الحكومة من الاختلاط والفساد فانه وضع الاساس لترقية الحكم بترقية القائمين به والشعب الخاضع له · ووزع السلطات الادارية والقضائية وقرر اختصاص كل منها بقدر الاستطاعة فاقام الحوائل دون الحكم المطلق الذي كان في ما مضى يحصر السلطة في الحاكم وحاشيته · وجرى في ذلك الاثناء تعيين عدد كبير من اهالي البلاد في المناصب المختلفة فتمرنوا على طرق الحكم الجديدة · وألفت مجالس المشورة من ابناء المدن فتعودوا على ادارة بعض شؤونهم بنفوسهم وربطت اجراآتهم بنظام معلوم · فهذا التبديل في ادارة البلاد ومد رواق المساواة فوق جميع ابناء الشعب الواحد المختلفي الاديان والمذاهب كان بمثابة مقدمة

---

(1) Poujoulat B., T. II, p. 352

الخط كلخانة الذي اصدره السلطان عبد المجيد في تشرين ثاني سنة ١٨٣٠ ولما عقبه من التنظيمات الاصلاحية التي حاول اسلافه ادخالها ولم يفلحوا. واكبر نجاح صادفته حكومة محمد علي في سوريا هو اقرار الامن في نصابه[1]. ففي عهد الحكومة العثمانيــة السابق دخول ابرهيم باشا الى سوريا كان حبل الامن مضطرباً في كل مكان وكان الاشقياء يعيثون فساداً حتى في البلاد الساحلية وعلى ابواب المدن، كذلك الاماكن الواقعة على الطرق السلطانية كما بين بيروت والشام التي كان من الواجب اقامة مخافر فيها لتأمين المواصلات كانت في ذلك العهد مكامن للصوص وكان المسافرون يضطرون الى السير جماعات جماعات وهم شاكو السلاح ليستطيعوا الدفاع عن نفوسهم واموالهم وكان من منتهى الشجاعة ان ان يذهب الرجل وحده من بيروت الى الشام ومن ذلك نشأت الاغنية المشهورة في جبل لبنان التي منها قولهم :

جوزك يا المليحة راح عالشام وحده
جوزك يا المليحة بو زيد الهلالي

اما حكومة محمد علي فانها شددت النكير على اصحاب الجرائم وانزلت بهم العقابات الصارمة وكان القاتل يقتل بدون تردد ولا امهال وجازت المجرمين بالضرب الموجع وبزجهم في السجون المظلمة وتكليفهم القيام بالاشغال الشاقة وحافظت على طرق المواصلات محافظة[2] دقيقة

(١) Wilkinson, Vol. 2, p. 550

(٢) مذكرات تاريخية ص ٧٧ و ٩٦

والقت على عواتق رؤساء القبائل وشيوخ القرى تبعة ما يقع في دوائر نفوذهم من الجنايات والسرقات التي لا يكشف مقترفوها فكان اهل القرية او الناحية يكلفون ايجاد او دفع ثمن ما يسرق او ينهب في ارضهم. فهذه الاجراآت وان كان بعضها لا ينطبق على العدالة فانها لم تكن مخالفة لروح ومقتضيات ذلك الزمان كما انها جاءت بفوائد عامة تبرر اتخاذها فاستتب الامن في جميع انحاء البلاد وفي ما عدا زمن الثورات كادت حوادث القتل والسرقة والسلب تنقطع من البلاد [1].

اما جبل لبنان فلم تترك فيه حكومة محمد علي من حسن التأثير ما تركته في سواه من البلاد السورية فقبل حلول تلك الحكومة في سوريا كان الامن مستقراً في لبنان لان الامير بشير كان منصرفاً بكليته الى ذلك وكانت هيبته في البلاد ملء الاسماع والابصار. غير ان الامير كان مستبداً وحكومة محمد علي لم تضعف استبداده [2] ولا ذهبت بسيئات الحكم الاقطاعي وضغطه على الشعب اللبناني لان السلطة التي كانت لاصحاب المقاطعات الاصليين انتقلت الى ايدي ابناء الامير وحفدته واقاربه ومريديه وهؤلاء كانوا يستمدون من الامير قوة ويفوقون الاقطاعيين الذين تقدموهم جوراً على الاهلين [3]. والذي ادى بلبنان الى هذا الموقف الشاذ هو ان الامير بشير خدم حكومة محمد علي في

---

(١) Paton, Vol. 2, p. 124
(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٠٤ و Paton. Vol. 2, p. 119
(٣) Perrier, p. 311

سوريا خدماً جليلة وكان اقدر اللبنانيين على تنفيذ مآرب محمد علي وابراهيم باشا في لبنان فنظر الى هذه الأمور بعين المراعاة ولم تتعرض حكومة محمد علي للامير بشير في ادارة البلاد الداخلية ولا انشأت مجالس مشورة في لبنان كما فعلت في مدن سوريا فبقيت السلطة محصورة في شخص الامير بشير فازداد تمكناً من رقاب اللبنانيين واغتنم الفرصة السانحة بجمع ثروة طائلة من اموالهم [1] هذا فضلاً عن ان حكومة محمد علي رتبت على اللبنانيين نحو ثلاثة اضعاف ما كانوا يدفعونه الى الخزينة العثمانية [2] . ومن اشد مساوي حكومة محمد علي في لبنان طعن الوطنية اللبنانية في صميمها بما زرعته من بذور التفريق بين المسيحيين والدروز [3] .

وقد احدث النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد علي تطوراً عظيماً في المسألة الشرقية فابرز مطامع الدول الاوربية في تركيا وغيرها من بلاد الشرق فاشتدت المزاحمة ما بين الروسية والانكليز والافرنسيين فرجحت السياسة الانكليزية في النهاية على سياسة سائر الدول لانها كانت اذا ناظرت الروسية او فرنسا تمكنت من عزل مناظرتها والتحالف مع سواها من الدول . فحالت دون تحقيق اماني الروسية في الاستانة والاناضول والبحر المتوسط وضربت السياسة الفرنسوية في الشرق

(١) Laurent, T. I, pp. 9-10 Perrier p. 360-61

(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٩٣ و Perrier p. 361

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٠١ وحروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٥٧

والقت على عواتق رؤساء القبائل وشيوخ القرى تبعة ما يقع في دوائر نفوذهم من الجنايات والسرقات التي لا يكشف مقترفوهـا فكان اهل القرية او الناحية يكلفون ايجاد او دفع ثمن ما يسرق او ينهب في ارضهم. فهذه الاجراآت وان كان بعضها لا ينطبق على العدالة فانها لم تكن مخالفة لروح ومقتضيات ذلك الزمان كما انها جاءت بفوائد عامة تبرر اتخاذها فاستتب الامن في جميع انحاء البلاد وفي ما عـدا زمن الثورات كادت حوادث القتل والسرقة والسلب تنقطع من البلاد [1].

اما جبل لبنان فلم تترك فيه حكومة محمد علي من حسن التأثير ما تركته في سواه من البلاد السورية فقبل حلول تلك الحكومة في سوريا كان الامن مستقراً في لبنان لان الامير بشير كان منصرفاً بكليته الى ذلك وكانت هيبته في البلاد ملء الاسماع والابصار. غير ان الامير كان مستبداً وحكومة محمـد علي لم تضعف استبداده [2] ولا ذهبت بسيئات الحكم الاقطاعي وضغطه على الشعب اللبناني لان السلطة التي كانت لاصحاب المقاطعات الاصليين انتقلت الى ايدي ابناء الامير وحفدته واقاربه ومريديه وهؤلاء كانوا يستمدون من الامير قوة ويفوقون الاقطاعيين الذين تقدموهم جوراً على الاهلين [3]. والذي ادى بلبنان الى هذا الموقف الشاذ هو ان الامير بشير خدم حكومة محمد علي في

(١) Paton, Vol. 2, p. 124

(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٠٤ و Paton, Vol. 2, p. 119

(٣) Perrier, p. 311

سوريا خدماً جليلة وكان اقدر اللبنانيين على تنفيذ مآرب محمد علي وابراهيم باشا في لبنان فنظر الى هذه الأمور بعين المراعاة ولم تعرض حكومة محمد علي للامير بشير في ادارة البلاد الداخلية ولا انشأت مجالس مشورة في لبنان كما فعلت في مدن سوريا فبقيت السلطة محصورة في شخص الامير بشير فازداد تمكناً من رقاب اللبنانيين واغتنم الفرصة السانحة لجمع ثروة طائلة من اموالهم [1] هذا فضلاً عن ان حكومة محمد علي رتبت على اللبنانيين نحو ثلاثة اضعاف ما كانوا يدفعونه الى الخزينة العثمانية [2] . ومن اشد مساوي حكومة محمد علي في لبنان طعن الوطنية اللبنانية في صميمها بما زرعته من بذور التفريق بين المسيحيين والدروز [3] .

وقد احدث النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد علي تطوراً عظيماً في المسألة الشرقية فابرز مطامع الدول الاوربية في تركيا وغيرها من بلاد الشرق فاشتدت المزاحمة ما بين الروسية والانكليز والافرنسيين فرجحت السياسة الانكليزية في النهاية على سياسة سائر الدول لانها كانت اذا ناظرت الروسية او فرنسا تمكنت من عزل مناظرتها والتحالف مع سواها من الدول . فحالت دون تحقيق اماني الروسية في الاستانة والاناضول والبحر المتوسط وضربت السياسة الفرنسوية في الشرق

(١) Laurent, T. I, pp. 9-10 Perrier p. 360-61

(٢) مخطوطة مشاقة ص ٢٩٣ و Perrier p. 361

(٣) مذكرات تاريخية ص ١٥١ وحروب ابرهيم باشا الخ ج ٢ ص ٥٧

ضربة قاسية · وبما انها كانت ترمي بنوع خاص الى صيانة طريق الهند من سطوة كل متغلب على مصر وسوريا بادرت الى احتلال مواقع ذات اهمية حربية في البحر الاحمر وخليج العجم اشهرها بوغاز باب المندب [1] واخذت في درس المشاريع التي تكثر وتؤمن مصالحها الواقعة في طريقها الهندية من البحر المتوسط الى الخليج العجمي كوصل نهر العاصي بنهر الفرات وانشاء مواصلات مائية ما بين مصب النهرين [2] والنزول في جزيرة قبرس [3] وجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود [4] وها نحن نرى الان ثمار جهودها فان اكثر ما غرسته حينئذ استثمرته مع كرور الايام وكان من النتائج العاجلة لتدخلها حينئذ في المسألة السورية ان رجح نفوذها في سوريا على نفوذ غيرها رجحاناً عظيماً لانها تمكنت من اخراج ابراهيم باشا منها كما اخرجت نابوليون من قبله

والخلاصة ان الغنم كله من المسألة السورية كان لانكلترا اما الدولة العثمانية صاحبة البلاد فكان نزاعها مع تابعها سبباً لفقدان استقلالها السياسي اذ اصبحت دول اوروبا العظمى من ذلك الوقت بمثابة اوصياء عليها ·

---

(١) Deux Années Etc. T. I, pp. 90-91 , Mouriez, T. III, pp. 254-257

(٢) Poujoulat, T. II, p. 593

(٣) المؤلف نفسه ص ٥٩٧

(٤) المؤلف نفسه ص ٥٩٧

فهرس

كتاب « ابرهيم باشا في سوريا »

☆

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٤	١٢	اتفاق	اتفاقاً
٢١	١٢	فبارحوها	غادروها
٢٨	٩	بواسل	بـكل
٥٥	١٢	لعبد باشا	لعبداقه
٧٠	٥	الخلود	الاخلاد
٧٧	٢	السواريخ	الصواريخ
٨٥	٦	في هذا الاثناء	في هذه الاثناء
١٠٩	٣	امس	امسى
١٢٦	١٥	وجمل	وجمله

صحيفة	سطر	خطاء	صواب
١٩٦	٧	فيوحدوا ٠٠ ويقاتلوا	فيوحدون و يقاتلون
٢٠٢	٦	ابي جيب	ابو جيب
٢٠٦	٣	مؤن	مؤناً
٢١٠	٨	يحتاجها	يحتاج اليها
٢١٣	حاشية	Stahhefe	Stanhope
٢٢٢	١٤	صارم	صارم
٢٣٩	٧	ثلاث مدافع	ثلاثة مدافع
٢٤٥	٧	منازلاً	منازل
٢٥٠	٥	محب ٠٠٠ آخذ	محباً ٠٠٠ آخذاً
٢٥٣	١١	ما لديهم	ما لديهما
٢٥٨	١٢	في ذلك الاثناء	في تلك الاثناء
٢٦٥	٩	صغرى	صغيرة
٢٧٠	١٤	نوايا	نيات
٢٧٣	٧	يبارحها	يزايلها
٢٧٤	١٠	يدعوه فيه	يدعوه فيها
٢٧٦	١	Stofoford	Stopford
٢٧٩	٤	Caftain	Captain
٢٨١	١٨	الامير	والامير
٢٩٧	١٧	نوايا	نيات
٣٠٣	١١	اليهم	اليه
٣١٤	٩	يقاس	يقاد
٣٢٣	٩	العاجل	العاجلة

ووقع في الكتاب غير هذه من الغلطات ما لا يخفى على المطالع اللبيب

